الدكتور شوقي أبو خليل

أطلس انتشار الإسلام

العقائد تُعرَضُ .. ولا تُفرَضُ



بسم الله الرحمن الرحيم



انتشار الإسلام

العقائد تُعرض .. ولا تُفرض

الدكتور شوقي أبو خليل



انتشار الإسلام

العَقائدُ تُعْرَضُ .. ولا تُفْرَضُ





2011=1432

دار الفكر - دمشق — برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

 ٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

أطلس انتشار الإسلام

د. شوقي أبو خليل

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٤٨.٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10--162-6

التصنيف الموضوعي: ٩١٢ (المصورات والأطالس)

٣٢٠ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

مقدِّمة

الحمد لله على نعمائه، والصَّلاة والسَّلام على محمَّد آخر أنبيائه، وعلى آله وأَصحابه...

انتشر الإِسلام بِالسَّيف، مقولة ردَّدها الغرب قديماً وحديثاً، وممَّا قالوه: «يتحتَّم على المسلم أَن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم، لأَنَّ محاربة غير المسلم واجب ديني»[(١)].

«من الثَّابت أَنَّ الإِسلام لم يكن يصادف نجاحاً إِلَّا عندما كان يهدف إِلى الغزو»[(٢)].

«أَخضع سيف الإِسلام شعوب إِفريقية وآسية شعباً بعد شعب»[(٣)].

«إِنَّ تاريخ الإِسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدِّماء والحروب والمذابح»[(٤)].

«وفي القرن السَّابع الميلادي برز في الشَّرق عدوٌّ جديد، ذلك هو الإِسلام الَّذي أُسِّس على القوَّة، وقام على أَشدِّ أَنواع التَّعصُّب، لقد وضع محمد السَّيف في أَيدي الَّذين اتَّبعوه، وتساهل في أَقدس قوانين

---

(١) تاريخ الشُّعوب الإِسلاميَّة، كارل بروكلمان، ص ٧٨.

(٢) فردريك موريس: The Religions Of the Word, Cambridge, 1852, P. 28.

(٣) التَّبشير والاستعمار، د. مصطفى الخالدي، د. عمر فرُّوخ، ص٤١.

(٤) لطفي ليفونيان، Levonian. p9.

الأَخلاق، ثمَّ سمح لأَتباعه في الفجور والسَّلب، ووعد الَّذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدَّائم بالملذَّات»[1].

«إنَّ هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوَّة، وقالوا للنَّاس: أَسلموا أَو موتوا، بينما أَتباع المسيح ربحوا النُّفوس ببرِّهم وإِحسانهم»[2].

والبابا الحالي بِنديكتُس السَّادس عشر، في محاضرته الَّتي أَلقاها في جنوب أَلمانية يوم الثَّلاثاء ١٢/٩/٢٠٠٦م، بجامعة ريغينسبورغ، هاجم بها الإِسلام ونبيَّه بالاسم، ومما قاله: انتشر الإِسلام بالسَّيف، وهو دين عنف[3].

قطار أكاذيب بلا مكابح

انتشر الإِسلام بالسَّيف، إِسقاط ما فيهم علينا، والإِسقاط Projection حيلة لا شعوريَّة تتلخَّص في أَن يَنْسب الإِنسان عيوبه ونقائصه ورغباته المستكرهة، ومخاوفه المكبوتة التي لا يعترف بها؛ إلى غيره من النَّاس، أَو الأَشياء، أَو الأَقدار، أَو سوء الطَّالع.. وذلك تنزيهاً لنفسه، وتخفُّفاً ممَّا يشعر به من القلق أَو الخجل أو النَّقص أَو الذَّنب[4].

جاء في كتاب الأَمثال[5]، باب (تعيير الإِنسان صاحبه بعيب هو فيه): قال الأَصمعي: من أَمثالهم في هذا: «رمتني بدائها وانسلَّت».

---

(١) البحث عن الدِّين الحقيقي، المنسنيوركولي، ص٢٢٠، ط ١٩٢٨م.

(٢) تاريخ فرنسة، هـ. غيومان، ف لوستير، ص٨٠ . ٨٢.

(٣) وكان ردُّنا في كتيِّب (لايا قداسة البابا) وسُلِّم للسَّفارة البابويَّة بدمشق، وأَعلمتنا أَنَّ رداً سيصلنا، فرحبنا وفرحنا، ولم يصل منذ ٢٠٠٦م! لأَنَّ عدم الجواب جواب.

(٤) أُصول علم النَّفس، د. أَحمد عزت راجح، المكتب المصري الحديث، الإِسكندريَّة، ط ٨، ١٩٧٠م.

(٥) كتاب الأَمثال لأَبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتُّراث، دمشق، ط ١٩٨٠م.

الإسقاط: صورة ظالمة رسمت بدقَّة، بهدف الإساءة لنا، روَّج لها الاستشراق والتَّبشير والاستعمار (الاستدمار)، «إنَّ أَوَّل شرارة أَلهبت نفوس الغربيِّين، فطارت بها إِلى المدنيَّة الحاضرة، كانت من تلك الشُّعلة الموقدة، الَّتي يسطع ضوءُها من بلاد الأندلس على ما جاورها»، كما قال ولي عهد بريطانية، الأمير تشارلز[1].

واللُّورد الفاروق هيدلي، البريطاني المسلم، يوضِّح: «أَنَّ مدبِّجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلَّموا حتَّى أول مبادئ دينهم، وإِلَّا لما استطاعوا أَن ينشروا في جميع أَنحاء العالم تقارير معروف لديهم أَنَّها محض كذب واختلاق»[2].

ونيتشه يقول بحقٍّ افتراءات الكهنوت الغربي: «لا يخطئون فقط في كلِّ جملة يقولونها، بل يكذبون، أَي إِنَّهم لم يعودوا أَحراراً في أَن يكذبوا ببراءة، أَو بسبب الجهل»[3].

ولذلك أَلَّف الكاتب البريطاني جان دوانبورت كتاباً عنوانه: (اعتذار لمحمد والقرآن)؛ اعتذر فيه عن التَّصوُّرات والأَحكام الَّتي شاعت في الغرب حول الإِسلام ونبيِّه.

الفتوح شيء، وانتشار الإِسلام شيء آخر، فالمبادئ تُعْرَض ولا تُفْرَض.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ١٨/٢٩].

---

(١) الإسلام والغرب، محاضرة ألقاها الأَمير تشارلز في مسرح شيلدونيان بمناسبة زيارته إلى مركز أكسفورد للدِّراسات الإِسلاميَّة، يوم الأَربعاء ٢٧ تشرين الأَوَّل (أكتوبر) عام ١٩٩٣م، طبعت بعد ترجمتها إلى العربيَّة، على نفقة الأَمير.

(٢) مقدَّمة كتاب (المثل الأَعلى في الأَنبياء)، خوجة كمال الدِّين، ترجمة أمين محمود الشَّريف، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.

(٣) عدوُّ المسيح، المقطع ٣٨.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٦].

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٤].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٨].

حرِّيَّة كاملة في الاعتقاد، والحقُّ يتَّضح بالأدلَّة، والعلاقة مع الآخر لا يشوبها العداء، ومن هنا جاء تنوُّع النَّسيج الدِّيني في الإسلام، لقد أتاح للمسيحي واليهودي والمجوسي والصَّابئي والهندوسي أن يعبِّر عن نفسه، وأن يقول كلَّ ما يريد أن يقوله، وأن يمتلك مقوِّمات الدَّيمومة والبقاء والامتداد في بيئة إسلاميَّة لم تمارس أيَّ مصادرة أو قسر أو نفي لعقائد الآخرين.

إنسانيَّة إسلاميَّة تعترف بالتَّمايز بين الجماعات والشُّعوب والأُمم، ولكنَّها تسعى في الوقت نفسه لأن تجمعها في صعيد الإنسانيَّة.

لو كانت الفتوح لفرض عقيدة بالسَّيف، وإجبار النَّاس على الإسلام، لأَمر الخلفاء الرَّاشدون جيوشهم بقتل الرُّهبان والأَحبار، ولكن منعوهم من ذلك، ووصيَّة أَبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه - وسترد مفصَّلة في صفحات قادمة (ص٥٥) - خير شاهد، ولما رأَينا غير المسلم في المجتمع الإسلامي، لقد بقي غير المسلم على عقيدته، مع حمايته وحماية ماله، ودور عبادته، والعهدة العمريَّة أوضحت ذلك بجلاء، وسترد في هذا الأَطلس بوضوح وتوثيق (ص٢٥).

اضطهادات إسلامية، إكراه، أَين هي؟ ومتى وقعت؟ وعلى مَنْ؟ عالميَّة

الإسلام غُرست بين تعاليمه في السُّور الأُولى نزولاً، ففي سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٢]، وفي سورة ص وهي مكِّيَّة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٣٨/ ٨٧-٨٨][١].

رسائل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلَّم إلى الملوك خارج الجزيرة ليست ضرباً من المجاملة، إنَّها دعوة سلميَّة مع الحفاظ على عروشهم، وتدخُّل الفُرس والرُّوم بعدها بأحداث الجزيرة بعد تبوك وحروب الرِّدَّة، فرضت مواجهتهما عسكرياً، «والقوة ليست عيباً، إنَّما العيب استغلالها السَّيِّئ، وتسخيرها لفرض الهوى، وإقرار الجور..والإسلام لم يجعل الحكم قنطرة لإدخال النَّاس فيه كرهاً، بل إنَّ الإيمان النّاشئ عن الإكراه لا قيمة له عنده، وليس له عند الله مثوبة، وكما أنَّ كلمة الكفر الَّتي ينطق بها المؤمن كرهاً، لا تخلعه من الإيمان، فكذلك كلمة الإسلام الَّتي يتلَّفظ بها تحت الضَّغط لا تخرجه عن الكفر»[٢].

صورة رسالة الرسول ﷺ
إلى هرقل عظيم الروم

(١) وردت كلمة (النَّاس) في القرآن الكريم ٢٤٠ مرَّة، وتعني النَّاس كلَّهم، على اختلاف عقائدهم وقوميَّاتهم وألوانهم، إنَّها تعني البشريَّة جمعاء (انظر: معجم كلمات القرآن، محمد عدنان سالم، محمد وهبي سليمان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٩٧٥).

(٢) مع الله، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٢٤.

ولكن في القرآن الكريم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠]، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ الضَّمير عائد على العُدَّة، تخيفون بقوَّتكم من يفكِّر بالاعتداء عليكم، (ترهبون)، الجملة في محلِّ نصب على الحاليَّة من فاعل أعدُّوا، أي أعدُّوا ما ترهبون به، تردعونه عن الاعتداء عليكم، فالقتال له شروطه، لرفع الظُّلم، ومنع الاعتداء، فأوَّل آية أذنت بالجهاد حدَّدت الهدف: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٩-٤٠]، وفي سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

أُسُس انتشار الإسلام متوافرة فيه، تجعله كالرِّياضي الرَّشيق الَّذي يلعب (جمبازاً) بين معوَّقين، منها:

١- متانة أُصوله الَّتي تخاطب العقل، وتجعله فيصلاً في المحاكمة، وفي القبول أو الرَّفض.

٢- بلاغة القول، وحُسْن البيان، مع الحوار بالتي هي أحسن.

٣- شعور النَّاس أنَّ خطاب القرآن الكريم موجَّه إليهم مهما كانت قوميَّتهم، أو لونهم، أو عرقهم.

٤- لا تعارض مع العلم مهما تقدَّم وارتقى، ولا تصادم بين الوحي والعلم، فالَّذي أوحى القرآن الكريم، هو خالق قوانين العلم الَّتي نكتشفها، فمِن أين يأتي التَّصادم؟.

٥- مع توازن دقيق بين المادَّة والرُّوح، فلا المادَّة تطغى على الرُّوح، ولا الرُّوح تنكر المادَّة، ولا رهبانيَّة في الإسلام، ودعاء المسلم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠١]. ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا

تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧].

٦- الأُسوة الحسنة الَّتي تمثَّلت بأَخلاق التَّاجر المسلم، ومعاملته الملفتة للنَّظر، فسلوكه دعوة وإِحسان، وقد جُبِلَت القلوب على حبِّ من أَحسن إِليها.

٧- لا عقم ولا جمود، فدعوة الحقِّ لا تذبل لأَنَّ التَّفكُّر يبعثها من جديد، يكفيها ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، قِيلَت همساً في غار حراء، ثمَّ انطلقت مجلجلةً شعار حضارة إنسانيَّة خالدة.

٨- تسامح المسلمين من أَهمِّ الأَسباب لتحوُّل النَّاس إلى الإسلام. فتسامح الإِمام الفقيه عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأَوزاعي (١٥٧هـ/ ٧٧٤م)[١]؛ أَدخل النَّاس بالإِسلام، حتَّى في الحروب الصَّليبيَّة، وفي الحملة الثَّالثة، تحوَّل ثلاثة آلاف إِلى الإِسلام لغدر الأَرثوذكس، وتسامح السَّلاجقة الأَتراك[٢].

ابن تيمية، رفض ترك الأَسرى من غير المسلمين عند التتار، وأَنقذهم مع الأَسرى المسلمين، لأَنَّهم ذمَّة في أَعناقنا.

مركز تتبُّع انتشار العقائد في برن (سويسرة)، يقدِّم تقريرهُ السَّنوي قائلاً: منذ سنوات طويلة، والإسلام هو الأَقدر على كسب الأَتباع بين عقائد العالم كلِّها، على الرَّغم من إِمكانات دعاته المتواضعة، والجهود الفرديَّة المبعثرة، أَمام إِمكانات التَّبشير الضَّخمة، من حيث مليارات الدُّولارات، والتَّنظيم والدَّعم الغربي الإِعلامي.

إِنَّ قِدَم الحوار مع الآخر - مع أَهل الكتاب - قِدَم الدَّعوة الإِسلاميَّة نفسها، بعد أَن ضمن حرِّيَّة العقيدة لكلِّ النَّاس.

---

(١) «كان الأوزاعي عظيم الشَّأن بالشَّام، وكان أَمره فيهم أَعز من أَمر السُّلطان»، [الأَعلام ٣/ ٣٢٠].

(٢) الدَّعوة إِلى الإِسلام، ص١٠٩ و١١٢.

يطبع الأُوربيُّون التَّوراة مع إنجيلهم، مع أَنَّها لم تذكر السَّيِّد المسيح وأُمَّه الطَّاهرة البتول ولو مرَّة واحدة، أَمَّا القرآن الكريم ففيه السُّور الطَّويلة عن حياة السَّيِّد المسيح وأُمِّه، فيه سورة باسم عائلة السَّيِّد المسيح (آل عمران)، و(آل) كلمة تُخَاطَبُ بها العائلات الكريمة الطَّيبة الشَّريفة. وسورة باسم معجزة السَّيِّد المسيح (المائدة)، وفيها ثلاث معجزات له لم تذكرها الأَناجيل: نزول المائدة، وإِحياء الطَّير، والتَّكلُّم بالمهد. وسورة باسم والدته البتول (مريم). وسورة باسم الأَتباع (الكهف)، لذلك من يعتنق الإِسلام يربح محمَّداً ولا يخسر المسيح.

أَسئلة اليهود للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلَّم والإجابات عنها، حوارات يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قرَّة مع علماء المسلمين، الحوارات أَيام الهادي وهارون الرّشيد والمأمون، كحوار البطريرك طيماثاوس النَّسطوري وغيره.. تدل على الدَّعوة بالكلمة الطَّيبة، ومن حقِّ الآخر أَن يقول ولو تخيُّلاته، ومن حقِّنا الطَّبيعي تناول أقواله بالدِّراسة والنَّقد والتَّصويب والتَّفنيد، لأَنَّ السُّكوت عنها يعني التَّسليم الضِّمني بها.

فباب الحوار مفتوح، وبالَّتي هي أَحسن، وباب التَّسامح على مصراعيه، لسعة صدر الإِسلام من ناحية، ولعالميَّته من ناحية ثانية: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨-٩]، فصدور قانون يحرِّم التَّعاون مع قوات أَجنبيَّة؛ لا يعني، ولا يفهم منه البغضاء للعالم أَجمع، وأن يشتري خصومة العالم من غير مسوِّغ.

فالإِسلام يمدُّ يده لمصافحة أَتباع الأَديان الأُخرى لتحقيق التَّعاون الصَّادق على إِقامة العدل، ونشر الأَمن، وصيانة الدِّماء أَن تسفك، وحماية الحرمات أَن تنتهك.

افتراءات تنقضها حقائق الإسلام، ووقائع التّاريخ

النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يبدأ حرباً قط، سار إلى بدر بقوَّة صغيرة (٣١٣رجلاً) لمصادرة قافلة قريش التِّجاريَّة، لأَنَّ أَموال المسلمين المهاجرين الَّذين صودرت أَموالهم، وبيعت ممتلكاتهم في مكَّة، هي في أَموال القافلة، فسارت قريش بجيشها للقتال (٩٥٠ رجلاً)، وهي الَّتي سارت إلى أُحُد، وإلى الخندق، وحينما نقضت قريش بنود صلح الحديبية، وأراد صلى الله عليه وسلَّم أَن يدخل مكَّة، حرص أَلَّا تزهق أَرواح، أَو تراق دماء من الطَّرفين، فعهد لأُمرائه وجنده «ألا يقتلوا أَحداً إلَّا من قاتلهم»[١].

وسنرى في الفتوحات الإِسلاميَّة في القارَّات الثَّلاث أَن لا فرض لعقيدة، قال البطريق (يشوع باف الثَّالث) في رسالة بعثها إلى المطران سمعان رئيس أَساقفة فارس: «إنَّ العرب الَّذين منحهم الله سلطان الدُّنيا، يشاهدون ما أَنتم عليه، وهم بينكم كما تعلمون ذلك حقَّ العلم، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحيَّة، بل على العكس، يعطفون على ديننا، ويكرِّمون قسسنا وقدِّيسي الرَّب، ويجودون بالفضل على الكنائس والأَديار»، ويعلِّق السِّير توماس آرنولد على هذه الرِّسالة بقوله: «تحمل هذه الرِّسالة الدَّليل السَّاطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدِّين الجديد»[٢].

وتقول المستشرقة الإيطاليَّة (لورافيشيا فاغليري) عن روعة انتشار الإِسلام: «أَيَّة قوَّة عجيبة تكمن في هذا الدِّين؟ أَيَّة قوَّة داخليَّة من قوى الإِقناع تنصهر به؟ ومن أَيِّ غور سحيق من أَغوار النَّفس الإِنسانيَّة ينتزع نَداوَة استجابة مزلزلة؟»[٣].

---

(١) الطَّبري ٣/ ٥٤، الكامل في التَّاريخ، ٢/ ١٦٦.
(٢) الدَّعوة إلى الإِسلام، ص ١٠٢.
(٣) دفاع عن الإِسلام، ص٤٠.

ووصف الكونت هنري دي كاستري المسلمين بقوله: فلم يقتلوا أُمَّة أَبت الإِسلام، ولم يُكرَه أَحدٌ على الإِسلام بالسَّيف، ولا باللِّسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أُودع في القرآن من مواهب التَّأثير والأَخذ بالأَلباب[1].

ومن يتَّهمنا بإِكراه النَّاس، وبسفك الدِّماء، والحروب والمذابح (أَسلموا أَو موتوا)، كيف انتشرت عقيدته؟! ستأتي الإجابة في حينها، ولكن نذكِّر بمحاكم التَّفتيش، الَّتي شُكِّلت في إسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨م، فظائعها مريرة محزنة، هدفها الأَوَّل والأَخير مصادرة حرِّيَّة المعتقد، حيث تنصير المسلمين بإشراف السُّلطات الكنسيَّة، مع كل تلك العهود الَّتي قُطِعَت للمسلمين، أَنَّ لهم مطلق الحرِّيَّة في دينهم ومساجدهم، وحينما ثاروا بسبب نقض الإِسبان لعهودهم



تسليم مفتاح غرناطة

(١) الإِسلام خواطر وسوانح، ص ٣٥.

المكتوبة، اتُّهموا باتِّصالهم بالمغرب والقاهرة والقسطنطينيَّة، وبدأ القتل فيهم، ومُزِّقوا بلا رأفة، وفي **٢٠** تموز (يوليو) عام **١٥٠١**م، أصدر الملِكَان الكاثوليكيَّان فرديناند وإيزابيلا أمراً خلاصته: إنَّه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غَرْناطة من الكَفَرة، فإنَّه يحظر وجود المسلمين فيها، ويُعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال.

محاكم التَّفتيش لطخة عار في وجه أُوربة، فمن أَنواع التَّعذيب بإِشرافها: إملاء البطن بالماء حتَّى الاختناق، والأَسياخ المحمَّاة، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الأَرجل، وفسخ الفك، والإِعدام حرقاً..[١].

يقول الرِّوائي والشَّاعر الأَلماني هيرمان هيسي: «إنَّ الرَّبَّ والكنيسة لا يحميان الأَفراد أَبداً، بما في ذلك موظَّفي الكنيسة، من ممارسة أَبشع أَنواع السُّلوك المنحرف»[٢].

بدأَت الكشوف البرتغاليَّة سنة **١٤١٨**م حينما أبحرت السُّفن حاملة إلى شعوب إفريقية جماعة من الرُّهبان يبشِّرون بالعهد الجديد، ويعودون منها بكنوزها من الذَّهب والعاج والفلفل، وأَعطى البابا مارتن الخامس (**١٤١٧ - ١٤٣١**م) طابع الحروب الصَّليبيَّة الصَّريح[٣]، استعمار مقيت، ونهب للثَّروات بلا حدود، اتَّخذ لقباً علميّاً لطيفاً: (الكشوف الجغرافيَّة)، ومن قال إنَّ إفريقية وسواحلها لم تكن مكتشفة في القرن الخامس عشر الميلادي؟.

---

(١) محاكم التَّفتيش، د. سليمان مظهر، ط ١٩٤٧م، القاهرة، ص٨٢.
(٢) أسرار الفاتيكان، ص٥٠.
(٣) في طلب التَّوابل، سونيا ي. هاو، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ١٩٥٧م، ص١٠٦، وما يُسمَّى مستكشفون (إنكليز، فرنسيون..) هم في الحقيقة مبَشِّرون، فالتغلغل الاستعماري أسهم المبشِّرون فيه، (التَّوسع الأُوربي في العالم، ص٨٢ و٨٣).

أَمَّا تجارة الرَّقيق؛ فحدِّث عنها ولا حرج، أَوَّل شحنة كبيرة كانت سنة ١٤٤٤م، «والقلب يتفطَّر من الخزي للمناظر البشعة الَّتي تُمَثَّل على مسرح الأَلم والحسرة»[١].

وهنري الملَّاح، وفاسكودوغاما، وأَلبوكيرك مهمَّتهم صليبيَّة، وأَلبوكيرك كان ينوي المسير السَّريع إِلى المدينة المنوَّرة لهدم المسجد النَّبويِّ، وأَخذ قبره صلى الله عليه وسلَّم، وعرضه على المسلمين بعد ذلك مقابل التَّخلِّي عن فلسطين[٢]، ومن خططه تحويل نهر النِّيل في الحبشة عن مجراه، لتهلك مصر، وعبَّر الأَحباش عن استعدادهم ورغبتهم الحقيقيَّة في القيام بهذا العمل، وكانت تنقصهم الوسائل لتنفيذه، وفكَّروا بجلب الصُّنَّاع من جزر الآزورو، ولكنَّ أَلبوكيرك توفِّي سنة ١٥١٥م دون أَن يضع مخطَّطه موضع التَّنفيذ.

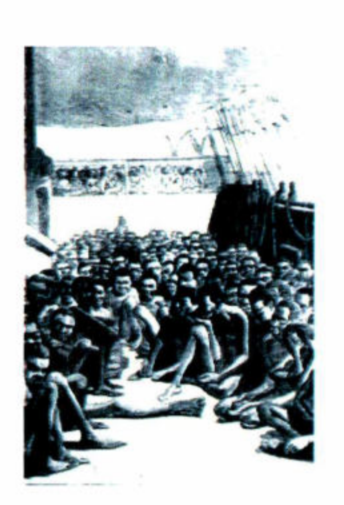
أَين ما قدَّمه العرب المسلمون لشمال إِفريقية والأَندلس من حضارة خالدة، ممَّا خلَّفه الأُوربيُّون لشواطئ إِفريقية، وحيثما حلُّوا؟.

دمار ونهب ورقيق، وجزيرة غوري (أَو: غورييه Goree) قُبالة داكار عاصمة السِّنغال، عدَّتها الأُمم المتَّحدة إِرثاً إِنسانيّاً يشهد على واحدة من أَبشع الجرائم في تاريخ البشريَّة وأَقساها، إِنَّها تجارة الرَّقيق الأُوربيَّة، حيث (جدران وحجرات بيت العبيد)، وهو الاسم التَّاريخي للمبنى في جزيرة غوري، الَّذي حوَّله القراصنة الأُوربيُّون إِلى معتقل، ولبيع الأَفارقة الَّذين قُنِصوا وحُكِم عليهم بالعبوديَّة، قبل ترحيلهم من باب (اللَّاعودة) عبر الأَطلسي، إِلى مزارع القطن وقصب السُّكَّر في الأمريكتَيْن[٣].

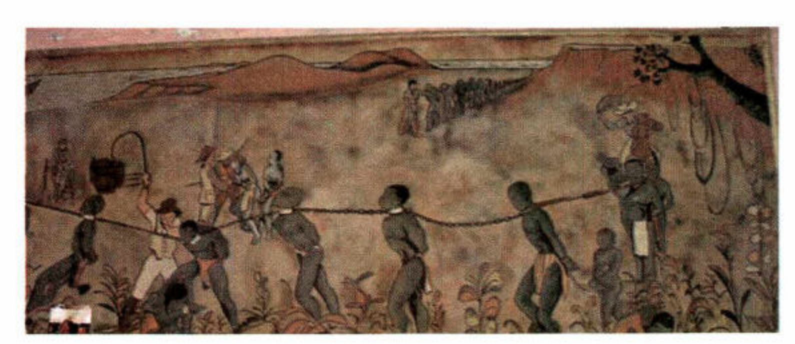
---

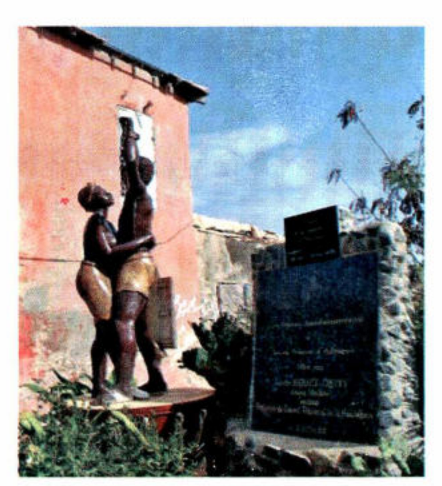
(١) في طلب التَّوابل، ص١٠٤.
(٢) في طلب التَّوابل، ص٢٢٥.
(٣) للمزيد من الحقائق، انظر مواقع الشَّابكة (الإنترنت)، جزيرة غوري.



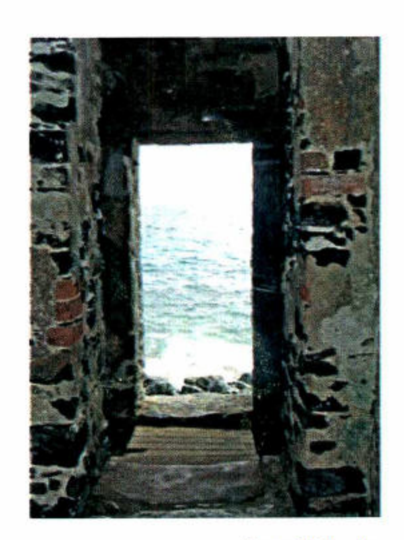


الاسترقاق في جزيرة غوري





نصب في جزيرة غوري



باب اللاعودة

وماذا جرى في أَمريكة عند اكتشافها؟ الجواب وبكلٍّ بساطة: إِبادة ثمانين مليون هندي أَحمر باسم الكنيسة، والقضاء على حضارات الأَنكا والمايا والآزتيك وجزر الأَنتيل، إِبادة كاملة، مع سفن أُسبوعيَّة في قوافل منتظمة مستمرة لنقل الذَّهب والفضَّة إِلى إِسبانية والبرتغال.

كانت عمليَّة من أَفجع عمليات الإِبادة الجماعيَّة في التَّاريخ باسم الكنيسة والمدنيَّة، باسم هذا الثُّنائي السَّاحق تمَّت العمليَّة[1].

وفي كتاب (فتح أَمريكة، مسأَلة الآخر)[2] لغرفتيان تودوروف الفرنسي، رسومات واقعيَّة للشَّنق الجماعي، وقتل الأَطفال برميهم على الصُّخور، وإِطعامهم إِلى الكلاب الجائعة، وشنقهم على أَجساد أُمَّهاتهم المشنوقات، وفقء العيون، وصبّ الزَّيت المغلي والرَّصاص المذاب في الجراح، وحرق الأَحياء... لقد أَفرطوا في سفك الدِّماء، وبوحشيَّة.

هذا منذ قرون، وفي أَواخر القرن العشرين عُقِد (مؤتمر كولورادو) في ١٥ تشرين الأَوَّل (أُكتوبر) عام ١٩٧٨م، تحت اسم: (مؤتمر أَمريكة الشَّمالية لتنصير المسلمين)، حضره مئة وخمسون مشتركاً يمثِّلون أَنشط العناصر التَّنصيريَّة في العالم، دامت اجتماعاتهم أُسبوعين، وبشكل مغلق، ووضعت خطَّة بقيت سرِّيَّة لخطورتها، ووضعت ميزانيَّة لتنفيذها مقدارها مليار دولار، وجُمِع المبلغ وأُودع في مصرف أَمريكي، وأَنشأَ المؤتمر معهداً باسم (معهد صموئيل زويمر)، وذلك في شمال كاليفورنية، واختير (دون ماكري)، مديراً له.

ومن فقرات مؤتمر كولورادو الَّتي تسرَّبت: إِيجاد أَزمات معيَّنة كي يعيش العالَم الإِسلامي خارج حالة التَّوازن، حيث الفقر والمرض والحروب.

---

(١) المظلومون في التَّاريخ، د.شاكر مصطفى، ص١٢١.
(٢) ترجمة بشير السِّباعي، دار سيناء، القاهرة.

انتشر الإسلام بالسيف، إسقاط تبطله الحجَّة الموثَّقة، وهو يرفض اعتناقه دون قناعة، لقد عرض يوحنَّا ملك إنكلترة على محمد النَّاصر الموحِّدي (١٢١٣م) أن يحميه ضد البابا، مقابل جزية سنويَّة، واعتناق الإسلام هو وشعبه، ولكن محمَّداً النَّاصر رفض هذا العرض، لأَنَّ أريحيَّته أَبت عليه استغلال الضَّائقة السِّياسيَّة الإنكليزيَّة لحملهم على اعتناق الإسلام[١].

ما الَّذي قدَّمته الفتوح العربيَّة الإسلاميَّة إلى موكب الحضارة؟.

كتاب المستشرقة الأَلمانية زيغريد هونكه: (شمس العرب تسطع على الغرب) يجيب عن قسم كبير من هذا السُّؤال.

أَلف اختراع واختراع (التُّراث الإسلامي في عالمنا)، كتاب نشرته مؤسَّسة العلوم والتكنولوجية والحضارة FSTC، الَّتي تأسَّست في بريطانية عام ١٩٩٩م، لأَجل نشر المعرفة الدَّقيقة بالتُّراث الإسلامي، وإبراز دوره مصدراً لعلوم اليوم والتقنية المعاصرة، والحضارة الحاليَّة، ومما جاء فيه: أَلف سنة ضائعة من تاريخ العلوم، قفزة مذهلة ومزعجة تتعلَّق بالعلم والحضارة، كيف يقبلها عقل؟ اختراعات راقية (فجأة) دون ممهِّدات وخطوات مرحليَّة علميَّة سابقة!!.

من ديمقريطس (٣٧٠ق.م)، وأَبقراط (٣٧٧ق.م)، وأَرسطو (٣٢٢ ق.م)، وأَرخميدس (٢١٢ ق.م)، قفزاً إلى يوحنا غوتنبرغ (١٥٦٨م)، وإلى ليوناردو دافنشي (١٥١٩)، وإلى وليم هارفي (١٦٥٧م)، وإلى نيوتن (١٧٢٧م).

قفزة فوق عصور وسطى مظلمة في قارَّتهم، قرون همجيَّة، وزمن غامض، عندهم، ولتعصُّبهم الَّذي أبعدهم عن الموضوعيَّة وتقديم

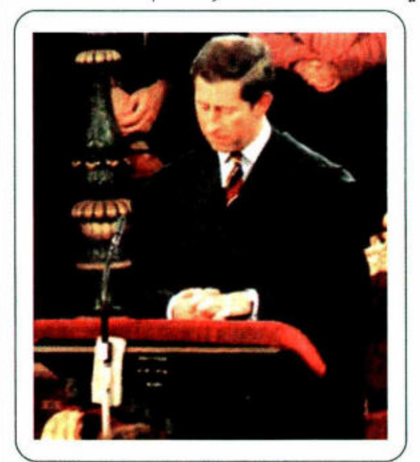
(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين، ٢/ ١٥٢، يوسف أشباخ (الألماني).

الحقيقة، ثغرات وفجوات في كتبهم المدرسيَّة و(العلميَّة) تلغي ألف سنة من عمر الحضارة.

صيحات الحقيقة، ونداءات الإنصاف بدأت، منها: قدَّم ماكس فانتيجو كتابه (المعجزة العربيَّة Le Mircale Arabe)، وفي جامعة برنستون في واشنطن عام ١٩٥٣م تقرَّر أنَّ كلَّ الشَّواهد تؤكِّد أنَّ العلم الغربي مدين بوجوده إلى الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة.

بربارا والترز، أشهر مُقَدِّمات البرامج في التِّلفاز الأمريكي، قالت بعد استضافة أحد كبار السِّياسيِّين المسلمين: إنَّها لم يكن في تصوُّرها أنَّ أحد المسلمين يحدِّد وقته بدقَّة، بل يحترم مواعيده، ولم تكن تعرف بوجود مسلم يحترم المرأة، ويصل إلى ما يريد بالعقل والحوار، وليس بالخطف والإرهاب[١].

هذه هي الصُّورة المشوَّهة الَّتي رسمت في أذهانهم، ويعترف الأمير تشارلز ولي عهد بريطانية: «إنَّ حكمنا في الغرب على الإسلام قد شوَّهه اتِّخاذ موقف الغلو، باعتبار أنَّ ذلك قاعدة طبيعيَّة لإصدار الحكم، وإنَّ هذا يُعَدُّ خطأً كبيراً»[٢].



الأمير تشارلز
وهو يلقي كلمته في إكسفورد

(١) العالم الإسلامي ١٢٨٤، الاثنين ٩ - ١٥ تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٩٩٢م، ص٥.
(٢) (تشرين) ٦١٨٠، الاثنين ١٣/٣/١٩٩٥م، وتصريحه هذا قاله خلال زيارته إلى القاهرة.

ومن الكتب الَّتي قدَّمت الحقيقة بغَيْرة وعلميَّة وتوثيق غزير، ودحضت انتشار الإسلام بالسَّيف، كتاب (الدَّعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميَّة)، الَّذي اعتمدناه - مع غيره - في هذا الأطلس، فمن مؤلِّف هذا الكتاب؟.

إنّه السِّير توماس وُوكرْ آرنولد Thomas Walker Arnold (١٨٦٤ - ١٩٣٠م)، مستشرق إنكليزي، من أهل لندن، تعلَّم في كمبردج، وعُيِّن مدرِّساً في كلِّيَّة عليكره بالهند عام ١٨٨٨م، فأُستاذاً للفلسفة في لاهور، فرئيساً للكلِّيَّة الشّرقيَّة في جامعة البنجاب، وعاد إلى لندن، فعُيِّن أُستاذاً للعربيَّة في جامعتها سنة ١٩٠٤م، فمديراً لمعهد الدِّراسات الشَّرقيَّة، وزار مصر قبيل وفاته، له كتب بالإنكليزيَّة في (تعاليم الإسلام)، و(المعتزلة) و(الخلافة)، وله كتب بالإنكليزيَّة أيضاً في الفنِّ والرَّسم الإسلاميِّين، ساعده فيها لوي بنيون من رسَّامي الفنون الشَّرقيَّة، قال آربري: كان آرنولد مرجعاً في الشُّؤون الإسلاميَّة[1].

وهو عالم متضلع، محقِّق منصف، مثال الوداعة والتَّواضع، يتقن العربيَّة والفارسيَّة والأُرديَّة، مع معرفته بمعظم اللُّغات الأُوربيَّة (اليونانيَّة، واللَّاتينيَّة، والإيطاليَّة، والإسبانيَّة، والهولنديَّة، والفرنسيَّة)، ترجم معاني القرآن الكريم إلى الإنكليزيَّة، توفي في ٩حزيران (يونيو) ١٩٣٠م.

وكتابه (الدَّعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميَّة) ظهر سنة ١٨٩٦م، وكانت طبعته الثَّانية سنة ١٩١٣م، وكانت طبعته الأُولى بالعربيَّة سنة ١٩٤٧م، والطَّبعة الثَّانية بالعربيَّة سنة ١٩٥٧م، والطَّبعة الثَّالثة الَّتي اعتمدناها، طبعة عام ١٩٧٠م، ترجمه إلى العربيَّة الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النجراوي، ملتزمة الطَّبع والنَّشر: مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة.

---

(١) الأعلام، ٢/ ٩٤.

ونظرة واحدة في مصادره ومراجعه الَّتي اعتمد عليها السِّير توماس وُوكَر آرنولد كافية لمعرفة قيمة كتابه (الدَّعوة إلى الإسلام)، دقَّة وتوثيق وعزو واضح لمصادره وجلُّها من كتب غربية، مع منهج علمي، وتسلسل منطقي جغرافي سليم، فهو حجَّة لنا، وحجَّة على الاستشراق والتَّبشير والاستعمار.

لقد أثبت السِّير آرنولد أنَّ نقاء عقيدة الإسلام، وبساطتها وعمقها، وموافقة العقل على مبادئها، دون أسرار ولا رموز ولا عواطف، كان سبب انتشار الإسلام، لا كما يستغل المبشِّرون فقر البلد، أو مرض أبنائه لنشر عقيدتهم، في هولندة مثل معروف، يقول: «تنصَّروا بسبب الأَرز»، أي إنَّهم تنصَّروا لا بدافع اليقين والاقتناع الفكري، ولكن بسبب الحاجة إلى حفنة أَرز[1]!!.

الدكتورة أنَّا ماري شمل (عميدة الاستشراق في ألمانية) قالت في مقدِّمتها لكتاب: (الإسلام كبديل) للدكتور مراد هوفمان (سفير ألمانية في المغرب قبل تقاعده): «الإسلام مثل نمطي لتلك التَّأويلات الظالمة المشوَّهة، إنَّ الكثير من الأحكام الظالمة الَّتي نُلصِقُهَا بالإسلام ناشئةٌ عن سوء فهمنا وخطئنا في القياس المنطلق من معاييرنا الغربيَّة ومُثُلنا أو قيمنا، إنَّ من المحزن اليوم حقّاً أَلَّا يميِّز كثيرون في الغرب بين الإسلام وبين ما يُلْصَقُ زوراً وبهتاناً بالإسلام، أو يُقترف من جرائم باسم الإسلام، فالإسلام بريءٌ من الإرهاب والإرهابيِّين»، وختمت مقدِّمتها ببيتَيْن لشاعر ألمانية بلا منازع (غوته)، الَّذي يُشهد له بالبصر العميق في عالم الفكر الإسلامي:

«إن يكُ الإسلام معناه القنوت، فعلى الإسلام نحيا ونموت»[2].

---

(١) غارة تبشيريَّة جديدة على إندونيسية، أبو هلال الإندونيسي، ط٣/ ١٣٩٣هـ. ١٩٧٣، بيروت (دون ناشر)، ص٣٩.

(٢) الإسلام كبديل، مراد هوفمان، النَّاشر: مجلَّة النُّور الكويتيَّة، ومؤسَّسة بافاريا للنَّشر والإعلام والخدمات، الطَّبعة العربيَّة الأُولى، نيسان (أبريل) ١٩٩٣م.

والدكتور مراد هوفمان في كتابه (يوميات ألماني مسلم)، لا يخاف كثيراً من هذه الأَحكام الظَّالمة، لأَنَّ مناعة الإِسلام منغرسة فيه، وانتشاره بشكل عفوي أَمر طبيعي، هذا الانتشار العفوي سمة من سماته على مرِّ التَّاريخ، على العكس من انتشار الشَّرائع الأُخرى الَّتي طُبِعَت بالعنف والوحشيَّة، وانتشار الإِسلام بشكل عفوي أَو طبيعي؛ لأَنَّه دين الفطرة المنزَّل على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلَّم[1].

وشهادة غوستاف لوبون مشهورة: «فالحقُّ أَنَّ الأُمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»[2].

وبعد هذه المقدِّمة، سيأتينا تمهيد له صلته الوثيقة المباشرة بموضوع هذا الأَطلس، وهي على التّسلسل:

- العهدة العمريَّة، البعد الإِنساني في الفتوحات العربيَّة الإِسلاميَّة، وأَصله كتيِّب صدر عام **٢٠٠٩**م، ضمن سلسلة: (القدس مسؤولية جيل).
- فتح أَم استعمار؟.
- الإِسلام واللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأَحمر.
- حوار الفاتيكان والإِسلام، كيف بدأ؟ وعَلَام انتهى؟.
- لا يا (قداسة) البابا!.

وهي كتيبات صدرت ضمن سلسلة (مع الحدث) بين عامي **٢٠٠٦** و**٢٠٠٧**م، وضمَّت السِّلسلة أكثر من عشرين كتيباً، تناولت موضوعات السَّاعة[3].

---

(١) يوميات أَلماني مسلم، مراد هوفمان، ترجمة د.عبَّاس رشدي العماري، مركز الأَهرام للتَّرجمة والنَّشر.

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون، دار إِحياء التُّراث العربي، ط٣، ١٩٧٩م، ص٧٢٠.

(٣) وهي جميعها طباعة دار الفكر، دمشق، وتكرر طبعها، ثمَّ جُمعت في كتاب: (الإسلام وكفى)، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

قال العلماء: بئس مطيَّة الرَّجل زعموا، ولولا السَّند لقال من شاء ما شاء.

كان بعض طلابنا يقولون لي: «قالوا لي»، ويقدم رأياً، فأقول لهم: هل طلبتم ممَّن قال لكم توثيق ما قال، وعزو رأيه إلى مصدر معتمد؟ فيصمتون، فأقول: وما علاقتي بما قالوا؟ أنا مسؤول عمَّا أقوله وأكتبه، إنَّ الأقوال بلا توثيق ادعاء، ووجهة نظر لا يؤخذ بها علميّاً، لأنَّ القاعدة الأكاديميَّة المقبولة المسموعة تقول: إن كنتَ ناقلاً فالدِّقَّة، وإن كنتَ مدَّعياً فالدَّليل.

وعلى ما سبق، لن نقبل معلومة في هذا الأطلس غير موثَّقة، أو معزوَّة إلى مصدر معتمد[1].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٣/٨].

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً.

الدكتور شوقي أبو خليل

Shawki@Fikr.com

دمشق الشَّام ٢٥ المحرم الحرام ١٤٣١هـ

١٠ كانون الثاني ٢٠١٠م.

يشكر المؤلِّف أسرة دار الفكر

لاهتمامها بهذا الأطلس، ويخص السيدَيْن محمد خالد السُّروجي

و محمد أنس الطُّرشان لعنايتهما

---

(١) وأهلاً وسهلاً بأيِّ ملاحظة أو استفسار على شابكات دار الفكر، أو: Shawki@fikr.com، مع جزيل الشُّكر والامتنان على كلِّ غَيْرَة علميَّة، فالكمال لله وحده.

العهدة العمريَّة

البعد الإنساني في الفتوحات العربية الإسلامية

لم يكن موقف الرُّومان حيادياً إزاء الأحداث الَّتي تمرُّ بها جزيرة العرب حين ظهور الإسلام، لقد حشدوا لغزو المدينة المنوَّرة، فكان الرَّدع بجيش العُسْرَة (جيش تبوك)، وحاول عملاؤهم استمالة كعب بن مالك الخزرجي الذي تخلف عن جيش تبوك، ولعمق إيمانه؛ أحرق الرِّسالة التي وصلته في تنور مسجور.

وحينما انطلقت الفتوح باتِّجاه بلاد الشَّام - وهي بلاد عربيَّة أصيلة - فاتحةً محرِّرة، ارتبطت هذه الحروب بروح إنسانيَّة وعمق حضاري، وبعد تسامحي كبير.

وبعيد معركة اليرموك؛ ركَّز الفاتحون على بيت المقدس (إِيلياء)[1]، فكانت بينهما رسائل ومفاوضات، من أوائلها كتاب عمرو بن العاص، ومما جاء فيه: «.. فإذا أتاكم كتابي هذا فأسلموا تسلموا، وإلا فأقبِلُوا إلينا حتَّى أكتب لكم كتاباً، أماناً على دمائكم وأموالكم»[2].

وكان في جواب أهل إيلياء على كتاب عمرو بن العاص التَّمهُّل لرؤية

---

(١) ضبطها ياقوت الحموي في (معجم البلدان ١/ ٢٩٣)، إيلِياء: اسم مدينة بيت المقدس، معناه: بيت الله.

(٢) (فتوح الشام): محمَّد بن عبد الله أبو إسماعيل الأزدي البصري (نحو ١٦٥هـ/ و٧٨٢م)، مخطوطتا باريس، نقل عنهما محمد حميد الله (مجموعة الوثائق السِّياسية للعهد النَّبوي والخلافة الرَّاشدة) ٤٧٤، دار النَّفائس، ط٧، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت - لبنان.

نتائج المعارك المتوقَّعة قريباً بين المسلمين والرُّوم، فإن انتصرتم على الرُّوم، فـ«ما نحن إلَّا كمن قد ظهرتم عليه من إخواننا، ثمَّ دانوا لكم فأعطوكم ما سألتم».

وكاتب أبو عبيدة بن الجرَّاح أهل إيلياء أيضاً: «اخرجوا إليَّ أكتب لكم أماناً على أنفسكم وأموالكم، ونوفِّ لكم كما وفَّينا لغيركم»، وكتب لهم: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من أبي عبيدة بن الجرّاح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكَّانها، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله العظيم ورسوله، أما بعد فإنَّا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، وأنَّ السَّاعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعثُ من في القبور، فإذا شهدتم بذلك حرُمت علينا دماؤكم وأموالكم، وكنتم إخواننا في ديننا، وإن أبيتم فأقرُّوا بإعطاء الجزية..»[1].

والجزية (اصطلاح ضريبي) لا يشكِّل رُبع ما كان يفرضه الرُّومان، وكانت تدفع آنذاك مقابل حمايتهم وانتفاعهم بالمرافق العامَّة، التي تنفق الدولة الإسلامية على فتحها وصيانتها، ويدفع المسلم أضعافها.

انتظر أبو عبيدة جواب أهل إيلياء، فلم يصله شيء، وأبوا أن يأتوه وأن يصالحوه، فأقبل إليهم حتَّى نزل بهم، فحاصرهم، وكان الَّذي ولي قتالهم خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، كلٌّ واحد منهما في جانبه.

وبلغ سعيد بن زيد - وهو والٍ على دمشق - حصار بيت المقدس، فكتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح، سلام عليك، فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلَّا هو، أمَّا بعد فإنِّي، لعمرك، ما كنت لأوثرك

(١) المرجع السابق، ٤٧٩.

وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي وعلى ما يقرِّبني من مرضاة ربِّي عزَّ وجلَّ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى عملك من هو أرغب فيه منِّي، فليعمل لك عليه ما بدا لك، فإنِّي قادم عليك وشيكاً إن شاء الله، والسَّلام»[1].

فقال أبو عبيدة ليزيد بن أبي سفيان: اكفني دمشق.

فلمَّا حصر أبو عبيدة أهل إيلياء، ورأوا أنَّه غير مقلع عنهم، قالوا له: نحن نصالحك، فأرسل إلى خليفتكم عمر فيكون هو الذي يعطينا العهد، وهو يصالحنا ويكتب لنا الأمان، فأخذ أبو عبيدة عليهم الأيمان المغلَّظة - على مشورة معاذ بن جبل- فحلفوا بأيمانهم: لئن قدم عليهم عمر أمير المؤمنين، ونزل بهم فأعطاهم الأمان على أنفسهم، وكتب لهم على ذلك كتاباً: ليقبلنَّ ذلك، وليؤدنَّ الجزية، وليدخلنَّ فيما دخل أهل الشَّام. فلما فعلوا ذلك كتب أبو عبيدة:

«بسم الله الرحمن الرَّحيم

لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من أبي عبيدة بن الجرَّاح.

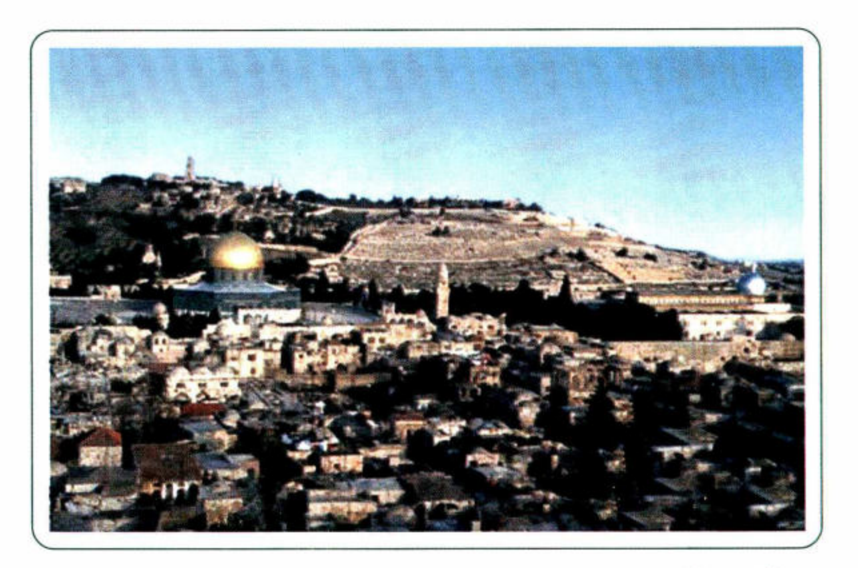
سلام عليك، فإنِّي أحمد إليك الله، الذي لا إله إلَّا هو، أمَّا بعد فإنَّا أقمنا على إيلياء، وظنُّوا أنَّ لهم في المطاولة بهم فرجاً ورجاء، فلم يزدهم الله بها إلَّا ضيقاً ونقصاً، وهولاً وأزلاً[2]، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا منه ممتنعين قبل ذلك، وله كارهين، وإنَّهم سألونا الصُّلح

---

(١) حميد الله، ٤٨١، عن الأزدي (مخطوطتا باريس).

(٢) الأزل: الضِّيق والشِّدة، والأزل: شدة الزَّمان، يُقال: هم في أزْلٍ من العيش وأَزْلٍ من السَّنة، وآزَلَت السَّنة: اشتدت، (اللسان: أزل).

على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين، فيكون هو المؤمِّن لهم، والكاتب لهم كتاباً، وإنَّا خشينا أن تقدُم يا أمير المؤمنين، ثمَّ يغدر القوم فيرجعون فيكون سيرك - أصلحك الله - عناء وفضلاً، فأخذنا عليهم المواثيق المغلَّظة بأيمانهم لئن أنت قدمت عليهم فأمَّنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلنَّ ذلك، وليؤدُّنَّ الجزية، وليدخلنَّ فيما دخل فيه أهل الذِّمَّة، ففعلوا، وأخذنا عليهم الأيمان بذلك، فإن رأيت - يا أمير المؤمنين - أن تقدُم علينا فافعل، فإنَّ في مسيرك أجراً وصلاحاً وعافية للمسلمين، أراك الله رشدك، ويسَّر أمرك، والسَّلام عليك»[1].



القدس الشريف

(١) حميد الله، ٤٨٢.

العهدة العمريَّة، معاهدة فتح بيت المقدس (إِيلياء)

استخلف عمر عليّاً على المدينة المنوَّرة، وسار إلى الشَّام حتَّى وصل الجابية - كما يذكر الطَّبري[١] - فبعث أبو عبيدة إلى أَهل إِيلياء أن انزلوا إلى أمير المؤمنين، فاستوثقوا لأَنفسهم، فنزل ناس من عظمائهم ووجهائهم، فكتب لهم عمر ﵁ كتاب الأَمان والصُّلح، ونصُّ كتاب المعاهدة كما في الطَّبري:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان.

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها، أنَّه لا تُسكَن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارَّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود[٢].

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرُّوم واللُّصوت[٣]، فمن خرج منهم فإنَّه آمن على نفسه وماله حتَّى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من

---

(١) في أحداث سنة ١٥هـ.

(٢) لأن تاريخهم مع المعاهدة الَّتي وُقِّعت معهم بعد الهجرة مباشرة لا تبشِّر بخير، لقد نقضوها بنداً بنداً وبإصرار وعناد.

(٣) اللَّصْت في لغة طيئ اللِّص والسَّارق، وجمعه لُصُوت، (اللِّسان: لصت).

الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرُّوم، ويُخلي بِيَعَهم وصُلُبَهم، فإنَّهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم حتَّى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان[1]، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الرُّوم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنَّه لا يؤخذ منهم شيء حتَّى يحصد حصادهم.

وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمَّة رسوله، وذِمَّة الخلفاء، وذِمَّة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة للهجرة»[2].

ثمَّ سار عمر ﵁ من الجابية إلى بيت المقدس، وتنفيذاً لبنود المعاهدة وموادِّها، أقام ﵁ مصلَّاه إلى كناسة[3] نظفها وطهَّرها مع من كان معه من النَّاس، ولم يصلِّ في كنيسة القيامة كيلا يقال صلَّى هنا عمر، فلتحوَّل إلى مسجد، وعلى مقربة من الكنيسة بُني مسجد عمر، دليل التَّسامح والتَّآخي والاعتراف بالآخر.

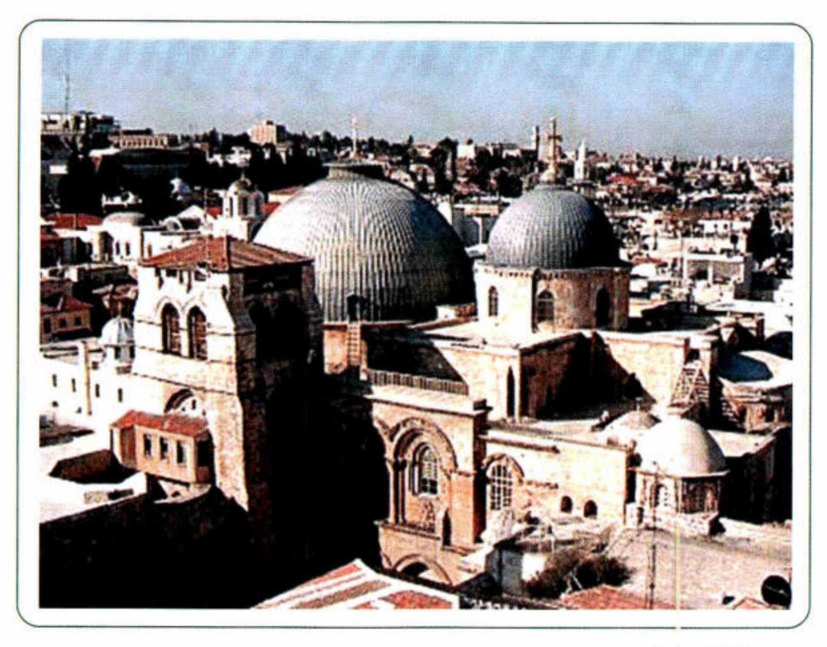
لقد عبَّر عمر ﵁ بوضوح حينما سئل لِمَ لَمْ تصلِّ داخل الكنيسة،

---

(١) هكذا وردت ولم يحدَّد الاسم لأسباب نجهلها.

(٢) الأزدي (مخطوطتا باريس) نقلاً عن حميد الله: ٤٨٧، الطَّبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (سلسلة ذخائر العرب: ٣٠)، ٣/ ٦٠٧، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م، اليعقوبي ٢/ ١٦٧.

(٣) كُنَاسة: القمامة (مختار الصحاح: كنس).



كنيسة القيامة

قال: «لو صلَّيت داخل الكنيسة خفت أن يقول المسلمون من بعدي: هذا مصلَّى عمر، وأن يحاولوا أن يقيموا في هذا المكان مسجداً»[1].

آداب حروب الفتوح

القاعدة الإسلاميَّة في الفتوح الأَمان لكلِّ مدني، ولكلِّ من لم يقاتل، فضلاً عن الأمان للأطفال والنِّساء والشُّيوخ وعلماء الدِّين، مع كفالة حرِّية

(١) الإسلام في قفص الاتهام، ص١٤٦، أخبار عمر: علي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، طبعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
ولما قدم عمر الشَّام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفَّيه فأمسكهما بيده، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، فصكَّ في صدره، وقال: «أوه، لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنَّكم كنتم أذل النّاس وأحقر النَّاس، وأقلّ النَّاس، فأعزَّكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزَّة بغيره يذلّكم الله»، حلية الأولياء: ١/ ٤٧، مختصر منهاج القاصدين، ص٢٤٢.

المعتقد، فللحروب آدابها، لخَّصها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في عشر خصال، جاءت في خطبته الَّتي ودَّع بها جيش أُسامة بن زيد، وفيها يقول:

«يا أيها النَّاس، قفوا أُوصكم بعشر فاحفظوها عنِّي: لا تخونوا ولا تغلُّوا[1]، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقِروا نخلاً[2] ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلَّا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها.

وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً، اندفعوا باسم الله»[3]، وهذا يعني أن يُقاتل المقاتِلون فقط في ميدان المعركة.

ومن الرَّوائع الحضاريَّة؛ أنَّ عمر من بعد أبي بكر الصِّدِّيق أعطى فقراء أهل الكتاب من بيت مال المسلمين ما يسدُّ حاجتهم.

ويذكر البلاذري[4]: ومرَّ عمر رضي الله عنه في أرض الشام بقوم مجذومين من النَّصارى، فأمر أن يُعطوا من الصَّدقات، وأن يجرى عليهم القوت بانتظام.

وهذه المعاملة الإنسانية المثاليَّة جعلت أهل حمص حينما ردَّ إليهم أبو عبيدة الجزية منسحباً إلى اليرموك يقول لهم: يا أهل حمص، شُغلنا

(١) الغِلّ: الغِشُّ والحقد والخيانة، مختار الصحاح: غلل.
(٢) عقر النَّخلة: قطع رأسها فيبست، القاموس المحيط: عقر.
(٣) الطَّبري: ٣/ ٢٢٦، والكامل في التَّاريخ: ٢/ ٢٢٧.
(٤) فتوح البلدان: ١٣٥.

عن نصرتكم والدَّفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: إنَّ ولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممَّا كنّا فيه من الظُّلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم.. والتَّوراة، لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلَّا أنْ نُغلب، ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم (على الرُّوم)، فلو كانوا هم؛ لم يردُّوا علينا شيئاً، وأخذوا كلَّ شيء بقي لنا[1].

حقوق غير المسلم في دولة الإسلام

واستناداً إلى العهدة العمريَّة المستمدَّة من الكتاب والسُّنَّة، والتي وُقّعت على منوالها معاهدات كثيرة في بلاد الشَّام، ومصر.. استخلص الفقهاء حقوقاً لغير المسلم في دولة الإسلام، منها[2]:

١- حفظ النَّفس، فدم الذِّمّي كدم المسلم، قال علي رضي الله عنه: من كان له ذمَّتنا؛ فدمه كدمنا، وديته كديتنا.

٢- والقانون الجنائي سواء فيه المسلم والذِّمّي، يتساوى فيه الاثنان درجة.

٣- والقانون المدني سواءٌ فيه الذِّمّي والمسلم، وأموال الذِّمّيّين كأموالنا، جاء في الدُّر المختار ٢/ ٢٧٢: ويضمن المسلم قيمة خمره (خمر الذِّمّي) وخنزيره إذا أتلفه.

٤- مع حفظ الأعراض: فلا يجوز إيذاء غير المسلم لا باليد ولا باللِّسان، ولا شتمه ولا غيبته، ورد في الدُّر المختار: ويجب كفُّ الأذى عنه، وتحريم غيبته كالمسلم.

٥- وثبوت الذِّمَّة: إنَّ عقد الذِّمَّة يلزم المسلمين لزوماً أبديّاً، أي إنَّه ليس لهم أن ينقضوه بعد عقده، ولكن أهل الذِّمَّة لهم الخيار أن

(١) الخراج: ٨١، الدَّعوة إلى الإسلام: ٧٩، فتوح البلدان: ٧.
(٢) حقوق أهل الذِّمَّة في الدَّولة الإسلاميَّة، المودودي، ص١٣ وما بعدها.

يلتزموه ما شاؤوا، وينقضوه متى شاؤوا، ومهما ارتكب غير المسلم من كبيرة فلا ينقض بذلك عقده.

٦- والأحوال الشَّخصيّة: يقضي بها الذِّميُّون بحسب قانونهم الشَّخصي.

٧- ولغير المسلم الحق في إظهار شعائره في معابده.

٨- ولا يجوز في الجزية أن يكلَّفوا ما لا يطيقون، ومن يفتقر أو يحتج فلا يعفى من الجزية فحسب، بل يجرى له العطاء من بيت المال[١].

لذلك كلِّه، عاش غير المسلمين في كنف الإسلام بحريَّة وعدل وإنصاف ومراعاة للعبادات، وفق مبادئ الإسلام الثابتة الدَّائمة.



القدس الشريف

(١) الخراج: ٧٠، المبسوط: ١٠/٨١.

فتح أم استعمار؟

قرأت في أواخر السَّبعينيات من القرن الماضي كتاب (أَباطيل وأَسمار) لمحمود محمد شاكر رحمه الله، الَّذي ردَّ فيه على أفكار لويس عوض الَّتي قدَّمها في كتبه ودراساته، ومن أهمِّ ما جاء فيه:

«ويفضِّل - لويس عوض - على كلِّ ما قاله الشُّعراء العرب المصريُّون (الَّذين سمَّاهم المستعربين) منذ الفتح العربي عام ٦٤٠م إلى الفتح الإنجليزي عام ١٨٨٢م قول من قال: ورمش عين الحبيب يفرش على الفدَّان».

وكشف محمود محمد شاكر رحمه الله عن حقيقة آراء لويس عوض وزمرته، كيف كانت، ولِمَ جاءت، وأيَّ عقيدة تحمل، فلويس عوض تلميذ مخلص لكريستوفر سكيف، الجاسوس البريطاني المحترف في وزارة المستعمرات البريطانيَّة، والمبشِّر الثَّقافي الصَّفيق.

وتبنَّى لويس عوض وأمر: «حطِّموا عمودَ الشِّعر»، لقد مات الشِّعر العربي عام ١٩٣٢، مات بموت أحمد شوقي، مات ميتة الأَبد[(١)].

لقد اشتم محمود محمد شاكر الرَّائحة الخبيثة التي تفوح من ألفاظه، فكان كتاب (أَباطيل وأسمار) بجزأيه.

ويوم الثُّلاثاء ٦/ ٢/ ٢٠٠٧م، وفي برنامج (الاتِّجاه المعاكس) على فضائيَّة الجزيرة، كانَ عراقيَّان يتحاوران، قال أحدهما لمن يحاوره: تخلَّص العراق من الطَّاغية بفضل الفتح الأمريكي للعراق، فأصابه توبيخ

(١) أباطيل وأسمار ١/ ٩ و١/ ١٤٣، ط٢/ ١٩٧٢، مطبعة المدني - القاهرة.

وكلمات انتقاص وشتائم من عراقيٍّ مهاجر إلى أُوربَّة، لاستخدامه عبارة: «الفتح الأمريكي للعراق».

ومنذ سنوات، قال متحمِّس آخر في الفضائيَّة ذاتها، في معرض حديثه عن فتح العرب المسلمين للأندلس: لقد كنَّا نحن الاستعمار آنذاك.

ومع احترامنا لوجهة نظر الآخر، حينما تكون مبنيَّة على علم وحجَّة وبرهان، نقول: هل درس الذين قالوا: الفتح الإنجليزي لمصر، والفتح الأمريكي للعراق، وأننا نحن كنّا الاستعمار آنذاك، هل درسوا نتائج الفتح وصوره وآثاره، ونتائج الاستعمار وصوره وآثاره، وقارنوا بينهما.

هل الفتح استعمار؟ والاستعمار فتح؟

إنَّ الفتح يحمل حضارة وقيماً للشُّعوب، والاستعمار يحمل استدماراً لحياة الشُّعوب، الفتح خالدٌ مستمرٌ بعد زوال القوَّة العسكريَّة، أمَّا الاستعمار فيعيث في الأرض دماراً وخراباً، لذلك ما انحسر الفتح الإسلامي عن بقعة وصلها، من كاشغر في تركستان الشَّرقيَّة في الصِّين، إلى حوض النِّيجر في غرب إفريقية، والأَندلس بقيت مسلمة حتّى جاءتها محاكم التفتيش، إمَّا التَّهجير، وإمَّا القتل، وإمَّا الارتداد.

فما الفارق بين الفتح والاستعمار؟

فتحٌ أَمِ استعمار؟

يمكننا أن نلمسَ الفارق، وندرك بيقين البونَ الشَّاسع بين معنى (الفتح) الحضاري الإنساني، ومعنى (الاستعمار = الاستدمار) الهمجي الوحشي، في النِّقاط الثَّماني التالية:

١- **إبادة شعوب:** من نتائج الاستعمار الغربي الذي رافق كشوفه الجغرافيَّة، إبادة شعوب على بكرة أبيها.

ماذا لحق بإفريقية على يد البرتغاليِّين؟

وماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكة الأَصلي، الهنود الحمر؟

وماذا فعلت فرنسة بسياسة (الأرض المحروقة) في الجزائر؟

وماذا فعلت بريطانية في أُسترالية؟

وماذا عملت إسبانية والبرتغال في سكَّان أمريكة الوسطى والجنوبيّة؟

الجواب وبكلٍّ بساطة (إبادة)، وانتهاء حضارات الإِنكا والمايا والآزتيك، وإبادة كاملة لأكثر من ثمانين مليون إنسان أبادتهم البندقيَّة الأُوربيَّة والمدفع، وكان الطِّفل الرَّضيع يُرضَخُ رأسه، أو يؤخذ من حضن أُمِّه ليطعم للكلاب الجائعة، أَمام ناظِرَيْها[1].



جندي إسباني يطعم طفلاً لكلبه أمام ناظرَي أُمِّه

(١) فتح أمريكة، غرفيتان تودوروف، ترجمة بشير السِّباعي، دار سيناء، وفي الكتاب رسومات توضِّح هذه الأفعال الوحشيَّة.

لذلك قامت عام ١٩٩٢م، بمناسبة مرور خمس مئة عام على اكتشاف أمريكة، مظاهراتٌ ضدّ البابا الرَّاحل، مع تحطيم تماثيل كولومبس في أمريكة الجنوبيَّة.

وهذا ما حدث في أُسترالية بمناسبة مرور مئتي عام على اكتشافها، حيث تمَّ فيها إبادة شعب تسمانية، وشعب الأَبورجيِّين.

وفي الجمهوريَّات الإسلاميَّة في الاتِّحاد السُّوفييتي المتفكِّك، أُبيد عشرون مليون مسلم، وستالين وحده أباد أَحد عشر مليون مسلم بإشراف اليهودي ميخائيل سوسلوف الذي أصبح المُنَظِّر العقائدي للاتحاد السُّوفييتي.

فداغستان مثلاً: في عام ١٩١٧م كان عدد سكَّانها ثمانية ملايين نسمة، وفي عام ١٩٧٧م أصبح عدد سكَّانها (١,٦٢٧,٠٠٠) نسمة فقط، بسبب الإبادة والتَّهجير.

وما حدث ويحدث في أفغانستان والعراق تتناقله الفضائيَّات يوميّاً، ونذكِّر بالمجنَّدة الأمريكيَّة إنغلاند ليندي وما فعلته في سجن أبي غُريب، والفضائح التي بثتها محطَّة CBS في شهر نيسان ٢٠٠٤م خير شاهد، وهذا ما نُشِرَ، وما لم يُنْشَر أدهى وأَمرُّ.

حدِّث عن السَّادية ولا حرج، وعن الخلفيَّة الثَّقافية والسُّلوكيّة التي رسمتها ثقافتهم وتربيتهم!

وفي المقابل، من خصائص حضارتنا الإسلاميَّة التي قادت الفتح ورسمت صوره وآثاره، أنَّها لا تحكم بالإعدام على الشُّعوب والثقافات الأُخرى، وأنَّ الحوار كان معهم هو البديل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

نظرة إنسانية يمتلكها الإسلام الذي لا يلغي الآخر، فبينما يقبل

المسلمون بينهم وجود أديان مغايرة لدينهم، ويرفضون إكراه أحدٍ على ترك ملَّته، فإننا نرى الآخرين يتبرَّمون من الدِّيانات الأُخرى، ويرسمون سياستهم الظَّاهرة والباطنة لإبادة الآخرين.

النَّاس سواسية في الإسلام، وكلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تكررت **٢٤٠** مرَّة في القرآن الكريم، واستعملت كلمة (النَّاس) في القرآن الكريم بمعنى الجنس البشري عموماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٣]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٩]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٠].

كلمة (الناس) ترسِّخ معنى الإنسانيَّة، ووحدة الجنس البشري: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

وإنسانيَّة الإسلام ورحمته يثبتهما:

عدم إبادة أيِّ شعب أو أُمَّة أثناء فتوحاته.

ووجود غير المسلم معزَّزاً مكرَّماً، محافظاً على دور عبادته في المجتمعات الإسلاميَّة، دليل آخر على إنسانيَّة الإسلام.

يقول فانْسَان مونتيه، أستاذ اللُّغة العربيَّة والتَّاريخ الإسلامي بجامعة باريس: «اخترت الإسلام لأنَّه دين الفطرة، اخترته ديناً أَلقى به وجهَ ربِّي، ومن أسباب إسلامي تسامح الإسلام تُجاه أبناء الأديان الأُخرى».

والمستشرق الألماني أُولرش هيرمان يقول: «الَّذي لفت نظري أثناء دراستي لهذه الفترة - فترة الفتوح الإسلاميَّة في العصور الوسطى - هو درجة التسامح التي تمتَّع بها المسلمون».

٢- **العنصريَّة**: الثَّمرة الثانية من ثمرات الاستعمار هي العنصريَّة، ومن يقول: إنَّها انتهت، نقول له: العنصريَّة أنواع، التَّمييز العنصري بين الأبيض والأسود في أمريكة وأُوربَّة وجنوب إفريقية، تحاول القوانين اليوم إلغاءه.

كنائس للبيض، وأُخرى للسُّود.

وسائل نقل للبيض، ووسائل نقل أخرى للسُّود.

مدارس للبيض، ومدارس غيرها للسُّود.

أماكن سياحيَّة للبيض، وأماكن سياحيَّة أُخرى بعيدة للسُّود.

ومن العنصريَّة اليوم المكاييل المتعدِّدة في السِّياسة الدَّوليَّة، وموضوع حقوق الإنسان، إنَّها للأبيض، للغربي[1]، فإن مات أو قُتِلَ واحد منهم نعقوا يا للمصيبة ولو كان هو المعتدي، وتموت شعوب مسلمة، ومجلس الأمن ينظر (أَصمَّ أبكَمَ) إلى ما جرى في البوسنة والهرسك وكوسوفو، وإلى ما يجري في فلسطين وكشمير والعراق وأفغانستان والشِّيشان.

أمَّا في الإسلام: فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلَّا بالتَّقوى، والتَّقوى هي العدل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٥/٨].

والخلْقُ كلُّهم عيال الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله.

ولقد رفع الإسلام بلال الحبشي فوق الكعبة ليعلن: الله أكبر.

وجعل سلمانَ من آل البيت.

وأعلن عمر رضي الله عنه حقوق الإنسان عمليّاً حينما نفَّذ على أرض الواقع قولته الخالدة: «متى استعبدتم النَّاس وقد ولدتهم أُمَّهاتهم أحراراً».

وفي الحجِّ يجتمع الأبيض والأسود والأصفر والأحمر على اختلاف ألسنتهم في قمَّة التَّساوي.

لقد وقف النبي ﷺ لجنازة غير مسلم، فقيل له: إنَّه غير مسلم، فقال: «أولَيْسَ نفساً»، أوليس إنساناً [البخاري، باب الجنائز].

---

(١) عرف صموئيل هنتنغتون في كتابه (صراع الحضارات) الغرب قائلاً إنَّه: أوربة الغربيَّة، والولايات المتحدة، وكندا، وأُسترالية، ونيوزيلاندة فقط.

٣- الفقر في البلاد التي استُعمِرَت: في الهند، ومصر، وإفريقية، وجنوب شرقي آسية، وأمريكة اللاتينيَّة، مع انتشار المجاعات.

في أثناء الاستعمار البريطاني لمصر، كانت مدَّة العمل ١٢-١٥ ساعة في اليوم، وكان الأجر ١٠بنسات للبالغ، و ٦بنسات للحدث.

وقال المؤرِّخون دون خلاف: إنَّ الاستنزاف يسوق الهند إلى درك الخراب سوقاً، المجاعات تعدَّدت وتكرَّرت، وحتى اليوم يلد الملايين، ويعيشون، ويموتون على رصيف ضيِّق.

الموت جوعاً في البلاد المستعمرة أمر طبيعي، ولا نجد أُوربياً واحداً مسَّه الجوع.

واليوم، اضطرابات في المكسيك، وفي أُسترالية، قام بها بقايا السكان الأصليِّين، لمعاناتهم الفقر.

والجزائر التي كانت تصدِّر القمح لأُوربة، وفرنسة خاصَّة قبل عام ١٨٣٠م، عمَّتها مجاعات بعد استعمارها، وكم مات من الجزائريين جوعاً، وأكداس المؤن في الكنائس لم تقدَّم لواحد من الجزائريِّين، لأنَّهم أبَوْا التَّنصير.

وصار المثل الشَّعبي المتَّبع في إندونيسية أثناء الاستعمار الهولندي لها: «تنصَّر من أجل حفنة أرز»، أي لا إيماناً بالمسيحية.

وفي البلاد التي فتحها المسلمون كان الرَّفاه للجميع، لقد رافقت الفتوحات نهضة زراعية اقتصاديَّة، عمَّت البلاد الَّتي فُتِحَت دون استثناء.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى كلِّ ولاته: انظر إلى من قِبَلَك من الأرض فأعطها بالمزارعة على النِّصف، وإلَّا فعلى الثُّلث، حتَّى تبلغ العُشر، فإن لم يزرعها أحدٌ فامنحها، وإلَّا فأنفق عليها من مال المسلمين، ولا تُبِيرَنَّ قبلك أرضاً.

وأقام العبَّاسيُّون ديواناً خاصّاً للقنوات وأعمال الرَّيِّ والزِّراعة، عُرِف بديوان الماء، بلغ عدد المشتغلين فيه عدَّة آلاف، مع تخفيض الخراج - الرُّسوم الزراعيَّة - على الفلاحين بين آونة وأُخرى تشجيعاً لهم، وزيادة في دخلهم ورفاهيَّتهم، فضلاً عن تجفيف المستنقعات، منعاً للأمراض وزيادة في مساحة الرُّقعة الزِّراعيَّة.

وتدلُّ الآثار الباقية في الأندلس اليوم على التقدُّم الزراعي، فقنوات الرِّيِّ المتقنة خير شاهد.

٤- الجهل: الاستعمار الغربي أينما وصل أغلق المدارس، مع سياسة محكمة لتجهيل الناس، ومحاربة أيِّ معينٍ علميٍّ، فتركت بريطانية مصر ونسبة الأُمِّيَّة فيها ٩٨٪، وكذلك في الهند.

إغلاق الجامعات في حوض النِّيجر، وأهمُّها في تُونْبُكْت، وفي وثيقة استقلال مالي مع فرنسة ١٩٦٠م، اشترطت فرنسة عدم إعادة فتح جامعة تونبُكت، وعدم التَّدريس بالعربيَّة.

فأينما وصل الاستعمار، حلَّ معه التجهيل المقصود للبلاد كلِّها.

وفي الفتوحات الإسلاميَّة، فتحت عشرات الجامعات، وبنيت مئات المدارس، وانتشرت أُلوف الكتاتيب لنشر العلم في كلِّ أرجاء العالم الإسلامي، لأنه: «ليس منِّي إلّا عالم أو متعلِّم».

ففي جامعات الأندلس تخرَّج الباب سلفستر الثاني[١]، الذي أتقن اللُّغة العربيَّة، لغة العلم في عصره، فترجم كتباً عربيَّة كثيرة إلى اللاتينيَّة.

نهضة علميَّة مبدعة، أوجدها العرب الفاتحون، حتَّى إنَّ أشهر العلماء في كلِّ ميادين العلوم والمعرفة كانوا من سكَّان البلاد المفتوحة، مثل: ابن سينا، والرَّازي، والبخاري، والبيروني، والخوارزمي، والطَّبري.

---

(١) Sylvestre الثاني، بابا رومة من عام ٩٩٩م، إلى ١٠٠٣م.

الإسلام دين العلم، فهل من بقعة وصلها في فتوحاته لم ينتشر فيها التَّعليم، مع نهضة في مجالات العلوم كلِّها؟ يكفينا أنَّ شوارع كاملة اسمها: (شارع المدارس)[1]، إنَّها مدارس تخصُّصيَّة، فالحيُّ كلُّه تكفيه مدرسة واحدة عامَّة لأبنائه.

٥- المرض: أمراض كثيرة استوطنت البلاد المستعمرة، كالبلهارسيا في مصر، لعدم توافر مشاريع الشُّرب.

وريف البلاد المستعمرة كان يخلو من خدمات طبِّيَّة، ونسبة وفيّات الأطفال المرتفعة شيء معروف مشتهر.

المستوصفات والخدمات الطبِّيَّة إن وُجدت، كان لها أغراض تبشيريَّة، أبسطها إعطاء المريض أقراصاً من (النَّشاء) لا من المركبات الدَّوائيَّة، يأخذها المريض فلا تجديه نفعاً، ويزداد مرضه، ويكرَّر إعطاء أقراص (النَّشاء)، ولا شفاء، حتَّى يقال للمريض: اطلب الشِّفاء من يسوع المخلِّص، عندها يُعطى الدَّواء المناسب، فيُشفى[2].

أمَّا إغراق، أو إحراق، أو إتلاف أُلوف أُلوف الأطنان من المواد الغذائية لإبقاء الأسعار مرتفعة تحقّق الأرباح الخياليَّة، فأمر متَّبع حتَّى يومنا هذا.

إنَّ أعداء البشريَّة ثلاثة هي: الفقر، والجهل، والمرض، وأينما حلَّ الاستعمار انتشرت انتشار النَّار بالهشيم.

وفي فتوح الإسلام انتشرت المستشفيات (البيمارستانات) في كلِّ

---

(١) كالشارع الممتد من حيِّ العفيف إلى حيِّ الشَّيخ محيي الدِّين بدمشق.

(٢) شُرح ذلك بالتَّفصيل في كتاب: التَّبشير والاستعمار، للدكتور مصطفى الخالدي، والدكتور عمر فروخ رحمهما الله، (استغلُّوا الأعمال الخيريَّة: طب - مستوصفات - ومستشفيات - والتَّعليم لأبناء معيَّنين سيشكِّلون ملاكات المجتمع، التَّوسُّع الأوربي في العالم ١٩٣).

أرجاء البلاد التي فُتِحَت، وبعضها تخصُّصي، كمشافي المجذومين، كي لا يختلطوا بغيرهم (حجر صحِّي)، وللأمراض العصبيَّة مشافيها الخاصَّة.

بيمارستان النُّوري بدمشق، لم تُطفأ ناره ٢٧٣سنة، وهو لكلِّ النَّاس مسلمهم وغير مسلمهم، ولابن السَّبيل أيضاً، أُوقفت عليه مناطق برأسها، كالرُّحيبة والقُطَيفة شمال دمشق، يذكر ابن شاهين حادثة طريفة لمتمارض أراد تناول الطَّعام من البيمارستان بعد أن شم رائحة أطايبه، فاستُضيف ثلاثة أيَّام، ثمَّ قيل له: الضَّيف ثلاثة أيام، اخرج سالماً غانماً، لقد عرفناك متمارضاً منذ السَّاعة الأُولى، (مدَّة الضِّيافة ثلاثة أيّام عافاك الله)، [قصة الحضارة ١٣/ ٣٦٠].

وعرف المسلمون المستشفيات المتنقِّلة، وأقاموا محطَّات الإسعاف قرب المساجد والأسواق، وعرضت المستشرقة الألمانيَّة زيغريد هونكه في كتابها: شمس العرب تسطع على الغرب، في باب (الأيدي الشَّافية) ما بلغه المسلمون من رُقي في مشافيهم، تحت عنوان: مستشفيات مثاليَّة وأطبّاء لم يَر العالم لهم مثيلاً[1]، ومما ذكرته: وتقيم المشافي الإسلاميَّة مع كلِّ مشفى مكتبة، ومدرسة عالية للطِّب والأدوية، والصَّيدليات، فمن اختراع المسلمين: التقطير، والتَّرشيح، والبلورة، وتغليف الحبوب بما لا يؤذي الذَّوق واللِّسان، وعرفوا المرقد والتخدير في العمليَّات.

ومازالت كلمات عربيَّة كثيرة في مجال الطِّبِّ تستعمل في أوربة.

٦- **الرقيق**: أكثر من عشرين مليون زنجي إفريقي حملوا إلى أمريكة وحدها، لقد روَّج الغرب لتجارة الرقيق خطفاً وقنصاً بأعداد كبيرة جداً، وتاريخ النَّخاسة الأوربي مُشِين جداً، وفي دائرة المعارف

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ٢٢٧، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة - بيروت، ط٨، ١٩٩٣م.



البيمارستان النُّوري من الخارج

البريطانيَّة ٢/ ٨٨٩ وصفٌ للقنص البشري للاستعباد، حيث كان يُقتل ثمانية كي يُلقى القبض على رقيق واحد.

وما يشحن إلى أُوربة يموت منه ١٢٪ لاختلاف البيئة والمناخ، ويموت قسم آخر في العمل في المستعمرات، فجامايكة البريطانية دخلها عام ١٨٢٠م (٨٠٠,٠٠٠) رقيق، بقي منهم في تلك السَّنة (٣٤٠,٠٠٠) رقيق فقط.

وكانت الملكة أليزبيت الأُولى (١٥٥٨-١٦٠٣م) شريكة جون هوكنز أكبر نخَّاس في التاريخ، ورفعته الملكة إلى مرتبة النُبلاء إعجاباً ببطولته، ومن العجائب أنَّ السَّفينة التي كانت تنقل الرقيق اسمها (يسوع)!!

أمّا الإسلام فقد شرع العتق، ولم يشرِّع الرِّقَّ، لقد ألغاه بخطا ثابتة مدروسة، ولم يبق منه إلَّا أسير الحرب معاملةً بالمثل.

ضيَّق الإسلام موارد الرِّقِّ ومداخله، وأفسح مصارفه ومخارجه،

ويمكن القول: إنَّه سدَّ منابع الرِّقّ، ووسَّع منافِذَ العتق.

لقد عدَّ الإسلام الرِّقَّ عارضاً، وجده واقعاً مشروعاً، فشرَّع العتق، فالمكاتبة واجبة - عند الإمام أحمد - متى دعا العبد سيِّده إليها.

والحنفيَّة تجبر المكاتبَ على الأداء حرصاً على تحريره، وإذا لم يكن معه مال وهو قادر على الكسب، فالمالكيَّة تجبره على الكسب.

ومعاملة الرقيق في الإسلام لا تتَّصل بالعقل والفكر، فهو يعتنق الدِّين الذي يرضيه.

٧- **محاكم التفتيش**: شُكِّلت محاكم التفتيش بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٤٧٨م، أصدره البابا سيكستُس الرَّابع (١٤٧١-١٤٨٤م)، لتنصير المسلمين بأشدِّ وسائل العنف، كالأسياخ المحمّاة، وسحق العظام، ورفع المرأة من ثدييها حتى تموت، أو تركها عُريانة على قبر تربط إليه بلا طعام حتَّى الموت[١].

محاكم التفتيش وصمة عار في جبين أوربّة على مرِّ التاريخ، ففي أمريكة أُحرق من رفض التنصير عند الكشوف الجغرافيَّة، وأقام الحاكم الإسباني (ليكاسي) محاكم التفتيش في الفيليبين - التي كان اسمها عذراء ماليزية - وتتبَّع المسلمين لتنصيرهم، وفي عام ١٥٩٥م استُرِقَّ المسلمون لأنهم مسلمون، وهُدِمت مساجدهم.

وبعد الاستعمار الإسباني، وفي عام ١٨٩٩م استعمار جديد على يد الأمريكيين للفيليبين، ذهب ضحيته ١٨٠٠٠ قتيل فيليبيني في أرض المعركة، و٢٠٠,٠٠٠ (أي ٢٠٪ من السكان) ماتوا من الجوع والمرض، وبسبب إحراق الجنود الأمريكيين للقرى والمحاصيل والماشية بقصد تمزيق الاقتصاد، وإخضاع المقاومة من خلال قطع مؤن التغذية.

(١) محاكم التفتيش، سليمان مظهر.



محاكم التفتيش

التَّسامح سمة الإسلام الخالدة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]، فهو لا يحكم بالإعدام على الشَّرائع الأُخرى، والحوار هو البديل، وإقراره بتعدُّد العقائد في مجتمع المسلمين بمشيئة الله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١/١١٨].

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] حجَّة على كلِّ متعصِّب متزمِّت لا يؤمن بحرِّيَّة اختيار العقيدة.

تسامح وإخاء وأُخوَّة، وحساب الخلق على الله.

وشهادة غوستاف لوبون معروفة: «فالحقُّ أنّ الأُمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»[1].

---

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص٧٢٠، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، ط٣/ ١٧٩٧م.

٨- **ابتزاز المواد الأَوَّليَّة**: عمليَّة نهب لخيرات الشُّعوب المستعمرة، والتركيز على بقائها زراعيَّة، والتَّأكيد على أن تبقى مستهلكة للمنتجات المصنَّعة في البلاد المستعمرة.

فمعظم دول العالم التي استقلَّت بعد استعمار، في أمريكة اللاتينيَّة وإفريقية وآسية، ترزح تحت عبء ديون تصل إلى عشرات المليارات من الدُّولارات لكلٍّ منها، والدّيون تزداد مع أنه تدفع المليارات سنوياً خدمات وفوائد مستحقَّة.

وهذا يذكِّر بغاندي الذي كان يحمل مغزلاً لنسج ثوبه بنفسه، وكانت ترافقه شاة ليشرب لبنها إشارة لمقاطعته البضائع المصنَّعة في بريطانية التي كانت تستعمر الهند..

ويذكر أيضاً بالسُّفن الأُوربية التي كانت تحمل الذَّهب والفضة من أمريكة اللاتينيَّة إلى دول القارة الأوربية المستعمرة، في سنيِّ (الكشوف الجغرافية).

«أنتم بلدان زراعيَّة» مقولة استعماريَّة مضلِّلة، رافقها عرقلة لكلِّ مشروع صناعي وطني، كي يبقى العالم الثالث عالماً مستورداً لمواد مصنَّعة مرتفعة الثَّمن، علماً أنَّ معظم موادِّها الأوَّليَّة تُجلبُ إليهم من دول العالم الثالث.

أمَّا في الإسلام، فتصرف الزكاة مثلاً على النَّاس حيث جُبيت، ولا يجوز نقلها إلَّا في حال استغناء الناس في مكان جبايتها، وتعود الضَّرائب مشاريع وخيرات، فلا ابتزاز ولا نهب، وكلمة عمر رضي الله عنه ستبقى خالدة: «هذا من فقراء أهل الكتاب»، لقد منح الفقير المسلم ومنح الفقير غير المسلم من بيت مال المسلمين.

لم تفتقر منطقة فُتحت، والعكس هو الصَّحيح، لقد ازدهرت الأندلس في زراعتها وصناعتها، وتقدَّمت علميّاً ورعاية صحِّيَّة، كما قال ستانلي بول - الرحالة الإنكليزي -: «لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب»، لقد نشطت الزِّراعة

وازدهرت، وجعل المسلمون من جبال الأندلس مدرجات صالحة للزراعة، وجعلوا مياه الثُّلوج مستودعات ضخمة للرَّيِّ، وأدخلوا أوَّل شجرة نخيل إلى أُوربة، كما أدخلوا زراعة الأرز والموز والقطن وقصب السُّكَّر والفستق الحلبي.

وكذلك في ما وراء النَّهر، لقد كان الإقليم الممتدّ بين بخارى وسمرقند يُعدُّ في القرن العاشر الميلادي أيام الحكم العباسي إحدى الجنَّات الأرضية الأربع.

وازدهرت خراسان، وازدهر حوض النِّيجر كلُّه، مع الأمن والطُّمأنينة في الحياة العامَّة.

❀ ❀ ❀

أيُّ وسام تضعه البشريَّة على صدرها:

سَمَاجَةُ الاستعمار أم سَماحَةُ الإسلام؟

السَّماجة لغة تعني القبح، يقال: ما أسمجَ فعلَهُ، أي: ما أقبحه، والسَّمْجُ والسَّميجُ: اللَّبن الدَّسم الخبيث الطَّعم.

والاستعمار سمج بفعاله وصوره وآثاره.

والسَّماحة لغة تعني الجود والعطاء والكرم والسَّخاء مع الصَّفح والعفو والإحسان، يقابله التّعنُّت والتَّعصب والتَّطرُّف والغُلوُّ.

والإسلام سمح بفعاله وصوره وآثاره.

- الاستعمار (استدمار): إبادة شعوب.

والإسلام: أُخوَّة إنسانيَّة.

- الاستعمار: عنصريَّة بقوالب وأشكال متعدِّدة.

والإسلام: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

- الاستعمار: فقر أينما حلَّ.
والإسلام: الرَّفاه للجميع.
- الاستعمار: جهل نشره حيثما حلَّ.
والإسلام: «ليس منِّي إلَّا عالم أو متعلِّم».
- الاستعمار: مرض يستغل من أجل التَّبشير.
والإسلام: بيمارستانات تخصُّصيَّة.
- الاستعمار: رقّ وقنص همجي.
والإسلام: شرع العتق ووسَّع مصارفه.
- الاستعمار: محاكم التفتيش.
والإسلام: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].
- الاستعمار: ابتزاز المواد الأوَّليَّة.
والإسلام: الخيرات تبقى في مواطنها.

فأيُّ وسام تضعه البشرية على صدرها: سماجة الاستعمار، أم سماحة الإسلام؟

الاستعمار شيء، والفتح شيء آخر يخالفه كليّاً.

الاستعمار قبح زائل.

والإسلام فتح حضاري خالد، والتَّاريخ والواقع خير شاهد.

الاستعمار احتلال بلا قيم رادعة، همُّه خيرات الشُّعوب.

والإسلام فتوح مقيَّدة بقيم ربانيَّة، لتبليغ رسالة، فشتان بين استعمار وفتح.

وهذا ما جعل الأمير تشارلز ولي عهد بريطانية يقول في محاضرته (الإسلام والغرب)، الَّتي ألقاها في مركز أُكسفورد للدِّراسات الإسلاميَّة يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر تشرين الأوَّل (أكتوبر) عام ألف وتسع مئة وثلاثة وتسعين:

«لقد أصبحت الحضارة الغربية مولعة بالكسب واستغلاله على نحو متزايد، بما يتنافى مع مسؤولياتنا البيئيَّة، إنَّ هذا الشعور الهامّ بالوحدانيَّة والوصاية على الطابع القدسي والرُّوحي للعالم من حولنا شيء مهم يمكن أن نتعلَّمه من جديد من الإسلام».

وخير ما يختتم به (فتح أم استعمار)، لإقامة الحجة على سماحة الإسلام في فتوحه وانتشاره (العهدة العمرية):

لـمَّا حاصر أبو عبيدة بن الجرَّاح بيت المقدس، طلب منه أهله المصالحة، وأن يكون المتولِّي للعقد عمر بن الخطَّاب، فخرج عمر رضي الله عنه إلى الشَّام، وقد استخلف عليّ بن أبي طالب على المدينة المنوَّرة، وكانت (العهدة العمريَّة)، ونصُّها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم**

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء [بيت المقدس] من الأَمان.

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها، أنَّه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهْدَم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارَّ أحد منهم..

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمَّة رسوله، وذمَّة الخلفاء وذمَّة المؤمنين.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكُتِبَ وحضر سنة خمس عشرة».

(الطَّبري ٣/ ٦٠٩، اليعقوبي ٢/ ١٦٧، الخراج ٨٠)

وعلى منوال (العهدة العمريَّة) وقع أبو عبيدة بن الجراح معاهدة مع أهل دمشق: «على أن تُترك كنائسهم وبِيَعُهم»، ووقَّع عمرو بن العاص معاهدة مع أهل مصر: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم ومِلَّتهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرِّهم وبحرهم..».

هذا، ولمَّا حان وقت الصلاة، لم يقبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يصلِّي داخل الكنيسة، حفاظاً عليها، وضماناً لبقائها، ولكي لا يُقال: هنا صلَّى عمر، وسنجعل مكان صلاته مسجداً، فخرج رضي الله عنه ليصلِّي بجوارها، حيث بُني مسجد عمر، الذي تعالت مئذنته وسمقت عالية بجوار برج الكنيسة.



أعمال الإسبان الوحشية: الشَّنق الجماعي، وقتل الأطفال برميهم على الصخور

الإسلام واللجنة الدولية للصليب الأحمر

(اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر) في جنيف تستمد مهمَّتها من اتِّفاقيّات جنيف لعام ١٩٤٩م، وبروتوكولَيْها الإضافيَّيْن لعام ١٩٧٧م، وتعمل اللَّجنة الدَّوليَّة من أجل التَّطبيق الأمين لأحكام القانون الدَّولي الإنساني المطبَّق في المنازعات المسلَّحة، تضطلع بالمهام التي تقع على عاتقها بمقتضى هذا القانون.

تشكِّل اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر والهلال الأحمر عناصر الحركة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر والهلال الأحمر، واللَّجنة الدَّوليَّة - وهي مؤسَّسة إنسانيَّة مستقلَّة - هي الجهاز المؤسِّس للصَّليب الأحمر، وهي بوصفها وسيطاً محايداً في المنازعات أو الاضطرابات المسلحة تعمل بمبادرة منها، أو على أساس اتِّفاقيات جنيف، من أجل حماية ومساعدة ضحايا الحروب الدَّوليَّة والأهليَّة والاضطرابات والتَّوتُّرات، وبذلك تقدِّم إسهامها في تحقيق السِّلم في العالم[١].

هذه اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر أصدرت عام ١٩٩٣م كتاباً أنيقاً بخمس لغات، هي اللُّغات المعتمدة في الأُمم المتحدة، ومنها اللُّغة العربيَّة، عنوانه: Chronicles of Islamic- Arab History، (سجل أو وقائع التَّاريخ العربي الإسلامي).

---

(١) عنوانها: GENEVE International Committee of the Red Cross 19, AVENUE DE LA PAIX. 1202، هاتف ٧٣٤٦٠٠١ (١٢٢)، تلكس: CCR-CH ٤١٤٢٢٦.

جاء في مقدِّمة هذا الكتاب: بإطلالة واعية على التراث العربي الإسلامي العريق، يتبيَّن لنا مدى حرصه على تأكيد تقاليد الفروسيَّة، حيث أضفى عليها صبغته الإنسانيَّة، وحثَّ على التَّقيُّد بها، من حيث الاحترام المتبادل والإنصاف في الهجوم والدِّفاع، بالإضافة إلى احترام حقوق المقاتلين والرِّفق بالضحايا ومعاملتهم معاملة إنسانيَّة، وهو في ذلك يتفق مع نصوص وروح القانون الدولي الإنساني، الذي يحتِّم حماية حقوق المقاتلين، وضحايا النزاعات المسلحة، ويقيد من وسائل استعمال القوة، بقصر استعمالها ضد المقاتلين في أثناء المعارك الحربيّة، وحظر استعمالها ضدّ المدنيِّين أو الجرحى من المقاتلين الذين حيَّدتهم إصاباتهم فأصبحوا غير مشاركين في القتال فعلاً.

إنَّ النظرة المتأنِّية لتبيِّن بجلاء ووضوح مدى حرص شريعة الإسلام السَّمحة، وحرص قادة جيوش المسلمين على احترام إنسانيَّة الخصم، سواء كان هذا الخصم مقاتلاً أو أسيراً أو مدنيّاً أعزل، ممّا يؤكد أنَّ هذه الشَّريعة كانت إحدى الموارد التي نهل منها القانون الدولي الإنساني في قواعده ومبادئه السَّامية.

ويقول الكتاب: وستجد أيُّها القارئ الكريم في الصفحات التالية بعض النُّصوص التُّراثيّة، استقيناها شواهد من التُّراث العربي الإسلامي، وأثبتنا ما يتَّفق معها من نصوص القانون الدَّولي الإنساني المعاصر.

القانون الدولي الإنساني

وينتقل الكتاب إلى تعريف ماهية القانون الدولي الإنساني، ومما قاله: حيث يمكن تعريفه بأنّه: «مجموعة من القواعد القانونية التي تحدد حقوق ضحايا النِّزاعات المسلحة، وتفرض قيوداً على المقاتلين في وسائل استخدام القوَّة العسكرية، وقصرها على المقاتلين دون غيرهم،

وضحايا النزاعات المسلحة هم القتلى والجرحى والمرضى والأسرى في المعارك البرية والبحرية والجويّة. إضافةً إلى المحميين في الأراضي المحتلَّة».

ويعتمد مصدراً له على:

- اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩م.
- البروتوكولين (الملحقين) الإضافيين لاتفاقيات جنيف، والصادرين عام ١٩٧٧م.
- مبادئ القانون الدولي كما استقرَّ بها العرف ومبادئ الإنسانيَّة، والضمير العام، بالإضافة إلى القواعد الإنسانيَّة المستمدة من أي اتفاق دولي.

ومن يراجع التراث الإسلامي - كما يقرِّر كتاب اللَّجنة الدوليَّة للصليب الأحمر - يجده قد اتَّفق مع المعاهدات المعاصرة التي قيَّدت استخدام القوَّة في النِّزاعات المسلَّحة، ولقد اتسمت الحرب في الإسلام بالرَّحمة والفضيلة، فلنقرأ قول رسول الله ﷺ، وهو يقول لمن تولَّى إمارة الجند:

«انطلقوا باسم الله، وعلى بركة رسوله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلُّوا (أي لا تخونوا) وأصلحوا وأحسنوا، إنَّ الله يحب المحسنين».

ويكمل هذا القول أول الخلفاء الراشدين أبو بكر الصديق، حيث يقول [وهو يودِّع جيش أُسامة بن زيد]:

«يا أيها النَّاس، قفوا أُوصكم بعشر فاحفظوها عنِّي: لا تخونوا ولا تغلُّوا، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقِروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلَّا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف

تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً، اندفعوا باسم الله»[1].

ثم يضيف ليزيد بن أبي سفيان قائلاً: «لا تقاتل مجروحاً فإنَّ بعضه ليس معه».

ولا يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل يأتي الفقه الإسلامي مفرِّعاً على هذه الأحكام فروعاً، من ذلك ما ذهب إليه الإمامان مالك والأوزاعي من أنه: «لا يجوز بحال من الأحوال قتل النساء والصِّبيان من الأعداء، ولو تترَّس بهم أهل الحرب»، أي حتّى ولو وضعوهم أمامهم دريئة للقتل، وترساً يحميهم منه.

هذا وقد أتى القانون الدولي الإنساني بتنظيم دقيق لاستعمال القوَّة العسكريَّة حيث قصر استعمالها على الأفراد العسكريين، وعلى الأعيان العسكرية، بصورة تتفق مع ما سبق وعرضناه من قبل بالنسبة لحديث رسول الله ﷺ لأُمراء الجند.

وتغليباً للطبع الإنساني فقد جاءت تسمية القانون الذي يحكم النِّزاعات المسلَّحة (بالقانون الدولي الإنساني)، حيث الحماية التي يكفلها ويسعى لضمانها لبعض الطوائف والأشخاص، وهي التي أكد عليها دوماً التراث العربي الإسلامي.

وإذا كان القانون الدولي الإنساني قد أتى بمنظومة من القواعد والمبادئ التي تهدف إلى حماية ضحايا النزاعات المسلحة، بحيث تكفل لهم الرعاية والعناية الكافية، إضافة إلى توفير الاحترام والحماية لهم في حالة وفاتهم أو فقدهم فضلاً عن حماية السُّكان المدنيين والأعيان

---

(١) ضُبِطَ النَّص كما في الطَّبري ٣/ ٢٢٦، والكامل في التَّاريخ ٢/ ٢٢٧.

المدنيّة، والتي حرص على تأكيدها في أغلب نصوصه، فإن ذلك مرجعه أن ما تضمنه من قواعد ليست سوى ترسيخ لقيم ومبادئ متأصِّلة في التُّراث الإنساني العالمي، وإذا صيغت في العصور الحديثة في نصوص اتفاقيات دولية، فلأن المجتمع الدولي في حاجة ماسَّة إليها الآن، وخاصّة أن الممارسات الدامية التي تصاحب أغلب المواجهات المسلحة تتسم بالقسوة والوحشية، وهذه القواعد مستقرة في الفقه الإسلامي الذي أرسى قواعد المعاملة الإنسانية للعدو الذي لا يستطيع قتالاً، وميَّز بين المقاتلين وغير المقاتلين، وضمن حصانة المبعوثين والرُّسل وحظر الخيانة في الحرب، وفيما يلي أمثلة عن كيفيَّة معاملة المسلمين للجرحى والمرضى والأسرى:

بالنسبة إلى حقوق الجرحى والمرضى فقد أوجب الإسلام حسن معاملة الجرحى والمرضى، وحرَّم مقاتلتهم أو قتلهم أو المُثلة بهم، ولقد جاءت تصرُّفات صلاح الدين الأيوبي في الحرب الصليبية خير دليل على ذلك، حيث قام بنفسه بعلاج قائد الصَّليبيين ريتشارد قلب الأسد..

أما بالنسبة إلى معاملة المسلمين لأسرى الحرب، فقد ورد بالقرآن الكريم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٧٦/٨-٩]، وقال الرَّسول ﷺ: «استوصوا بالأسرى خيراً»[١]، وحث المسلمين على حُسن معاملتهم منذ أكثر من ألف سنة، حيث كان الأسرى يقتلون ويعذَّبون، وتُقطع أطرافهم ثم يستعبد بعضهم.

---

(١) قالها ﷺ بحقِّ أسرى بدر، قال أبو عزيز بن عمير بن هاشم، وكان من أسرى بدر، قال عن آسريه: كانوا إذا قدَّموا غَداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز، وأكلوا التَّمر لوصيَّة رسول الله ﷺ إياهم بنا، فأستحي، فأردّها على أحدهم فيردُّها عليَّ ما يمسُّها. (الطبري ٣/ ٤٠).

ويتابع كتاب (اللجنة الدولية للصليب الأحمر، من جنيف) مقرِّراً: تلك في عجالة بعض أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة عن حقوق المقاتلين وضحايا النِّزاعات المسلحة في خلفيّة عربيَّة، بقدر ما يسمح به المجال، وكتب الفقه تزخر بكثيرٍ من الكتابات تحت مصنَّف السِّير، أو المغازي، حيث أضاف الفقهاء التفريعات تكملة للأُصول، وواصلوا الأحكام فنسخ اجتهادهم نظرية متكاملة في القانون الدولي الإنساني المعاصر، سبقت به الشريعة الإسلامية المجتمع الدولي بأكثر من ألف عام، بل ولا تزال تسبق بما يطالب به الفقهاء المعاصرون، بمزيد من الحماية لضحايا النِّزاعات المسلَّحة.

وإذا كان لنا من قولة في ختام هذا الحديث، فهو أنَّ الحرب وإن كانت ضرورة تقدَّر بقدرها، إلا أنَّها وكما يقول ابن خلدون: «فإنَّ الحرب لم تزل واقعة في الخليقة، منذ بدأَها الله».

وإذا كان من أهم قواعد المنطق لاحترام قاعدة قانونية هو معرفتها، فقد ألزمت قواعد القانون الدولي الإنساني المعاصر، وعلى رأسها اتفاقيَّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩م، الدُّول الأطراف فيها[(١)] بالعمل على نشر المعرفة بهذه الأحكام.

وبهذا العرض الموجز، اتَّضح لنا أنَّ قواعد القانون الدولي الإنساني لا تخرج عن عباءة الإسلام بأيِّ حال، بل إنَّ كثيراً من قواعده تجد مصادرها في هذا الدِّين الحنيف، وعلى ذلك فإنه من السهل على الإنسان إذا ما عرف أنَّ قواعد القانون الوضعي تفرض عليه احترام قواعد معاملة

(١) صدَّقت على اتفاقيَّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩م أغلب دول العالم، حيث بلغت عددها ١٨١ دولة حتّى الآن، وصدَّق على البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧م (١٢٦) دولة حتّى الآن، وصدَّق على البروتوكول الثاني لعام ١٩٧٧م (١١٧) دولة حتى الآن، أي حتى عام ١٩٩٣م، سنة طبع الكتاب.

ضحايا النِّزاعات المسلحة، وأنَّ الأمر فوق كونه قاعدة وضعيَّة، فهو قاعدة إنسانية، استقرت وترسخت في الوجدان الإنساني تخاطب فيه إنسانيته، فيحرص على احترامها وصون أحكامها.

مثالان اثنان فقط:

وتابع الكتاب الأنيق الملوَّن مسيرته، فاستعرض في اثنتي عشرة صفحة نماذج أمثلة، حيث قدَّم في كلِّ صفحة من هذه الصفحات - مع صورة تراثية ملوَّنة - النص الإسلامي، وما اقتبسه القانون الدولي الإنساني منه، ونكتفي بتقديم مثالين اثنين فقط، منها:

١- حمل عتبة بن عامر الجهني إلى الخليفة أبي بكر الصدِّيق رأس أحد القتلى من المشركين، فغضب أبو بكر لذلك، وكتب إلى قوَّاده: «لا يُحْمَلُ إليَّ رأسٌ، وإلَّا بغيتم - أي جاوزتم الحدَّ للتشفِّي - ولكن يكفيني الكتاب والخبر»، [شرح كتاب (السِّيَر الكبير) لمحمد بن الحسن الشيباني].

وقُبَالة هذا النصِّ، وعلى الصَّفحة ذاتها: أشارت اتِّفاقيَّة جنيف لعام ١٩٤٩ المتعلِّقة بتحسين حال الجرحى والمرضى من أفراد القوَّات المسلَّحة في الميدان، إلى تنظيم دفن الموتى، واحترام جثَّتهم، وإجراء الدَّفن وفقاً للطُّقوس الدينية حسبما تسمح الظُّروف، (المادة ١٧٥).

كما نظَّمت المواد ١٨ وما بعدها من الاتِّفاقية الثانية، بشأن تحسين حالة الجرحى والمرضى والغرقى بالقوَّات المسلَّحة في البحار، الإجراءات الواجب اتباعها للبحث عن جثث الغرقى، وأُسلوب دفنهم حسب الطقوس والأعراف الدينية، كما ألزمت المادة ٣٤ من البروتوكول الأول باحترام رفات الأشخاص الذين يتوفون بسبب الاحتلال، أو في أثناء الاعتقال، أو بسبب العمليَّات الحربيَّة.

٢- «النَّفس الإنسانيَّة أشرف النُّفوس في هذا العالم، والبدن الإنساني

أشرف الأجسام في هذا العالم»[1]، [الإمام فخر الدِّين الرَّازي في تفسيره للقرآن الكريم، الموسوم (بمفاتيح الغيب)].

وعلى الصَّفحة ذاتها: تنصُّ المادَّة الثالثة، وهي مادة مشتركة في اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩، على أنَّه يحظَّر على أطراف النزاعات المسلحة غير الدوليَّة: إعمال العنف ضد الحياة والشخص والاعتداء على الكرامة الشخصيَّة، وعلى الأخص التحقير والمعاملة المزرية، وتنصُّ المادة ١٤ من اتفاقية جنيف الثَّالثة بشأن معاملة أسرى الحرب على أنَّ «لأسرى الحرب في جميع الأحوال حقَّ احترام أشخاصهم وشرفهم».

المفارقة بين العقيدة والتَّوصيات

إنَّ آداب الجهاد التي سُجِّلت في وصيَّة أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه لجيش أُسامة رُبِطَتْ بعقيدة، ومن ثمَّ برقيب لا يغيب، هو الله سبحانه وتعالى، فلا خيار للمسلم في تطبيقها أو تجاوزها حسب الظُّروف، لأنها فريضة في عقيدته ملأت كيانه.

في حين أن اتفاقيات جنيف الأربع، والبروتوكولين الملحقين الإضافيين لعام ١٩٧٧، توصيات، يخرقها القويُّ في كلِّ حروبه، فهي في الواقع مغيَّبة تماماً، وحروب عصرنا خير شاهد في استعمال الأسلحة المحظورة دوليّاً من فيتنام إلى أفغانستان، إلى العراق، إلى فلسطين.

وشتان بين تعاليم عقيدة تملي على أتباعها دستوراً إنسانياً يلتزمون به رجاء ثواب الله، وخشية من عقابه، وبين توصيات يخرقها القويُّ في كلِّ حروبه، دون خوف من رقيب، أو وازع من ضمير، على الرغم من توقيعه

(١) يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠]، و﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣٢].

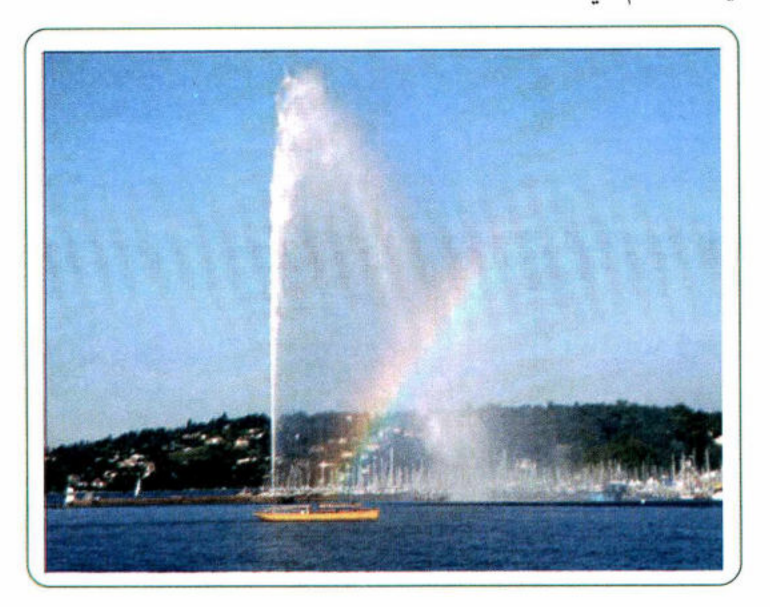
عليها من جهة، وادِّعائه الإنسانيَّة، ونشر الدِّيمقراطيَّة، وحرِّيَّة الشعوب من جهة أُخرى!

هذا.. والحرب في الإسلام لرفع الظُّلم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩]، مع أمر من الله ألا نعتدي: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠]، مع الاعتراف بالآخر، ولا فَرْض لعقيدة بإكراه، والحوار - بالَّتي هي أحسن - هو البديل.

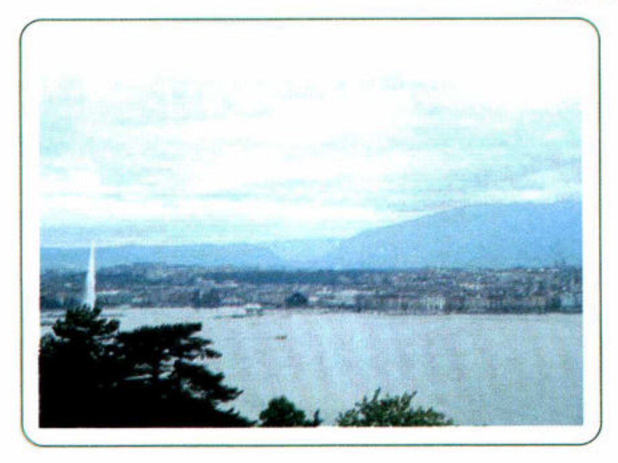
(بيير بوجيه) المسؤول عن ملفِّ اتفاقيات جنيف ومتابعة تطبيقها في الحروب، قال في كلمة ألقاها أمام الجمعيَّة العامَّة للأُمم المتحدة بتاريخ ٥/ ٥/ ٢٠٠١م: «أنا الفرنسي المسيحي لا أتحرَّج من دعوة المجتمع الدَّولي عبر الأُمم المتحدة إلى قراءة قانون الأسرى ومعاملتهم كما وضعه الإسلام منذ ما يزيد على ألف عام.. إنه قانون مثالي طبَّقه المسلمون في حروبهم ملتزمين بقانون وضعه الإسلام، وتشدَّد في تطبيقه النَّبيُّ محمد والقادة المسلمون من بعده، قانون لم يحتج إلى اتفاقيات ومؤتمرات، واتفاقيات على الاتِّفاقيَّات، ونحن بحاجة الآن لنتعلَّم من ذلك القانون المثالي، سواء كنَّا متفقين مع مبادئ الإسلام أم غير متَّفقين»، (الأسرى بين الإسلام وبين القوانين الدوليَّة، شاهر يحيى وحيد، موقع مجلة الجندي المسلم، العدد ١١٣).

وكالعادة، لم يبرز الإعلام الغربي كلمة بيير بوجيه، وكلُّ ما ورد هو خبر صغير نشرته (اللوموند) الفرنسية، تشير فيه إلى تذمر مسؤول ملف اتفاقيات جنيف في الأمم المتحدة من عدم التَّطبيق الكامل للاتفاقيات في (بعض) الحروب الحديثة، والتَّنويه بدعوة الإسلام إلى حسن معاملة الأسرى، أي: إنَّ الخبر جاء بصيغة توحي بأنَّ بوجيه قد تحدث عن سوء معاملة الأسرى من قبل المسلمين، وأنَّه يذكرهم بضرورة معاملتهم

بالحسنى تنفيذاً لمبادئ الإسلام، وهكذا حُرِّف كلام بوجيه، ولا عجب أن يزعج كلامه الإعلام المعادي للإسلام، والذي يقرُّ بأنَّ اتفاقيات جنيف حول الأسرى قد فشلت كلُّها، بينما معاملة الأسرى كما قوننها الإسلام ما زالت هي القوانين المشرقة الوحيدة عبر التاريخ الدولي، (موقع مجلة الجندي المسلم في الشَّبكة العنكبوتيَّة).



جنيف وبحيرتها



حوار الفاتيكان
كيف بدأ؟ وعَلامَ انتهى؟

منذ عام ١٩٩١م وأنا أُقدِّم لطلابي في كلِّيَّة الشَّريعة (جامعة دمشق) وثيقة هامَّة، نشرتها صحيفة (العالم الإسلامي) بعددها ذي الرَّقم ١٢٢٩، الصَّادر في ١ ربيع الأَوَّل ١٤١٢هـ، الموافق ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٩١م، غطَّت مساحة الصَّفحة الخامسة كلَّها، تحت عنوان: (حوار).

أخبار ومعلومات الصَّفحة المذكورة؛ لقاء أجراه الأُستاذ فيصل السَّماك، مع الدكتور محمد معروف الدَّواليبي، المولود في حلب ١٩٠٩م، وهو حقوقي متشرِّع، أُستاذ القانون الرُّوماني بكلِّيَّة الحقوق من جامعة دمشق، تولَّى وزارة الدِّفاع في مطلع نيسان ١٩٥٠م، وشكَّل الوزارة في ٢٨ تشرين الثَّاني ١٩٥١م، وفي ٢٨ أيلول ١٩٦١م، غادر إلى السُّعوديَّة مستشاراً للملك فيصل منذ عام ١٩٦٥م، وبقي فيها حتَّى وفاته في ٢٦ كانون الثَّاني ٢٠٠٤م.

كان الدكتور الدَّواليبي من ضمن وفد المملكة العربيَّة السُّعوديَّة في لقاءات الحوار بين الإسلام والمسيحيَّة، الَّتي عُقِدَت في عاصمة الكثلكة (الفاتيكان) عام ١٩٦٥م، وقدَّم في لقائه مع الأُستاذ فيصل السَّماك إجاباتٍ عن أسئلة هامَّة:

- من الَّذي طلع بفكرة هذه اللِّقاءات؟
- من كان البادئ بها؟ وكيف تمَّت؟

- ما قصَّة سفر إِشعيا الصَّحيح؛ الَّذي اكتُشِفَ في مغاور قَمران، شمال غرب البحر الميت[1]؟
- ما دور اليهود في تعطيل الحوار الإِسلامي - المسيحي؟
- وكيف مات البابا بولس السَّادس فجأَة، ودُفِنَ بلا تقرير طبِّي، ولا مراسم تشييع؟
- وكيف مات بعد أُسبوع واحد فقط، الكردنال بيمونوللي، وزير الدَّولة الفاتيكاني للشُّؤون الإِسلاميَّة - المسيحيَّة، وطُمِسَت ظروف وفاته أَيضاً؟

وفي كلِّ عام دراسي، حتَّى هذا العام ٢٠٠٦م، يطلب الطُّلاب أخذ صفحة الصَّحيفة المذكورة لتصويرها على أربع صفحات، ثمَّ لصقها بعناية لتكتمل مساحة صفحة الصَّحيفة.

ومع التَّأكيد في كلِّ أَعوام التَّدريس على الاعتراف بالآخر، وبدل العنف والفظاظة والغلظة حواره بالَّتي هي أحسن، للوصول إلى الحقيقة ونحن نعيش قمم التَّسامح والمودَّة والاقتناع بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٥/٤٨].

ولأَهمِّيَّة هذه الوثيقة، نقدِّم أَهمَّ ما تضمَّنت، خصوصاً أَنَّ مخطوطات مغاور قَمران تُرْجِمَت وقُدِّمت ودُرِسَت بدقَّة، ولكن كثيرين يتجاهلونها؛ حتَّى قالت هيئة الإِذاعة البريطانيَّة بعد ذكر مضمونها الهام، على لسان أَحد الَّذين يهمُّهم هذا المضمون: إِنَّها (مَمْسَحَةٌ) أَوَّلاً وآخراً، ولن نعيرها اهتماماً، نضعها على باب الدَّار لمسح أَحذيتنا بها.

---

(١) شرق القدس، جنوب أَريحا.

مع أَنَّ البابا بولس السَّادس الَّذي تولَّى البابويَّة عام ١٩٦٣م، أعطاها أَهمِّيَّة كبرى، وقدَّم قرارات تاريخيَّة استناداً إليها، فمات مسموماً عام ١٩٧٨م، وهو: جيُوفانِّي باتِيستَامونيتني، وُلِدَ في كونشيزيو قرب بريشيا (في سهل البُو، شرق ميلانو، شمال إِيطالية) سنة ١٨٩٧م، سكرتير دولة الفاتيكان ١٩٤٤م، رئيس أَساقفة ميلانو ١٩٥٤م، بابا في ٢١ حزيران ١٩٦٣م، واصل المجتمع الفاتيكاني الثَّاني وختمه ١٩٦٣ - ١٩٦٥م، زار الأَراضي المقدَّسة ١٩٦٤م، وأَنحاء عديدة في العالم في محاولات لتوطيد العدالة والسَّلام.



الشيخ محمد الحركان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الأسبق ومعروف الدواليبي أثناء لقاء البابا في الحوار الإسلامي المسيحي

مجلَّة (المجلَّة)، العدد ١٢٥٧، ٢٠٠٤/٣/١٤، ص٣٢-٣٣.

اكتشاف سفر إشعيا

يقول الدكتور محمد معروف الدَّواليبي: بدأت قصَّة (الحوار الإسلامي - المسيحي) عام ١٩٥٨م، حينما اكْتَشَف راعي غنم في مغاور قمران المخطوطات الَّتي من أهمِّها سفر إشعيا الصَّحيح بكامله، بينما المنشور في التَّوراة هو جزء منه.

وبعد دراسته، اجتمع الفاتيكان لمدَّة أربع سنوات، من ١٩٦١م إلى ١٩٦٥م، وأكَّد أنَّ لهذا السِّفر تأثيراً جديداً على قواعد ومفاهيم المسيحيَّة بالنِّسبة للإسلام، فأصدروا كتيِّباً دعوا فيه إلى الحوار ما بين المسيحيَّة والإسلام، ويثنون على الإسلام كدين، ويأسفون لما سبق من خلاف بين الدِّيانتَيْن، ويطلبون نسيان الماضي، وأن يدخل المسيحي في حوار مع المسلم، لا ليعلِّمه ويتظاهر بالعلوِّ، وإنَّما ليتعلَّم كيف يُنقِّي عقيدته المسيحيَّة من عقيدة التَّثليث.

وثيقة هامَّة

بعد ذلك؛ صدرت عن الفاتيكان وثيقة هامَّة، كانت بمنزلة اعتراف رسمي مسيحي بالدِّين الإسلامي، ولأَوَّل مرَّة، جاء فيها: «إنَّ كلّ من آمن بعد اليوم بالله خالق السَّماوات والأَرض، وربِّ إبراهيم وموسى، فهو ناجٍ عند الله وداخل في سلامه، وفي مقدِّمتهم: المسلمون».

وبعد صدور هذه الوثيقة، صادف أن كنَّا في موسم الحجِّ مع المرحوم الملك فيصل بن عبد العزيز عام ١٩٦٥م، حينما وجَّه الفاتيكان عن طريق إذاعته، نداءً بالتَّهنئة بالحجِّ وقضاء مناسكه إلى الفيصل وإلى الحجَّاج، فردَّ الفيصل بالإذاعة على الإذاعة مُحيِّياً هذه الرُّوح الجديدة، ولم يلبث الفاتيكان أن سعى إلى الدُّخول في حوار، والنَّاس بين مصدِّق ومكذِّب، حتَّى وصلت الدَّعوة إلينا للدُّخول في

حوار معهم وزيارتهم، وذلك للتَّعاون فيما يتعلَّق بحقوق الإنسان، وكنّا أَيضاً في كلِّ مكان مستغربين هذه الرُّوح الجديدة، ولمَّا دعاني المرحوم الملك فيصل ليسأَلني رأيي في الدَّعوة الَّتي وجَّهها الفاتيكان إلى علماء المملكة ليزوروه من أجل حوار وتعاون لا يُقْصَدُ منه البحث في أُصول الدِّين، وإنَّما التَّعاون على ما يأمر به الدِّين بحقوق الإِنسان، أَلححتُ على قبول الدَّعوة، فذهبت بالفعل إلى الفاتيكان، وكان معي سفير المملكة في رومة، واجتمعنا بالكاردينال بيمونوللي وزير الدَّولة في حكومة الفاتيكان فيما يتعلَّق بالعلاقات ما بين الإسلام والمسيحيَّة، فعرفت أَنَّ الدَّعوة صحيحة وطيِّبة، وأَنَّهم يريدون التَّعاون، ونسيان الماضي.

وكانت إِذاعة الفاتيكان تركِّز في نشراتها على الاجتماعات الَّتي كنَّا نعقدها، وعلى أَنَّنا اتَّفقنا على مبدأ الحوار.

السَّفير (الإِسرائيلي) يتدخَّل

وبعد ثمان وأَربعين ساعة من مغادرتي الفاتيكان، طلب السَّفير (الإِسرائيلي) في رومة مقابلة الكاردينال بيمونوللي، مع أَنَّه لم يكن بين (إِسرائيل) والفاتيكان تمثيل دبلوماسي، وإِنَّما كان طلبه الزِّيارة باسم حكومة (إِسرائيل)، وقال السَّفير (الإِسرائيلي) للكاردينال: نطلب منكم وقف أَيِّ حوار بين الفاتيكان وبين المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، فرفض الكاردينال طلب السَّفير.

وفي اليوم التَّالي عاد السَّفير وكرَّر الطَّلب، ورُفِضَ طلبه، وهكذا على مدى خمسة أَيَّام متوالية.

أكثر من ذلك؛ فقد بعث البابا بولس السَّادس برسالة إِجلال واحترام للملك فيصل راوياً له ماذا جرى بين السَّفير (الإِسرائيلي) في رومة

والكاردينال بيمونوللي من إصرار على عدم تحقيق لقاء الحوار بين الإِسلام والمسيحيَّة.

ثورة داخل الفاتيكان

يومها أعلنوا أَنَّنا قمنا بثورة داخل الفاتيكان، لماذا؟ لأَنَّه ليس من التَّقاليد البابويَّة أَن يبدأ البابا الكتابة لأَيِّ رئيس دولة، فقد جرت العادة منذ القديم، أَن يتولَّى البابا الإِجابة عن رسائل رؤساء الدُّول، لا أَن يكون هو البادئ بكتابة الرَّسائل.

بدء الحوار

وقبل أَن يبدأ الحوار بين علماء المملكة وبين الفاتيكان، صدر عن (مجمع الفاتيكان الثَّاني) كُتيِّب يقع في نحو ١٥٠ صفحة، تحت عنوان: (توجيهات للمسيحيِّين من أَجل الحوار بينهم وبين المسلمين)، فقد أُمِروا بنسيان الماضي، وذُكِّروا بأَنَّ المسلمين ناجون عند الله، عملاً بما اتَّخذته أَعلى سلطة في الفاتيكان.

في هذه الأَجواء بدأَت اجتماعات الحوار الإِسلامي المسيحي في الفاتيكان، ثمَّ ما لبث أَن دعانا مجلس الوحدة الأُوربيَّة، بناء على قرار مجمع الفاتيكان الثَّاني، في استراسبورغ، ولبَّينا الدَّعوة أَيضاً الَّتي وجَّهها إِلينا مجلس الكنائس العالمي في جنيف، وأَيضاً إِلى وزارة العدل الفرنسيَّة، ثمَّ إِلى جمعيَّة الصَّداقة السُّعوديَّة - الفرنسيَّة.

وكانت كلُّ تلك اللِّقاءات تتمُّ وفقاً لتلك الرُّوح الَّتي أَعلنها الفاتيكان، والَّتي كان لها الدَّويُّ والتَّأثير العظيمان، فقد كانت المرَّة الأُولى في التَّاريخ الَّتي يخرج فيها وفد من المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، بناء على دعوة

الغرب المسيحي، للقاء البابا ومجلس الكنائس العالمي البروتستانتي الَّذي يُقابل الكنيسة الكاثوليكيَّة.

وقف التَّنصير

بعد إنهاء اللِّقاءات الَّتي حصلت بين علماء المملكة وبين كبار مسؤولي الفاتيكان، وفي يوم مغادرتنا عاصمة الكثلكة، وقف الكاردينال بيمونوللي مخاطباً العلماء المسلمين بقوله: لقد قرَّرنا هذا اليوم وقف التَّنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي، ونحن نطلب منكم أن تعودوا إلينا (بالبشارة)، ذلك أنَّ السَّيِّد المسيح حينما ودَّع نَبَّأهم أَنَّه ستأتي من بعده (بشارة)، أي نبيٌّ يخبرهم بالحقائق، وقد جاء في سفر إشعيا ما يلي:

«بعد المسيح، يأتي نبيٌّ عربيٌّ من بلاد (فاران) - بلاد إسماعيل، وفاران باللُّغة الآراميَّة هي بلاد الحجاز - وعلى اليهود أن يتَّبعوه، وعلامته أَنَّه إن نجا من القتل، فإنَّه النَّبيُّ المنتظر، لأَنَّه يفلت من السَّيف المسلول على رقبته، ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قدِّيس».

انطباق على الواقع

وهذه تنطبق تماماً على الواقع، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [البقرة ٢/ ١٤٦، والأنعام ٦/ ٢٠]، فأَعطى مكانه: بلاد إسماعيل (أي مكَّة المكرَّمة) وأعطى صفته: «يهرب من السَّيف المسلول على رقبته»، وذلك حينما هاجر ليلة المؤامرة الَّتي حيكت لقتله ﷺ، ويعود بعشرة آلاف قدِّيس»، وقد عاد ﷺ إلى مكَّة المكرَّمة بعشرة آلاف مؤمن.

فهذه النُّصوص واضحة كالشَّمس في رابعة النَّهار، ولذلك نَعُدُّ أَنَّ ما صدر عن البابا بولس السَّادس كان خطوة طيِّبة وجديدة.

وفاة البابا، والكاردينال

ولكن مع الأسف، فإنَّ هذا البابا لم يلبث أن توفِّي في ظروف لا ندريها، كما توفِّي من بعده بقليل الكاردينال بيمونوللي، الَّذي كان صلة الوصل بيننا وبين الفاتيكان، وبوفاتهما توقَّف الحوار بين الإسلام والمسيحيَّة.

اليهود، اليهود

إنَّ موت البابا بولس السَّادس الفجائي، ومن بعده بقليل الكاردينال بيمونوللي الَّذي كان صاحب فكرة الحوار بين المسيحيَّة والإسلام كان من تدبير اليهود، الأَب (مبارك) اللُّبناني الأَصل، والمعروف بمشاعره الطَّيبة، وهو من كبار رجال الكنيسة والأُستاذ في الجامعة الكاثوليكيَّة في باريس، نشر مقالاً في إحدى المجلَّات اللُّبنانيَّة في السَّنة ذاتها الَّتي لبَّينا فيها دعوة الفاتيكان إلى الحوار، يحذِّر فيها من تأثير الصُّهيونيَّة على الفاتيكان، ويؤكِّد بأَنَّ (عناصر) داخل الفاتيكان تردُّه عن سياسته الجديدة يومذاك.

لماذا لا يبشِّرون بين اليهود؟

ويقول الدكتور الدَّواليبي: لقد قلت صراحة للكاردينال بيمونوللي في جلسة خاصَّة في أثناء الحوار: إنَّني أَحمل شهادة دبلوم في الحقوق الكنسيَّة، فدُهش وقال: إنَّ شهادة الحقوق الكنسيَّة لا تُعطى إلاَّ لمسيحي، فكيف حصلت عليها؟ فأَجبته: إنَّني نلتها من جامعة باريس كدبلوم اختصاص، لا من الجامعة الكاثوليكيَّة، وإنَّني في أثناء قراءتي للإنجيل والتَّوراة و (الكتاب المقدَّس) بشكل متعمِّق، لم أَستطع أَن أَفهم بعض النُّصوص الَّتي جاءت في الإنجيل، وهي عميقة الإشكال عندي، ولم أَجد حتَّى الآن من أَطرح عليه هذا السُّؤال، لأَنَّه سؤال عميق، ويجب أَن

يكون المسؤول الَّذي سيتولَّى الإِجابة عنه يتمتَّع بأَعلى سلطة في الكنيسة، وهذه هي المرَّة الأُولى الَّتي ألتقي فيها الرَّجل الثَّاني في الفاتيكان، فهل تسمح لي أَن أَطرح سؤالي؟

قال: تفضَّل.

قلت: لِمَن أُرسل المسيح؟

قال: يا دكتور، تقول إِنَّك تحمل شهادة في (الحقوق الكنسيَّة)، وأَوَّل شروط الحصول على هذه الشَّهادة أَن يكون حاملها متعمِّقاً بدراسة الإِنجيل، فكيف تسأَل مثل هذا السُّؤال، وفي الإِنجيل الجواب الصريح والواضح الَّذي يقفز في العيون؟

قلت: قول المسيح: «إِنَّما أُرسلت لخراف بني إسرائيل الضَّالَّة»، إِشكالي هو هذا، وهي تعني أنَّ مهمَّة السَّيِّد المسيح كانت محصورة بالتَّبشير بين اليهود، فما معنى أَنَّكم ترسلون المنصِّرين إلى المسلمين، ولا ترسلون مُنَصِّراً واحداً إلى اليهود؟

وأَضفتُ - والكلام للدكتور الدَّواليبي - : إِنَّ اليهود يتَّهمون السَّيِّد المسيح بأَنَّه ابن زنى، وأنَّ السَّيدة العذراء زانية، ويؤكِّدون ذلك، وإِنَّهم بالنِّسبة للمُعْتَقَد، يؤكِّدون بأَنَّه لا ولادة من غير زواج! إِلاَّ الإِسلام، طهَّرها ودافع عن المسيح، وإِنَّها عذراء، وبمعجزة ولدت، وإِنَّ المسيح ابن صحيح وليس ابن زنى، فكيف يقول المسيح: «إِنَّما أُرسلت لخراف بني إسرائيل الضَّالة»، أَي لليهود، فكان يجب أن يُرْسَل المُنَصِّرون إلى اليهود، وليس إلى المسلمين.

ردَّ الكاردينال بيمونوللي: غداً سوف أُجيبك.

وفي اليوم التَّالي أُعلن قرار مجمع الفاتيكان الثَّاني، أَنَّ الفاتيكان قرَّر وقف التنصير المسيحي الكاثوليكي في العالم الإسلامي، وكان ذلك في يوم وداعنا لهم، وعودتنا إلى الرِّياض.

وأمر البابا الكنائس كلَّها ألا تتكلَّم على الإسلام إلاَّ من مصادره المعتمدة عند المسلمين أنفسهم.

وبعد

فهذا مجمل ما ذكره الدكتور الدَّواليبي في مقابلته، ولتمام الفائدة نذكر أنَّ الوفد الَّذي كان برئاسة أَمين رابطة العالم الإسلامي آنذاك الشَّيخ محمد علي الحركان، ضمَّ أيضاً مع الدكتور الدَّواليبي، الدُّكتور منير العجلاني، ومحمد المبارك، ومصطفى الزَّرقا.

وبعد مقابلة الوفد للبابا بولس السَّادس، نصحهم ألا يغادروا مقرَّ البابويَّة، لوجود مظاهرة يساريَّة (شيوعيَّة) حاشدة وعنيفة في شوارع رومة، فقالوا له: لقد حانت صلاة المغرب، فقال البابا لهم: ألا يُصلَّى هنا؟! فصلَّوا في مكتب البابا، والبابا ينظر إليهم، والدكتور مازن المبارك في محفوظاته صورة للوفد وهو يصلِّي، والبابا ظاهر فيها.

ومما يذكر أيضاً، أنَّ هذا الوفد، قدَّم خمس ندوات حملت كلُّها عنوان: (حول الشَّريعة الإسلاميَّة وحقوق الإنسان في الإسلام)، اختلف مضمونها حسب المحاضر، طبعتها بالعربيَّة الأمانة العامَّة لرابطة العالم الإسلامي بمكَّة المكرَّمة، وكانت حسب تسلسلها الزَّمني:

١- في باريس في ٧ شوَّال ١٣٩٤هـ / ٢٣ تشرين الأَوَّل (أكتوبر) ١٩٧٤م.

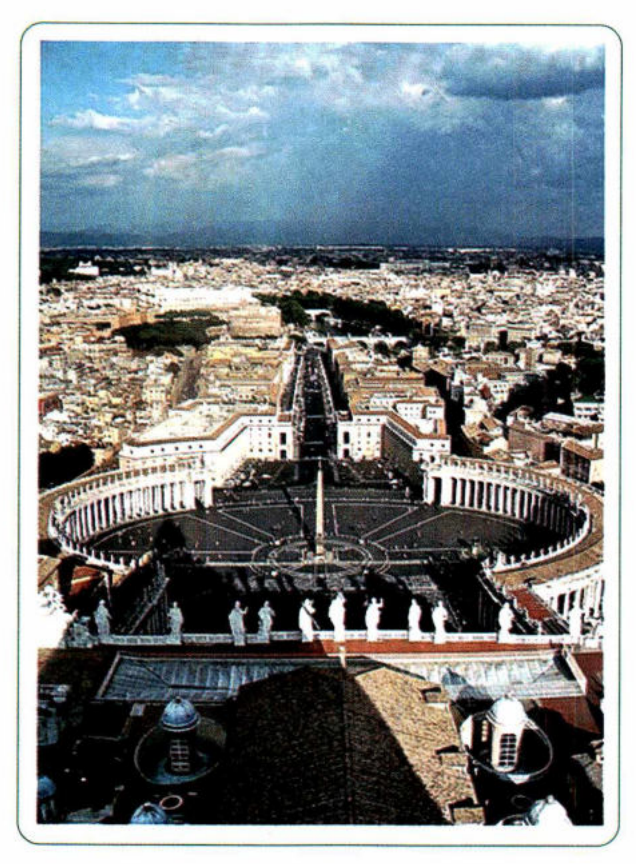
٢- في الفاتيكان في ٩ شوَّال ١٣٩٤هـ / ٢٥ تشرين الأَوَّل (أكتوبر) ١٩٧٤م.

٣- في مجلس الكنائس العالمي في جنيف في ١٣ شوَّال ١٣٩٤هـ / ٢٩ تشرين الأَوَّل (أكتوبر) ١٩٧٤م.

٤- في باريس - ثانية - في ١٧ شوَّال ١٣٩٤هـ / ٢ تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٩٧٤م.

٥- في المجلس الأُوربِّي في استراسبورغ في ١٩ شوَّال ١٣٩٤هـ / ٤ تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٩٧٤م.

وبوفاة البابا بولس السَّادس عام ١٩٧٨م، طُوِيت صفحة الحوار هذه.



رومة (الفاتيكان)

لَا يَا (قَدَاسَةَ) البابا

تمهيد

بسم الله، والحمد لله، وبعد...

فألقى قداسة البابا بندكتُس السَّادس عشر محاضرة في جنوب ألمانية، يوم الثُّلاثاء ١٢/٩/٢٠٠٦م، بجامعة ريغينسبورغ، هاجم بها الإسلام ونبيَّه بالاسم، وأهم ما جاء فيها:

- انتشر الإسلام بالسَّيف، وهو دين عنف.
- وما جاء به محمَّد لا يتقبَّله العقل، مستشهداً بنصٍّ قديم لإمبراطور بيزنطي (مانويل الثَّاني): لم يأت محمَّد إلَّا بما هو سيئ.

أَوَّلاً: أقول: من حقِّنا الرَّدُّ ما دام هناك هجوم وافتراء، تناول أقدس ما نعتقد، ديناً ونبيّاً:

ولكن نردُّ ردّاً حضارياً علميّاً، حجَّة تتلوها حجَّة، ونُدِينُ إحراقَ الكنائس، لأن الإسلام الذي هاجمه (قداسة) البابا لا يسمح بذلك.

ثانياً: حينما يستشهد محاضر بنصٍّ، يستشهد به إما لتأييد رأيه والبرهنة على سلامة فكره، وصواب ما يطرح، وإمَّا لنقض النصِّ وتفنيده، وإثبات زيفه، وهذا ما لم يقم به (قداسة) البابا، إذن يحسب عليه مادام لم يعلِّق.

وليته قدَّم أمثلة وشواهد تثبت ما قاله، فالاتهام يسير جدّاً، كلمات تُقَال، ولكن البرهنة على الادعاء والاتهام أمر مطلوب علميّاً، فالادعاء يحتاج إلى دليل.

فالآراء الَّتي قدَّمها (قداسة) البابا جهل نربأ به عن عاميٍّ، فكيف (بقداسته) وهو يشغل مكانة رفيعة؟!

ولماذا لم يستشهد بنصوص أُخرى وثَّقت سماحة المسلمين الفاتحين، وعدالتهم وإنسانيتهم، وإصرارهم على الحرِّيَّة الدِّينيَّة لكلّ الشُّعوب، جمعها السِّيرتوماس آرنولد في كتابه (الدَّعوة إلى الإسلام)؟.

وقبل تفنيد ما قاله (قداسة) البابا أذكِّره بقول الدكتورة آنَّا ماري شِمِل، زعيمة الاستشراق في بلده ألمانية: «الإسلام مثلٌ نمطيٌّ لتلك التَّأويلات الظَّالمة المشوِّهة»، (الإسلام كبديل، لمراد هوفمان، المقدِّمة).

وروجيه غارودي قال بدمشق حرفيّاً: «لم يدرس الغربُ الإسلامَ دراسة صحيحة، حتَّى في الجامعات الغربيَّة، وربما كان هذا مقصوداً مع الأسف».

وأقول: إنَّ أسفك - يا (قداسة) البابا - على ردود الفعل التي حدثت في العالم الإسلامي، في موعظتك يوم الأحد ١٧/ ٩/ ٢٠٠٦م، لا يعني الاعتذار المطلوب، فالاعتذار يكون عمَّا قلته خطأً وافتراءً.

ووصمك النّاس أنَّهم أساؤوا فهم ما قلته، خطأ آخر يتَّهم الناس بسوء الفهم والجهل، خصوصاً أنَّ ماضيك لا يشفع لك، إنَّه يؤيِّد معاداتك للإسلام بتصريحات معروفة عن تركية والسُّوق الأُوربيَّة، ودعوتك عند تنصيبك للحوار مع اليهوديَّة، واليهود في العالم لا يزيدون على عشرين مليون نسمة، متجاهلاً الحوار مع مليار وخمس مئة مليون مسلم!

فرعبك من (اللّاساميَّة) جعلك تطالب بفتح باب الحوار مع اليهوديَّة، وتغلقه مع الإسلام، بل وتهاجمه. وتهاجم نبيّه بالاسم، خصوصاً بعد الحرب الصَّليبيَّة التي أعلنها بوش الابن، واتِّهامه المسلمين بالفاشية.

وليتك قرأت يا قداسة البابا مرَّة واحدة وصيَّة أبي بكر الصِّدِّيق لجيش أُسامة بن زيد، التي جاء فيها: «لا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه،

ولا تقطعوا شجرة مثمرة.. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..» (الطبري ٣/ ٢٢٦، الكامل في التَّاريخ ٢/ ٢٢٧).

وليتك قرأتَ العهدة العمريَّة مرة واحدة، ونصُّها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء [القدس] من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها، أنَّه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهْدَم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يُضَارَّ أحدٌ منهم.. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمَّة رسوله، وذمَّة الخلفاء، وذمَّة المسلمين» (الطَّبري ٣/ ٦٠٩، اليعقوبي ٢/ ١٦٧).

والحقوق العامَّة لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي من أهمِّها: حفظ النفس، فدم غير المسلم كدم المسلم، فالقانون الجنائي سوّى بينهما، مع حفظ الأعراض، جاء في (الدُّر المختار ٣/ ٢٧٣): «ويضمن المسلم قيمة خمره - خمر غير المسلم - وخنزيره إذا أتلفه»، ويقضي المسيحي في الأمور الشخصيَّة بحسب قانونه الشَّخصي، مع كامل حريَّة إقامة شعائره الدِّينية في كُنُسِهِ.. إلخ.

لذلك يا (قداسة) البابا اعْكِسْ تُصِبْ.

وإليك الدليل والتَّوثيق من كتبكم ومصادركم ومؤتمراتكم.

انتشر الإسلام بالسَّيف

اعْكِسْ تُصِبْ يا (قداسة) البابا، فالفتوح شيء، وانتشار الإسلام شيء آخر، ولو فرض الإسلام بالسَّيف، لارتدَّت الشُّعوب بعد الانحسار العسكري عنها.

الإسقاط Projection عمليَّة نفسيَّة نخلع بها تصوُّراتنا ورغائبنا وعواطفنا، وما بنا من عارٍ ونقصٍ على الآخرين.

«رمتني بدائها وانسلَّت» وهاكم الدَّليل:

جاء في إنجيل متّى ١٠/ ٢٣٤ على لسان السيِّد المسيح: «لا تظنُّوا أنِّي جئت لأُلقي سلاماً على الأرض، ما جئت لأُلقي سلاماً بل سيفاً».

وفي إنجيل لوقا ٢٢/ ٣٧ يقول السَّيِّد المسيح: «ومن ليس له سيفٌ فليبع ثوبه ويشترِ سيفاً».

وفي العهد القديم الَّذي تؤمن به: «فضرباً تضرب سكَّان تلك المدينة بحدِّ السَّيف وتحرقها بكلِّ ما فيها مع بهائمها بحد السيف» (التثنية ١٣/ ١٦)، وفي (التثنية ٢٠/ ٧٠) أيضاً: «وأمَّا من هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرَّبُّ إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما» وفي (يشوع ٦/ ٢٢) قتل كل من في المدينة «من رجل وامرأة، من طفل وشيخ حتَّى البقر والغنم والحمير بحد السَّيف» وفي (إشعياء ١٣/ ١٦): «وكلٌّ من انحاش يسقط بالسَّيف وتحطَّم أطفالهم أمام عيونهم، وتُنهب بيوتهم وتُفضح نساؤهم».

وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧] و﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠]، وهذه النُّصوص تفسِّر لنا سبب نشوء حضارة سامقة أينما وصل الفتح الإسلامي، حيث الرَّفاه للجميع، وفتح المدارس والجامعات والمشافي، كما في الأندلس، وحوض النِّيجر، وما وراء النهر، وما وصل التَّنصير المرافق للاستعمار المسمَّى (الكشوف الجغرافية) إلا وانتشر به أعداء البشرية: الفقر والجهل والمرض، والهند ومصر وغرب إفريقية، وأمريكة اللَّاتينيَّة خير شاهد.

ثيودوسيوس الأوَّل، الإمبراطور الرُّوماني ٣٧٩-٣٩٥م أمر بتحطيم المعابد الوثنية، وحرَّم إقامة الشعائر القديمة.

شارلمان حارب السَّكسون ثلاثاً وثلاثين سنة بغاية العنف، وذروة

الوحشيَّة، حتّى أخضعهم وحوَّلهم قسراً بالسيف إلى الديانة المسيحية على يد (القديس) ليودجر Liudger وويليهاد Willehad .

ونشر الملك كنوت Cnut المسيحية في الدِّنمارك بالقوة والإرهاب.

وفُرِضت المسيحية في روسية على يد جماعة اسمها: (إخوان السَّيف) Brehters of the Sword (الدعوة إلى الإسلام للسِّير توماس آرنولد ص٣٠).

وعلى يد فلاديمير دوق كييف (٩٨٥-١٠١٥م)، الذي يضرب به المثل في الوحشيَّة والعنف والشَّهوانيَّة.. والذي عُرفَ بحمقه وطيشه أيضاً، تم تعميد أهل دوقية روسية كلِّهم مرَّة واحدة في مياه نهر الدنيبر (تاريخ أوربة في العصور الوسطى، فيشر، ص٤٠٧).

وفي النروج، أمر الملك أُولاف ترايجفيسون بذبح الذين أبوا الدُّخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم.

أما في أمريكة، فقد حلَّت حرب الإبادة - باسم الكنيسة - ضد الهنود الحمر، وقضي فعلاً على حضارة الأنتيل، والمايا، والآزتيك، والأنكا، ونحيل (قداسة) البابا إلى كتاب (فتح أمريكة - مسألة الآخر - لغرفيتان تودوروف) ليعلم أن ثمانين مليون هندي أحمر حصدتهم البندقيَّة الأُوربيَّة باسم الكنيسة، ولقد نشرت مجلَّة Cuba International في عدد تموز سنة ١٩٧٢م تحت عنوان La History، وفي الصَّفحة ٦ صورةً لمبشِّر بيده صليب، وزعيم هندي أحمر اسمه هايتهاي مقيَّد إلى سارية، وقد غُطي حتَّى منتصفه بِحِزَم الحطب والقشِّ لحرقه، أما المبشِّر فرافع الصَّليب في وجهه يدعوه إلى المسيحية قبل إحراقه، ليدخل الجنَّة، فسأله الزعيم الهندي: وهل في الجنَّة إسبانيون مثلك؟ فأجابه الراهب: طبعاً، فما كان من الزعيم الهندي إلا قال: إذن، أنا لا أُريد أن أذهب إلى مكان أُصادف فيه أبناء هذه الأُمَّة المتوحِّشة!!

وهذا ما جرى أيضاً في أُسترالية حيث سحق شعب (الأبورجيين).



حرق الزَّعيم الهندي، والكاهن يباركه ليدخل ملكوت السَّماء

وفي عام ١٤٥٥م صدر مرسوم بابوي يقرِّر سيادة النَّصارى على الكفار[١]، وأقرَّ هذا المرسوم استرقاق الزُّنوج في إفريقية والهنود الحمر في أمريكة، وبهذه النَّظرة، نظرة السَّيِّد للعبد، جرى قنص الأفارقة باسم المسيح، وتم نقلهم وبيعهم في أوربة وأمريكة، وعلى الرّغم من تعميدهم

(١) في كتاب (التَّوسُّع الأُوربي في العالم لـ (بييررونوفن): بحث: التَّوسُّع الدِّيني الأوربِّي (التَّبشير الدِّيني ١٨٣-١٢١٠)، ومما جاء فيه ١٨٦ و١٨٧: تقسم الكنيسة العالم إلى بلاد (الحق العام)، و(بلاد البعثات) أو الإرساليَّات، أمَّا بلاد الحق العام فهي منظمة بشكل أُسقفيَّات، أبرشيَّات، وخاضعة للنِّظام العادي للكنيسة، أي إلى مراقبة الإدارة البابويَّة، وبلاد الإرساليات هي المناطق التي لا يوجد فيها بعد إدارة كنسيَّة مؤسَّسة بانتظام (١٨٦ و١٨٧)، وهي التي صدر مرسوم بابوي عام ١٤٥٥م باسترقاقها!!

وإدخالهم في المسيحية غصباً وإكراهاً، فإن عبوديتهم ظلَّت قائمة (الاستعمار والتنصير في إفريقية السَّوداء ص٤٩).

عشرات الملايين من الأفارقة قتلوا أثناء اصطيادهم، وملايين ماتوا في البواخر لتغيُّر المناخ وسوء التغذية، وأوَّل حملة إنكليزيَّة نقلت الألوف من الرقيق من غينية إلى المستعمرات الإسبانيَّة، كانت في سنة **١٥٦٢م**، برئاسة النخَّاس الشهير (جون هوكنز)، وذلك أيّام الملكة إليزبيت الأولى ملكة إنكلترة، وحامية حمى المسيحيين، ومن السُّفن التي استعملها هذا النَّخَّاس لنقل الرقيق ثلاث، اسم إحداها (سليمان)، والثانية (يسوع)، والثَّالثة (يوحنا المعمدان)، وفي تلك إشارة إلى أنَّ عملهم إذ ذاك عمل مبرور، (الهلال والصَّليب، ص١٣٨).

قال الدكتور فرانزغريس في كتابه (تبدُّد أوهام قسيس)، الذي طبع في بوينس آيرس (مطبعة دار الطباعة - الضِّياء): «إنَّ تاريخ الأمم النصرانيَّة، وأكثر من هذا تاريخ الكنيسة بالذَّات، مضرج بالدِّماء وملطَّخ، ولربَّما أكثر تضرُّجاً ووحشيّة من أيّ شعب وثني آخر في العالم القديم».

وأُذكر (قداسة) البابا بملحمة (سان بارتلمي) التي ذكرها غوستاف لوبون في كتابه (روح الثورات ص٤٤): مذبحة أمر بها سنة **١٥٧٢م** شارل التَّاسع، وكاترينا دوميديسيس، حينما قتلت كاترينا خمسةً من زعماء البروتستانت في باريس، ظنَّت أنهم يأتمرون بها وبالملك، ولم يكد ينتشر الخبر في باريس، حتى شاع أنه شُرِع في قتل الخوارج - أي البروتستانت الذين خرجوا عن سلطة البابا الكاثوليكي - فانقضَّ أشراف الكاثوليك والحرس الملكي والنَّبَّالة والجمهور على البروتستانت، وقتلوا منهم ألفي نسمة، وقد قلَّد سكان الولايات الفرنسيَّة بعامل العدوى أهل باريس، فسفكوا دماء ستَّة إلى ثمانية آلاف نسمة.

ولم تنل حادثة السَّان بارتلمي أيَّام وقوعها شيئاً من الانتقاد في أُوربة الكاثوليكيَّة، وقد أوجبت حماساً يفوق الوصف، فكاد فيليب الثاني يصبح مجنوناً لشدة فرحة يوم بلغه وقوعها، وانهالت التَّهاني على ملك فرنسة أكثر من انهيالها عليه لو نال نصراً عظيماً في ساحة الوغى.

وما بدا السُّرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثالث عشر، فقد أمر بضرب أوسمة خاصَّة تخليداً لذكراها، رُسِمَت على هذه الأوسمة صورةُ غريغوار الثالث عشر، وبجانبه ملك يضرب بالسيف أعناق الخوارج، ثم هذه العبارة: «قُتِلَ الخوارج»، كما أمر بإيقاد نيران الفرح، وبضرب المدافع، وبتكليف الرسام فازاري أن يصوِّر على جدران الفاتيكان مناظرها.

ولن أتوسَّع هنا فأتحدث عن عطش أُوربة إلى الذَّهب، حيث أبحرت السُّفن الأوربيَّة تحمل إلى الشُّعوب الإفريقية والآسيوية والأمريكيَّة جماعة من الرُّهبان يبشِّرون بالعهد الجديد، ويعودون منها بكنوزها من الذَّهب والفضَّة والعاج والتَّوابل، وأمعن البابا مارتن الخامس في الكرم والسَّخاء، فأحلَّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في تلك المغامرات (في طلب التوابل، سونيا ي.هاو، ص١٠٦)، معطياً الاستعمار طابع الحروب الصليبية الصريح.

فأيُّ دين انتشر بالسيف يا (قداسة) البابا؟

ما آثار الفتح الإسلامي، وما آثار الاستعمار الغربي حيثما حلَّ وإلى يومنا هذا؟

اعكس تصب يا (قداسة) البابا، وتذكر أنه في عام ١٩٩٢م، وبمناسبة مرور ٥٠٠ عام على اكتشاف أمريكة واستعمارها، زار سلفُكَ البابا جنوبها، فقوبل بمظاهرات دامية مندِّدة، وبتحطيم تماثيل قادة المستكشفين والقديسين، فلماذا؟

ما جاء به محمَّد لا يتقبَّله العقل!

يا (قداسة) البابا..

مؤتمر كولورادو التَّبشيري، الّذي انعقد في ١٥ تشرين الأوَّل (أُكتوبر) ١٩٧٨م، تحت شعار (مؤتمر أمريكة الشماليَّة لتنصير المسلمين)، ممَّا قال المؤتمرون:

- الحقائق العلميَّة صدمت المعتقد المسيحي.
- الإسلام هو أكثر النُّظم الدِّينيَّة المتناسقة اجتماعيّاً وسياسياً، مع البساطة والوضوح.
- وتساءل بعض المؤتمرين: كيف يمكن للعقل السَّليم أن يفهم الأقانيم الثَّلاثة واحداً في ثلاثة، والثلاثة في واحد؟

البابا يوحنا بولس الثاني، طالب الولايات المتحدة الأمريكيَّة بمنشور أصدره أواخر سنة ١٩٩٠م بدعم مالي كي يضاعف التبشير جهوده «فالإسلام هو الدِّين الوحيد الذي يتحدَّى انتشار المسيحية، وهناك تزايد في الإقبال على الإسلام، وانحسار في المناطق المسيحيَّة في الشَّرق الأدنى وإفريقية، وهناك جسور للإسلام تتزايد في جنوبي أُوربة»[1].

فهل تساءلتم يا (قداسة) البابا، عن سبب إقبال النَّاس على الإسلام، وسبب انحسار المسيحيَّة في عصر التَّقدم العلمي ومخاطبة العقل؟

المكتبة المنطقيَّة في باريس (شارع فوجيرارد رقم ٦/٤١)، نشرت عدداً من الكتب الجليلة الفائدة العلميَّة، في أحد هذه الكتب المسمَّى: (مشكلة يسوع والمصادر النَّصرانية) لقس كاثوليكي، كان أُستاذ تاريخ الأديان في جامعة استراسبورغ، أعلن الفاتيكان حرمانه بتاريخ ٢ تموز ١٩٣٣م، لأنه شكَّ وارتاب في كتابات الفاتيكان عن ألوهيَّة المسيح، وعن وجوده أيضاً.

(١) The new york Times International, Wendesclay, jenuary 12, 1991.

وهناك رأي هام في (دائرة المعارف الفرنسيّة ٥/ ١١٧) خلاصته: أنَّ المصادر المسيحيّة كلّها من عمل شاؤول (بولس)، أو من عمل أتباعه، وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماء مستعارة غير حقيقيّة.

وفي (العقائد الوثنيّة في الديانة النصرانيّة) للمرحوم محمد طاهر التَّنير، يكفينا مثال واحد، من أصل ستة وأربعين تطابقاً بين النُّصوص الهنديّة الوثنيَّة والأناجيل:

كرشنا هو المخلص، والفادي، والمغزِّي، والرَّاعي الصالح، والوسيط، وابن الله، والأُقنوم الثاني من الثّالوث المقدس، وهو الأب والابن والرُّوح القدس.. إلخ.

ويسوع المسيح هو المخلِّص، والفادي، والمغزِّي، والرَّاعي الصالح، والوسيط، وابن الله، والأُقنوم الثاني من الثّالوث المقدس، وهو الأب والابن والرُّوح القدس.. إلخ.

الأناجيل الأربعة المعتمدة من أصل أكثر من مئة إنجيل تمَّ تغييبها في مستودعات الفاتيكان لم يُمْلِها المسيح، ولم تتنزَّل عليه بوحي، ولكن كتبت من بعده، أوَّلها متَّى كتبها بعد ٥٠م، لأنّه مات في الحبشة سنة ٧٠م، وإنجيل يوحنا في دائرة المعارف البريطانيّة اشترك في تأليفه عشرات، ولا مرية ولاشك أنه كتاب مزوّر.

وليس في هذه الأناجيل الأربعة المعتمدة عبارة واحدة على لسان السيِّد المسيح تقول أنا الله اعبدوني، وهنا يتساءل بعضهم: إذا كان عيسى بشراً فلم تعبدونه؟ وإذا كان إلهاً ففيم البكاء على آلامه؟

ونشرت مجلَّة (المجلة) في عددها ٧١٢، تاريخ ٣-٩/ ١٠/ ١٩٩٣م، ص٥٦، تحت عنوان: العثور على أناجيل كانت غير معروفة من قبل، الرواية القبطيّة تقول: إن المسيح لم يصلب، وإنّما صُلِبَ شبيه له، والأناجيل الجديدة تغيّر تاريخ السنوات الأولى.

عُثِرَ على هذه الأناجيل في نجع حمادي بصعيد مصر عام ١٩٤٥م، وترجمت اليونسكو النصوص عام ١٩٧٥م، ومما جاء بها حرفياً: يقول المخلص: إن الذي رأيته سعيداً يضحك هو يسوع الحي، لكن من يدخلُون المسامير في يديه وقدميه، فهو البديل، فقد وضعوا العار على الشَّبيه، انظر إليه وانظر إليَّ.

العقل مغيّب في المسيحية، والدليل:

دع عقلك وأقبل، دع عقلك واتبعني، أطع وأنت أعمى، آمن بهذا وإلا هلكت، الجهل رأس العبادة، والقذارة من الإيمان.. إلخ.

«لا تقل في قلبك كيف يمكن أن يتجسَّد الله ويصير إنساناً، فدع ذلك لأنّه من شأنه الخاص»، (أُسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، أشرف على التحرير البروفيسور جون هِك، أُستاذ اللاهوت جامعة برمنجهام ص٩٠).

القس وهيب عطا الله يقول: إنَّ التجسُّد قضيَّة فيها تناقض مع العقل والمنطق والحسِّ والمادة والمصطلحات الفلسفية، ولكننا نصدق ونؤمن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن مقبولاً (مقارنة الأديان - المسيحيَّة).

محاكم التفتيش من أصدر مرسومها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤٧٨م، والتي هي لطخة عار في وجه الكنيسة لا تمحى؟

لقد شُكِّلت بمرسوم بابوي في إسبانية، ثم عمَّت أُوربة كلَّها، أصدرها البابا سيكستُس الرَّابع (١٤٧١-١٤٨٤م)، ولقد حكمت في مدة ثماني عشرة سنة، من سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء، فأُحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمان مئة وستين بالشَّنق بعد التَّشهير، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة بهم، فنفذت (الهلال والصليب ص٣٤).

حرية الفكر أصبحت جريمة يُعاقب عليها بمنتهى القسوة، وقصة جاليلو مع محاكم التفتيش مشهورة، قالت صحيفة الجارديان البريطانية في ٢٩/ ٦/ ١٩٨٣م: عقدت لجنة علميّة دينية في الفاتيكان برئاسة البابا جون بول الثاني لردّ اعتبار جاليلو، وتصحيح خطأ الكنيسة بشأنه، حينما قال: إنّ الأرض هي التي تدور حول الشّمس على خلاف ما ذُكِرَ في العهدين القديم والجديد.

أما تذكر يا(قداسة) البابا أن الكنيسة أحرقت مكتبة الإسكندرية بحجّة محاربة العلم القديم، الذي سمّوه آنذاك بالعلم الوثني؟

أما استصدرت الكنيسة حكماً بطرد من يتكلّم بالفلسفة، ويتحدث بآراء ابن رشد، مثل سيفر البابسوني الذي قُتِل في جامعة باريس، لأنه تحدّث عن ابن رشد؟

ومن رسم خريطة للجنّة والنّار، وباع صكوك الغفران؟

ففي الوقت الذي شهدت به أُوربة صراعاً بين العلم والدِّين برعاية الكنيسة، كان العالِمُ يتلقَّى وزن كتابه ذهباً، مكافأة لما أبدع، مع انتشار المكتبات العامّة والخاصة في كلِّ العالم الإسلامي.

أَنسي (قداسة) البابا - على سبيل المثال - فضل ابن خلدون في فلسفة الاجتماع وفلسفة التاريخ؟ أم نسي الشريف الإدريسي، وابن رشد، والرّازي، وابن سينا، وابن زُهر، وابن النفيس؟ أم تراه نسي جابر بن حيّان، وموسى بن شاكر وأولاده، وعبد الرحمن الخازن؟ أَنسي لوغارتمات الخوارزمي، وأبحاث الزُّرقالي التي اقتبس منها كوبرنيكس؟ أَنسي ابن الهيثم رائد علم البصريّات بلا منازع، وأبا المنهج العلمي؟

أَنسيت أُوربة كل هذا، في الوقت الذي كانت ترسم فيه المصورات لجهنم؟ وتمنع العلماء أن يقولوا بكرويَّة الأرض، فأيُّ عقيدة بحاجة إلى (عقلنة) الإسلام أم مسيحيّة شاؤول؟

مذنَّب هالي الذي ظهر سنة ١٦٨٢م، فاضطربت لظهوره أُوربة، لجؤوا إلى البابا إينوقنتيوس الحادي عشر، واستجاروا به، فأجارهم، وطرد المذنّب من الجوِّ، فولى في الفضاء مذعوراً من لعنة البابا، ولكنه عاد - ويعود - كلَّ ست وسبعين سنة.

فردريك نيتشه يقول عن رجال الكنيسة: «لا يخطئون فقط في كلِّ جملة يقولونها، بل يكذبون، أي إنهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة أو بسبب الجهل» (عدو المسيح، المقطع ٣٨).

لقد قرر المجلس الأدنى لمجمع كنتربوري بجلسة في شهر تموز (يوليو) عام ١٩١٧م، أنّ الكتاب المقدس ليس كلام الله صرفاً، ولكنه مشوب بالأقاصيص التي كانت تجري على ألسنة الناس، كما أن كثيراً من الحوادث الواردة فيه لا يقبلها العقل (ينابيع المسيحية ص٨٥).

شَهَاداتٌ مُنْصِفَةٌ

كلمة (قداسة) البابا تكتب وتختار نصوصها بدقة، وتُراجع مرَّات ومرَّات، لقد انتقى مقولة الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني، الَّذي كان يعيش ألم ومرارة فشل الحروب الصَّليبيَّة على شرقنا العربي المسلم، فما تراه يقول؟

لقد تخيَّر وانتقى ما يناسب ويطابق ما في فكره وقلبه، متناسياً ومغفلاً مئات الشَّهادات المنصفة، لكبار الفلاسفة والمفكِّرين والمؤرخين، لأنها لا تناسب ما في نفسه، وتجلّى الجهل واضحاً حينما قال ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ فكرة كانت في بدايات الدَّعوة، ولكن بعد الغزوات والحروب والانتصارات أُلغيت، مع أنّ هذه الآية الكريمة (مدنيَّة) نزلت بعد غزوة أُحد وبني النضير، فأيُّ جهل وافتراء نراه ونسمعه؟

(جان دوانبورت) البريطاني، كتابه (اعتذار لمحمد والقرآن)، اعتذر فيه

عن التَّصوُّرات والأحكام التي كانت شائعة في الغرب حول نبي الإسلام، والقرآن الكريم.

اللُّورد البريطاني (هِدْلي) يوضِّح: أن مدبّجي وناسجي هذه الافتراءات حول الإسلام ونبيِّه لم يتعلَّموا حتّى أوّل مبادئ دينهم المسيحي، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروفاً لديهم أنها محض كذب واختلاق (المثل الأعلى في الأنبياء - المقدِّمة).

واعتذر (تولستوي) من رسول الله الذي نال إكباره، فكان جزاؤه على كلمة الحقِّ أن حرمه البابا من رحمة الله، قال (تولستوي) عن رسول الله ﷺ: يكفيه فخراً أنَّه فتح طريق الرُّقي والتَّقدُّم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أُوتي قوّة وحكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال.

المؤرِّخ الإسباني (سانسيت أُولبورنوت) يشهد قائلاً: «إنَّ الفتح العربي الإسلامي لإسبانية جلب إليها كلَّ خير» (تاريخ الأندلس، د. أحمد بدر).

وقال الرَّاهب (ميشو) في كتابه (رحلة دينيّة في الشّرق ص١٦٢): «ومن المؤسف ألا تقتبس الشُّعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوّة».

(غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) قال منصفاً: «فالحقُّ أنَّ الأُمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»، وتمنّى لو انتصر المسلمون في بواتييه (بلاط الشهداء) لتنعم فرنسة بحضارة وعلوم كما نعمت إسبانية.

(فردريك نيتشه) الفيلسوف الألماني يقول عن فهم وبحث: «حارب الصَّليبيون شيئاً كان الأجدر بهم أن ينبطحوا بِذُلٍّ أمامه، حضارة يمكن لقرننا التّاسع عشر أن يعتقد أنه فقير جداً، ومتأخر جداً بالمقارنة معها»

(عدو المسيح، الفقرة ٦٠)، «إنَّ تاريخ الكنيسة يحمل صفحات حمراء دامية في أمريكة وإفريقية وآسية وأُوربة»، (عدو المسيح الفقرة ٣٦)، ويقول (نيتشه) عن المبشِّرين ورجال الكهنوت المسيحيِّين: «لا يخطئون فقط في كلِّ جملة يقولونها، بل يكذبون، أي إنهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة، وبسبب الجهل» (عدو المسيح، الفقرة ٣٨).

استجار يوحنا ملك إنكلترة بسلطان الموحِّدين في المغرب محمد النّاصر أن يحميهُ من البابا، قُبالة جزية سنوية، وأن يعتنق وشعبه الإسلام ديناً له، ولكن محمداً النّاصر رفض هذا العرض لأنّ أريحيّته أبت عليه استغلال الضائقة السياسية الإنكليزية لحملهم على اعتناق الإسلام، (المؤرخ الألماني يوسف أشباخ، في كتابه: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢/ ١٥٣).

مايكل هارت في كتابه (المئة الأوائل) في تاريخ البشرية، جعل محمداً ﷺ أولهم بلا منافس، فهل هذا التخيُّر عن علم وبحث، أم عن جهل وتحيُّز، وهو المسيحي الذي لم يُسْلِم؟

شاعر ألمانية الأوّل (غوته)، كان يحتفل بليلة القدر، لنزول القرآن الكريم فيها، وكان يقول علناً: إن كان الإسلام يعني الاستسلام لله، فكلنا نحيا ونموت على الإسلام.

شهادات منصفة من كبار المفكرين كثيرة، مثل: رينيه جينو الذي أسلم لاعتصامه بنصٍّ مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه القرآن الكريم، والدكتور غرينييه، وفانْسَان مونتيه، وكات استيفنس (يوسف إسلام مطرب القارتين)، وعبد الرشيد سكنر أستاذ علم النفس في جامعة برادفورد، صاحب كتاب (تكنولوجيا السُّلوك الإنساني) والدكتور مرادهوفمان سفير ألمانية السابق في المغرب، والدكتور موريس بوكاي صاحب كتاب دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة،

والدكتور روبرت كراين (فاروق عبد الحق) مستشار الرئيس الأمريكي نيكسون للشؤون الخارجيّة، ونائب مدير مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، القائل: الإسلام هو الحلُّ الوحيد، فهو الذي يحملُ العدالة في مقاصد الشريعة.

وأختم هذه النماذج بِـ(وُلْ دْيُورانت) صاحب (قصة الحضارة)، الذي درس الحضارات والعقائد في القارات الخمس، من قبل الميلاد إلى منتصف القرن العشرين، ثم قال: «وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا: إنَّ محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجيّة حرارةُ الجوِّ، وجدبُ الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أيُّ مصلح آخر في التاريخ كلّه» (قصة الحضارة ١٣/ ٤٧).

فهل هذه الآراء صادرة عن دراسة وبحث، أم عن جهل وسطحيّة يا (قداسة) البابا؟

خاتمة

رمتني بدائها وانسلّت

يا (قداسة) البابا... من عرف الحقّ عزَّ عليه أن يراه مهضوماً، فكيف بمن رأى الباطل يُسْقِطُ ما فيه من فضائح على الحقِّ ظلماً وحقداً وتعصُّباً، والباطل على علم ويقين بأنَّه يفتري ويكذِّب، ويصمُ الآخرين بما فيه؟

يا (قداسة) البابا... ها هو ذا الكتيّب بين أيديكم عن طريق سعادة السَّفير البابوي بدمشق، وقد اعتمدت فيه التَّوثيق، ومعظمه من كتبكم ومن مفكِّريكم، فإن كان لكم رأي يخالف ما ورد فيه، فيمكن التَّصويب من أجل الوصول إلى الحقيقة:

- أيُّ دين انتشر بالسَّيف والإكراه والقسوة والعنف والدِّماء؟
- وأيُّ دين جاء بالشَّرِّ ولا يتقبَّله العقل، واصطدم مع حقائق العلم وأحرق العلماء؟ علماً أنك يا (قداسة) البابا تؤمن بالعهد القديم (التّوراة) حيث الله يتعب وينام ويصارع ويتألم..! وأُذكِّركم:

أنّ البابا سلفستر الثّاني (٩٩٩-١٠٠٣م) الذي كان من علماء عصره، وترجم إلى اللَّاتينيَّة كتباً عربية كثيرة، تلقى علومه في الأندلس، في قرطبة وإشبيلية.

والبابا بولس السَّادس الذي تولَّى البابويّة عام ١٩٦٣م، ومات مسموماً عام ١٩٧٨م، أصدر وثيقة كانت بمنزلة اعتراف رسمي مسيحي بالدِّين الإسلامي، جاء فيها: «إنَّ كلّ من آمن بعد اليوم بالله خالق السَّماوات والأرض، وربِّ إبراهيم وموسى، فهو ناجٍ عند الله، وداخل في سلامه، وفي مقدِّمتهم: المسلمون»، وأوقف التَّبشير بالعالم الإسلامي، بعد أن اطلع على جزء مما جاء في لفائف البحر الميت (مغاور قمران)، حيث جاء في سفر إشعيا: «بعد المسيح، يأتي نبيٌّ عربيٌّ من بلاد فاران - بلاد إسماعيل، وفاران باللُّغة الآراميَّة هي بلاد الحجاز - وعلى اليهود أن يتَّبعوه، وعلامته أنَّه إن نجا من القتل، فإنَّه النبيُّ المنتظر، لأنَّه يفلت من السَّيف المسلول على رقبته، ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قدِّيس».

وأُذكِّر بالآية الكريمة الصَّريحة الواضحة، وهي جزء من عقيدة كلِّ مسلم:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨-٩].

فالإسلام يمدُّ يده لمصافحة أتباع الأديان الأُخرى لتحقيق التّعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وحفظ الدّماء أن تُسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك.

والإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه، أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، لأنّ حريّة الاعتقاد مصانة، هذه عقيدتنا، ونحن أحقُّ من مانويل الثاني بالتّعريف بها.

ولقد قام رسول الله ﷺ لجنازةٍ مرَّت أمامه، فقيل له: إنّه غير مسلم، فقال ﷺ: «أَوَليس نفساً؟»، (رواه البخاري في الجنائز ١٣١٢)، ويقول ﷺ: «أنا شهيد أنّ العباد كلّهم إخوة» (رواه ابن حنبل عن زيد بن أرقم).

يا (قداسة) البابا..

هذا ما يتناسب مع حجم هذا الكتيِّب، علماً أنني قدّمت ما أريد مفصلاً في كتبي:

الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشِّرين، وفي: الحوار أولاً وحوار مع مستشرق، وفي: الإسلام في قفص الاتّهام، وفي: التسامح في الإسلام المبدأ والتطبيق..

وهناك كثير من التساؤلات، منها: كلُّ مسيحي حاورته بالّتي هي أحسن، كان يقول: أسرار، رموز أمر الثّالوث الأقدس، فوق عقولنا، سرٌّ لا يمكن شرحه عقلاً، وأودُّ طرح السُّؤال التَّالي، الذي سألته لعشرات، ولدور نشر مختصة بالكتاب المقدَّس: إنَّ الإصحاحات الأُولى في الأناجيل تنتهي وعمر السيد المسيح ١٢ سنة، ليبدأ الإصحاح الثاني في كلِّ الأناجيل المعترف بها، وعمره ٣٠ سنة، فما بين سنة ١٢، وسنة ٣٠ لا يعرف أحد أين كان، وما هي سيرته، فالسِّنين الضَّائعة من حياة يسوع كيف نجيب عنها؟ وبماذا نفسِّرها، وهو الذي خُلق بمعجزة؟

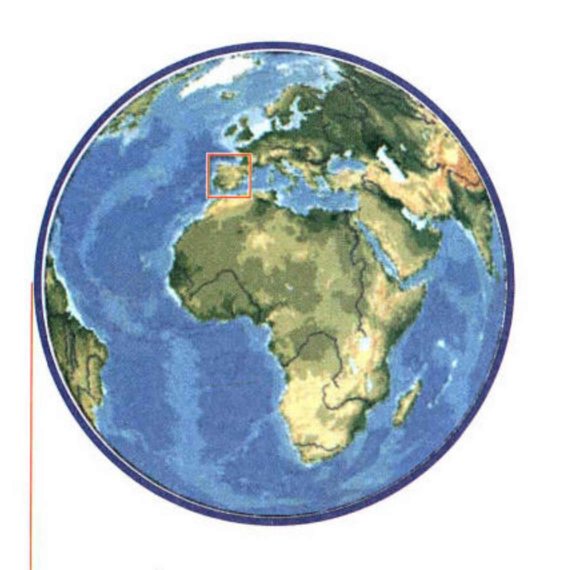
علماً أننا وإن لم نتلقَّ إجابة[١]، فإنَّ السَّيِّد المسيح يبقى عندنا من الأنبياء أُولي العزم، وأُمه طاهرة بتول صدِّيقة.

وأرجو ألَّا أُلام على ما قدَّمت، فاللّوم يقع على من بدأ الهجوم بلا علم، فخالف الحقيقة، وأسقط ما فيه، أو ما عنده علينا.



نزول كولومبوس في هايتي، لقد ارتكبت هذه الأعمال الوحشية باسم السيد المسيح، لاحظ رفع الصليب في الصورة، حيث كان يرفع في كل بقعة وصلها الإسبان أو البرتغاليون في أمريكة وإفريقية وآسية.

(١) ولم نتلقَّ إجابة حتى طباعة هذا الأطلس ٢٠١٠م، مع أنَّهم أعلموني أنَّ المطران (فلان) كلِّف بالرَّدِّ، وطالبت مكتبه بالرَّدِّ أكثر من مرَّة.



انتشار الإسلام بين مسيحيِّي إِسبانية

فتح المسلمون إِسبانية بقيادة طارق بن زياد سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، زمن الخليفة الأُموي الوليد بن عبد الملك، فكيف انتشر الإسلام في ربوعها؟.

رحَّب بالمسلمين الفاتحين الأرقَّاءُ الَّذين حلَّ بهم البؤس والشَّقاء في عهد المسيحيِّين الكاثوليك، الَّذين كانت معرفتهم بأُصول المسيحيَّة

سطحيَّة، إذا ما وزنت بذلك التَّسامح الدِّيني، وهذه المزايا الَّتي حصلوا عليها؛ بإلقاء زمامهم للمسلمين.

كما اعتنق هذا الدِّين الجديد كثير من أشراف المسيحيِّين عن عقيدة راسخة، يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالي الطَّبقات الدُّنيا والوسطى؛ الَّذين تديَّنوا بالإسلام عن إيمان ثابت، متحوِّلين إليه من ديانتهم القديمة، الَّتي أهمل رجالها مصالحهم، ولم يحفلوا بتلقِّيهم أصولها[1].

«أمَّا عن حمل النَّاس على الدُّخول في الإسلام، أو اضطهادهم بأيَّة وسيلة من وسائل الاضطهاد، في الأيَّام الأولى الَّتي أعقبت الفتح العربي، فإنَّنا لا نسمع عن ذلك شيئاً، وفي الحقِّ إنَّ سياسة التَّسامح الدِّيني الَّتي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الدِّيانة المسيحيَّة، كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد، وإنَّ الشَّكوى الوحيدة الَّتي شكا منها المسيحيُّون هي معاملة حكامهم الجدد لهم معاملة تختلف عن معاملة رعاياهم من غير المسيحيِّين، ذلك لأنَّه قد فُرِض عليهم أداء جزية الرُّؤوس المعتادة، وهي ثمانية وأربعون درهماً على الأغنياء، وأربعة وعشرون من أهل الطَّبقة الوسطى، واثنا عشر درهماً عن العمال، لإعفائهم من الخدمة العسكريَّة، على أنَّ هذه الجزية لم تُفْرض إلَّا على القادرين من الرِّجال، على حين أُعفي منها النِّساء والأطفال والرُّهبان والمقعدون والعميان والمرضى والمساكين والأرقَّاء، هذا إلى أنَّ جمع هذه الضَّرائب قد قام به الموظَّفون المسيحيُّون أنفسهم، ممَّا خفَّف وطأتها على النَّاس»[2].

وبقي «ترنيم المزامير، وإلقاء المواعظ، والاحتفال بالأعياد المسيحيَّة على النَّحو الَّذي كانوا يحتفلون به قبل الفتح.. وبنوا أديرة جديدة بالإضافة إلى الأديار الكثيرة المزدهرة»[3].

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص١٥٥.
(٢) المرجع السَّابق، ص١٥٧.
(٣) المرجع السَّابق، ص١٥٨.

وبالاحتكاك والتَّأثُّر في الآراء، وإِقامة الشَّعائر الإِسلاميَّة، تحوَّل المسيحيُّون - بالتَّقارب والاتِّصال - إلى الإسلام، وشكَّلوا ما عُرِفَ بالمولَّدين، وهم المسلمون من دم غير عربي، أَلَّفوا جماعة كبيرة لها أهمِّيتها، وأصبحت بلا شك أغلبيَّة سكان البلاد، واستمر تحوُّل الإِسبان حتَّى أواخر أيَّام الحكم الإِسلامي[1].

سحرهم الإِسلام بهذه المدنيَّة الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشِعْره وفلسفته وفنِّه الَّذي استولى على عقولهم، وبهر خيالهم، كما وجدوا في الفروسيَّة العربيَّة الرَّفيعة مجالاً فسيحاً لإِظهار بأسهم، وما تكشَّفت عنه هذه الفروسيَّة من قصد نبيل، وخُلُق كريم.

وإِنَّ علوم المسيحيِّين وآدابهم لا بدَّ أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم الَّتي لا يبعد أن تكون دراستها في حدِّ ذاتها باعثاً على الدُّخول في دينهم[2].

ظهرت جماعة من القسِّيسين والرُّهبان، ساءها إِقبال الإِسبان على اعتناق الإِسلام، ولم تمتلك حججاً وعلوماً وقدرة على إِيقاف هذا المد الإِسلامي، وبانفعال نفساني غريب، واستخفاف بحريَّة اعتناق المبدأ بعد القناعة به، شتم بعضهم الإسلام ونبيَّه، لينالوا (الشَّهادة في عُرْفهم)، وكان ذلك بين سنتي **٨٥٠** و**٨٦٠**م، كان عددهم محدوداً، وبحوادث معدودة، وبعد عام **٨٩٣**م لم تقع أَيَّة حادثة مدَّة الحكم العربي في إِسبانية[3].

مسلم أقصي من بلاده عام **١٦١٠**م محتجّاً على اضطهادات محاكم التَّفتيش، أَثبت مدى التَّسامح الدِّيني الَّذي سار عليه المسلمون، حيث

---

(١) المرجع السَّابق، ص١٦٣.
(٢) المرجع السَّابق، ص١٦٤.
(٣) المرجع السَّابق، ص١٦٥.

قال: «هل حاول أسلافنا المنتصرون ولو مرَّة واحدة أن يستأصلوا المسيحيَّة في إسبانية، حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك؟ ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتَّعوا بحرِّيَّة استعمال رسومهم الدِّينيَّة في الوقت نفسه الَّذي لبسوا فيه طيالسهم؟ ألم يوصِ نبيُّنا بأن تترك الحرِّيَّة الدِّينيَّة لأهالي البلاد الَّتي يفتحها العرب بحدِّ السَّيف مهما بلغت آراؤهم الدِّينيَّة من حمق وخرق؟ بل ألم يسمح لهم بالتَّديُّن بأيِّ دين آخر يؤثرونه على دينهم، إذا دفعوا مقداراً معتدلاً من الجزية في كلِّ سنة؟»[1].

بذور عميقة ألقاها الإسلام في قلوب أهالي بلاد الأندلس، يمكن الحكم عن عمقها من هذه الحقيقة، وهي أنَّه لمَّا طُرِد آخر بقايا المسلمين من هذه البلاد سنة ١٦١٠م، كان هؤلاء الأهالي المساكين لا يزالون يتمسَّكون بدين آبائهم، مع أنَّهم أرغموا على إظهار دينهم بالمسيحيَّة أكثر من قرن[2].

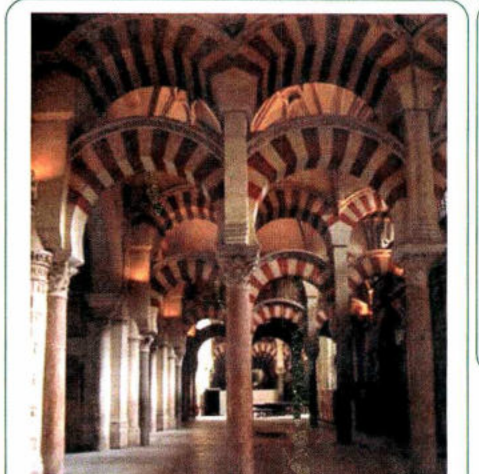


غرناطة

(١) المرجع السَّابق، ص١٦٧.
(٢) المرجع السَّابق، ص١٦٨.



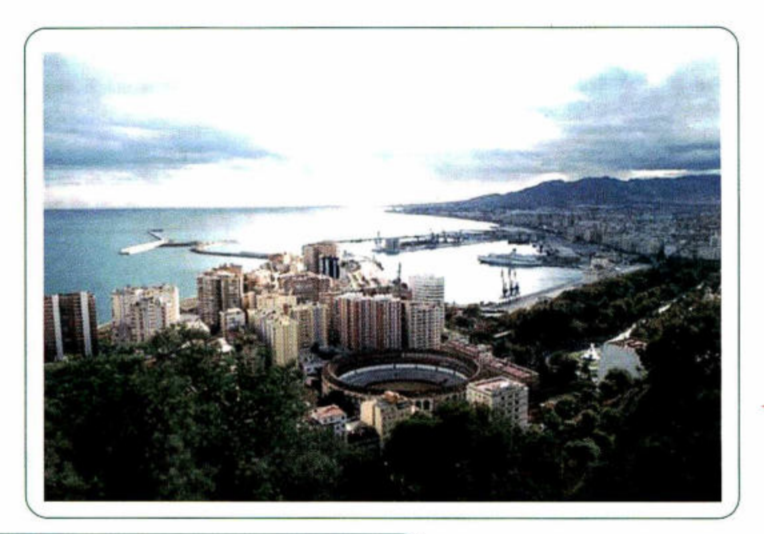
إشبيلية



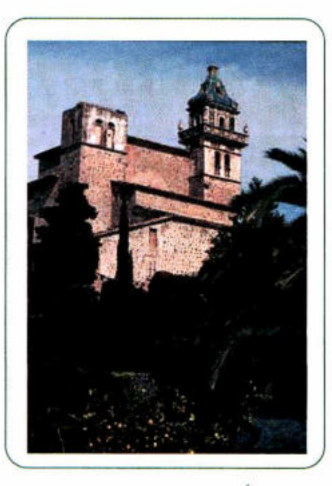
مسجد قرطبة



غرناطة (قصر الحمراء)


مالقة


طليطلة


من الأندلس


من جزر الباليار



انتشار الإِسلام بين شعوب أَوربة المسيحيَّة في عهد العثمانيِّين

لم تصلنا أَحداث التَّاريخ العثماني بموضوعيَّة وأَمانة، والسَّبب الرَّئيسي حقد الغرب على فتوحات العثمانيِّين في جنوب شرق القارَّة الأُوربيَّة،

معركة دِيو Diu البحـرِيّة
945هـ - 1538م
بين العثمانيين والبرتغاليين

حتَّى المراجع العربيَّة الَّتي تناولت تاريخ العثمانيِّين فقليلة نادرة، ردَّد بعضها مقولات الغرب دون تمحيص، وجعلت من السُّلطان عبد الحميد (سلطاناً أَحمر)، لوقوفه في وجه الهجرة اليهوديَّة إِلى فلسطين، مع كل تلك الإِغراءات الماليَّة الكبيرة[1].

ظهرت كتابات حديثة أَنصفت الدَّولة العثمانيَّة، الَّتي حمت شواطئنا العربيَّة من غزوات البرتغاليِّين الَّتي وصلت سواحل البحر الأحمر، إِلى سواكن وعيذاب وينبع، وتتبَّع الأُسطولُ العثماني الَّذي بُنِي بالسُّويس، الأُسطولَ البرتغالي إِلى ديو Diu في شمال غرب الهند عام (٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م).

ومن أَهمِّ المراجع الَّتي أَنصفت العثمانيِّين:

- أَخطاء يجب أن تصحَّح في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة: الدكتور جمال مسعود، والدكتورة وفاء جمعة، وعلي أحمد لبن، دار الوفاء، المنصورة، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- الدَّولة العثمانيَّة دولة إسلاميَّة مفترى عليها: الدكتور عبد العزيز الشِّنَّاوي، مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهرة، ١٩٩٢م.
- الدَّولة العثمانيَّة عوامل النُّهوض وأَسباب السُّقوط: الدكتور علي محمد الصَّلابي، دار التَّوزيع والنَّشر الإِسلاميَّة، القاهرة، ط١/ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- السُّلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الرُّوم: الدكتور عبد السَّلام عبد العزيز فهمي، دار القلم، دمشق - بيروت، سلسلة أَعلام المسلمين.

---

(١) السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بين الإِنصاف والجحود، محمد مصطفى الهلالي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

- صحوة الرَّجل المريض، أو: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني والخلافة الإسلاميَّة: موفَّق بني المرجة، مؤسَّسة صقر الخليج، الكويت، ١٩٨٤م.
- العلاقات العربيَّة التُّركيَّة من المنظورَيْن العربي والتُّركي، طبع معهد البحوث والدِّراسات العربيَّة، ومركز الأبحاث للتَّاريخ والفنون والثَّقافة الإسلاميَّة بإسطنبول، ١٩٩١ - ١٩٩٣م، بإشراف الأُستاذ الدكتور أكمل الدِّين إحسان أُوغلي، والأُستاذ الدكتور محمد صفي الدِّين أبو العز.
- المسك الفائح من سيرة محمد الفاتح: الدكتور علي محمد الصَّلابي، مكتبة الصَّحابة، الشَّارقة، مكتبة التَّابعين، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

وكتاب (الدَّعوة إلى الإسلام) للسِّير توماس أرنولد، وممَّا جاء في هذا الكتاب:

علاقات العثمانيِّين برعاياهم المسيحيِّين قائمة على التَّسامح[١].

محمد الثَّاني (الفاتح) يعلن بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣م نفسه حامي الكنيسة الإغريقيَّة، فحرَّم اضطهاد المسيحيِّين تحريماً قاطعاً، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حقَّ التَّمتُّع بالامتيازات القديمة، والموارد والهبات الَّتي كانوا يتمتَّعون بها في العهد السَّابق، وقد تسلَّم جنَّاديوس - أوَّل بطريق بعد الفتح العثماني - من يد السُّلطان نفسه عصا الأُسقفيَّة الَّتي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبيَّة، وحصان محلَّى بطاقم فاخر، وكان يتميَّز بركوبه في خلال المدينة، تحفُّ به حاشيته[٢]، مع سلطة واسعة في

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص١٧٠.
(٢) الدَّعوة إلى الإسلام، ص١٧٠.

الفصل في القضايا بين رعاياه، وصدرت التَّعليمات إلى الوزراء وموظَّفي الحكومة بتنفيذ أحكام البطريق[1].

بايزيد الصَّارم نفسه رَحْب الصَّدر، كريم الخُلُق مع رعاياه المسيحيِّين، جعلهم يألفونه أُلفة تامَّة، بأن سمح لهم بالتَّردُّد على مجلسه في حرِّيَّة كاملة.

مراد الثَّاني اشتهر بعنايته في تحقيق العدالة، وبإصلاحه للمفاسد الَّتي سادت في عهد الأَباطرة الإِغريقيِّين، وعاقب في غير هوادة أَيَّ موظَّف من موظَّفيه استبدَّ بأَيِّ فرد من رعاياه[2].

بعد قرن من فتح القسطنطينيَّة؛ نجد طائفة من الحكام الصَّالحين، استطاعوا بفضل الإِدارة الحازمة الصَّارمة أَن ينشروا الأَمن والنِّظام في المقاطعات كلِّها، ووجدنا تنظيماً رائعاً في الشُّؤون المدنيَّة والقضائيَّة[3].

استثناء من التَّسامح (ضريبة الأَبناء) الَّذين كانوا يؤخذون من آبائهم في سنٍّ مبكِّرة، وينتظمون في سلك الإنكشاريَّة الَّتي أنشأَها أُورخان سنة ١٣٣٠م، يُعلَّمون، وترعاهم الدَّولة رعاية مثاليَّة، كما لو كانوا أولاد السُّلطان نفسه، ولا يُكرهون على اعتناق الإِسلام، وللمكانة الَّتي كانوا يرتقون إِليها كثر بسرعة فائقة، تطوَّع كثيرين من المسيحيِّين أَنفسهم[4].

و(ضريبة الأَبناء) هذه، وبيع المسيحيِّين أَرقاء؛ حالة مماثلة كانت قائمة في ظلِّ الأَباطرة البيزنطيِّين، لم يبتدعها العثمانيُّون، وسعى الآباء - في الغالب - إِلى إِدخال أَبنائهم في خدمة تهيِّئ لهم في كثير من الأَحيان حياة سعيدة، وعيشة ناعمة مريحة[5].

---

(١) المرجع السَّابق، ص١٧١.
(٢) المرجع السَّابق، ص١٧٣.
(٣) المرجع السَّابق، ص١٧٤.
(٤) المرجع السَّابق، ص ١٧٥.
(٥) المرجع السَّابق، ص ١٧٦.

الجزية (ضريبة الرّأس)، يقرِّر هنس شلتبرجر الَّذي أَسره الأَتراك في سنة ١٣٩٦م، ورجع إِلى وطنه ميونيخ، أَنَّ الضَّريبة الَّتي لم يكن بدٌّ من أن يدفعها المسيحيُّون، لم تزد على جزأَين من مئة من المارك في الشَّهر[١].

العثمانيُّون يتركون النَّاس أَحراراً في دينهم، حتَّى كانت دعوات النَّصارى «أدام الله بقاء دولة العثمانيِّين خالدة إِلى الأَبد، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية، ولا شأن لهم بالأَديان، سواء كان رعاياهم مسيحيِّين أَو يهوداً»[٢].

إِنَّ الأَتراك لم يُرغموا أحداً على ترك دينه[٣].

لقد انتشر الإِسلام في جنوب شرق القارة الأُوربيَّة بعد الفتح العثماني بسبب عدَّة عوامل مساعدة:

١ - تدهور الكنيسة الإِغريقيَّة، والاستبداد في الأُمور الدِّينيَّة، وأَضحت الوظائف والمناصب الكنسيَّة تباع وتشترى.

٢ - طغيان الدَّولة البيزنطيَّة وضرائبها الباهظة.

٣ - تعاليم الإِسلام الواضحة المفهومة الَّتي تقوم على الوحدانيَّة دون مواربة ورموز، حقيقة ترتكز على العقل دون تسليم بلا برهان، فأَسلم علماء وأَصحاب مناصب وقسس ورهبان، لقد أَسلم ابن أَخي الإمبراطور جون كومنين، وتزوَّج إِحدى بنات مسعود سلطان قونية.

أَصبح الدِّين الإِسلامي في ذلك الحين الملجأ الطَّبيعي لأَفراد الكنيسة الشَّرقيَّة، عرفوا صورة من العقيدة أَنقى وأَبسط، ترقى على عبادة الصُّور والمخلَّفات الأَثريَّة المقدَّسة والقدِّيسين.

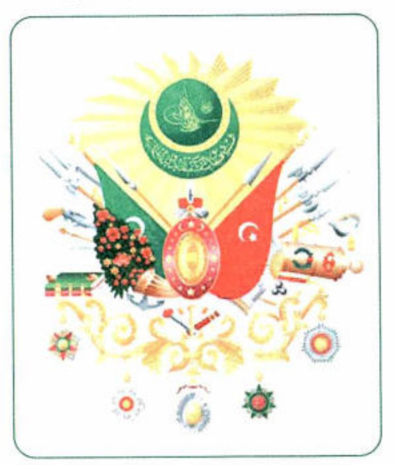
---

(١) المرجع السَّابق، ص ١٧٨.

(٢) المرجع السَّابق، ص ١٨٣، وملاذ اليهود بعد سقوط الأَندلس كان الدَّولة العثمانيَّة المسلمة!.

(٣) المرجع السَّابق، ص ١٨٤.

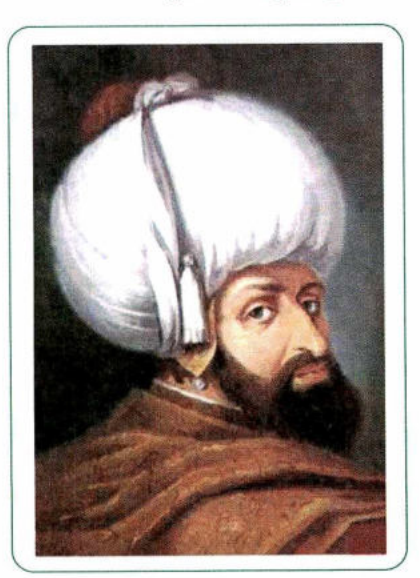
٤ - تفوُّق العثمانيِّين الأَدبي: مظاهر الحشمة والتَّواضع، وأُسلوب معيشتهم، بساطة الحياة، تديّنهم والتزامهم بالصَّلاة، حتَّى الجيش في مسيرته لم يخسر السُّكان شيئاً، أو نساؤهم قد تعرضن لسوء معاملة، مع تواد المسلمين وتراحمهم، مع العناية بالغرباء في نُزُلهم[1].



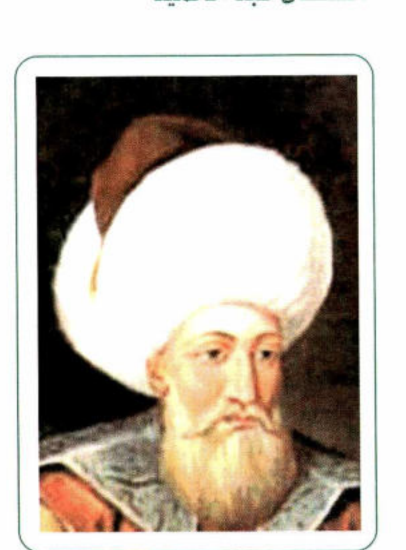
شعار الدولة العثمانية



السلطان عبد الحميد



السلطان بايزيد (الصاعقة)

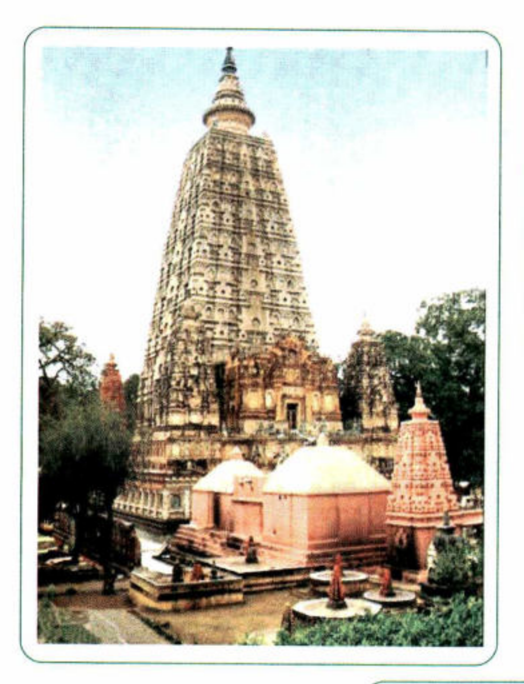


السلطان مراد الثاني

(١) المرجع السَّابق، ص ١٨٥.



السلطان محمد الفاتح



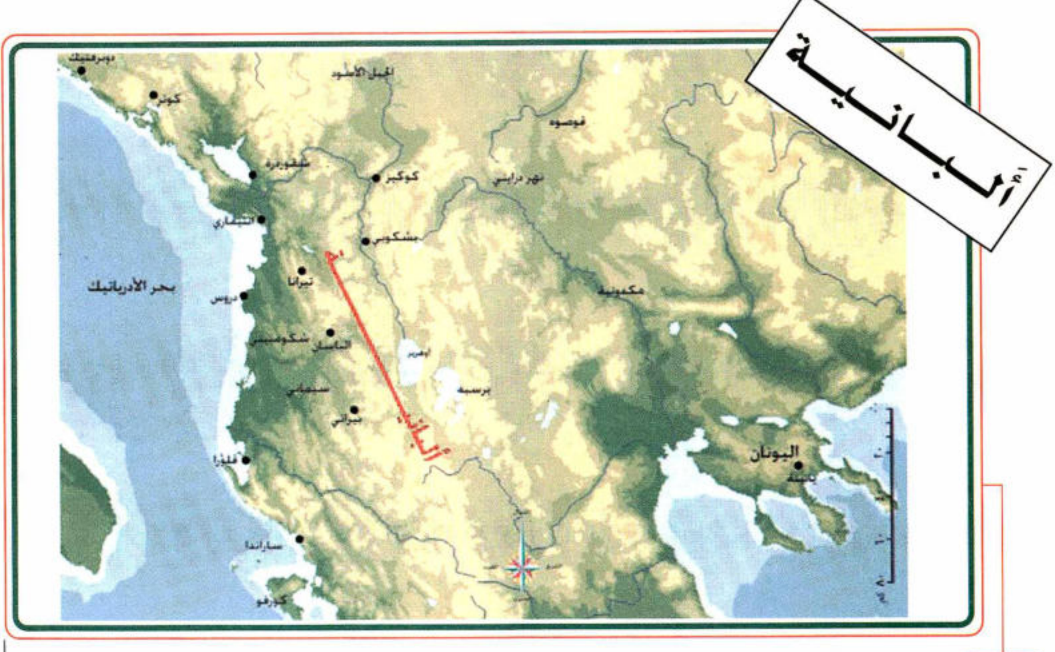
ديو

نقل السفن براً إلى القرن
الذهبي



أثناء حصار القسطنطينية
محمد الفاتح على حصانه

ألبـانيـة



بدأ غزو الأَتراك لأَلبانية عام ١٣٨٧م، واعترفت بنفوذ السُّلطان العثماني للمرَّة الأُولى عام ١٤٢٣م، ووصل العثمانيُّون انتيفاري Antivari - أَقصى الشَّمال من ساحل أَلبانية - سنة ١٥٧١م، وضمن العثمانيُّون للأَلبان الحرِّيَّة في إِقامة شعائر دينهم المسيحي، وسلامة الكنائس والمعابد، والاحتفاظ بالأَملاك، وجزية بسيطة[(١)].

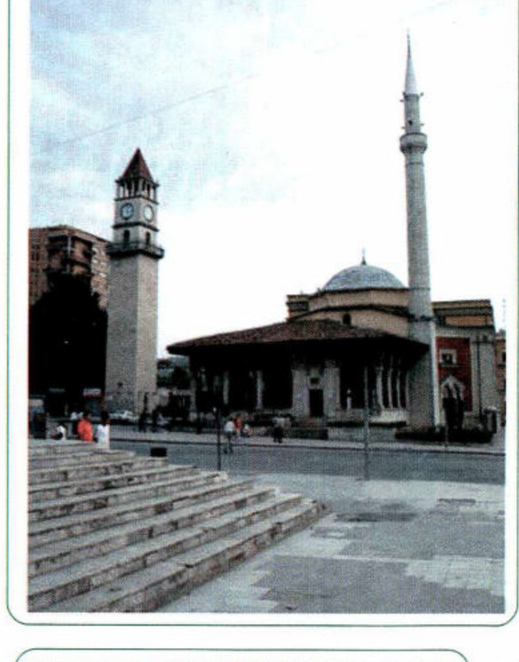
انتشر الإِسلام تدريجيّاً وفي بطء على أَيدي أَهالي البلاد - الأَلبان - أَنفسهم، لا نتيجة لضغط المؤثِّرات الأَجنبيَّة، انتشار بطيء، ولكن بحركة مستمرة[(٢)].

وبازدياد عدد الدَّاخلين في الإِسلام حُوِّلت الكنائس إِلى مساجد، وهذا التَّصرُّف مع أَنَّه يتعارض مع شروط الصُّلح، يبرِّره فيما يظهر، التَّغيير الَّذي طرأ على عقيدة الشَّعب[(٣)].

وفي سنة ١٦١٠م لم يكن هناك إِلَّا كنيستان تعليميتان قد بقيتا في أَيدي

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٠٥ -٢٠٦.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٠٧.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢٠٨.

النَّصارى من اللَّاتين، ولكن يظهر أَنَّهما كانتا بحيث تسدَّان حاجات الجماعة، وهناك نحو ست مئة منزل يقطنها المسيحيُّون والمسلمون دون تمييز[1].



وأَصبح من الشَّائع لدى الأُسر المسيحيَّة أن تزوِّج بناتها من المسلمين، شعور طيِّب بين أَفراد الدِّيانتين، حتَّى شارك المسلمون المسيحيِّين في أَعيادهم[2].

زمايفتش الأَلباني رئيس أَبرشيَّة، كان يقابل بحفاوة بالغة، وملاطفة رائعة من عامَّة موظَّفي الأَتراك، بل من سموِّ باشا أَلبانية نفسه، الَّذي منحه مكانة سامية في ديوانه، وكان دائماً يصحبه إِلى الباب عند انصرافه، ويستقبله عند الباب لدى وصوله[3].



تيرانا

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٠٨.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٠٩.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

الصـــرب



دفعت الصِّرب الجزية سنة ١٣٧٥م، وبعد معركة كوسوفو Kossovo سنة ١٣٨٩م اعترفت الصِّرب بسيادة العثمانيِّين، وبعد موقعه نيكوبوليس Nikopolis سنة ١٣٩٤م ضمنت للعثمانيين امتلاك أَرجاء جزيرة البلقان كافة، ما عدا المقاطعة الَّتي تحيط بالقسطنطينيَّة.

وآثر الصِّربيُّون سيادة العثمانيِّين على سيادة المجريِّين[١].

انتشر الإِسلام بين الصِّربيِّين قبل الفتح العثماني «قدم إِلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد البلغار، وسكنوا بيننا، وتلطَّفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضَّلال، وأَرشدونا إِلى الصَّواب من دين الإِسلام، فهدانا الله والحمد لله، فأَسلمنا جميعاً، وشرح الله صدرنا للإِيمان، ونحن نقدم إِلى هذه البلاد [حلب] ونتفقَّه، فإِذا رجعنا إِلى بلادنا أُكرمنا، وولونا أُمور دينهم»[٢].

اختار السُّكان حكم العثمانيِّين الإِسلامي بسبب تسامحهم، «اشتبك العثمانيُّون والمجريُّون في حرب، وبحث جورج برانكوفيتش عن جون

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٢١ - ٢٢٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٢٣.

هنيادي وسأله: ماذا تصنع لو انتصرت؟ فأَجاب: أُؤسِّس العقيدة الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة، ثمَّ بحث عن السُّلطان وسأَله: ماذا تصنع لدينا لو انتصرت؟ فأَجاب: أُقيم كنيسة إِلى جانب كلِّ مسجد، وأَدع مطلق الحرِّيَّة لكلِّ فرد في أن يصلي في أَيِّهما شاء»[1].

أَرغمت خيانة بعض القسيسين الصِّربيِّين حامية بلغراد على التَّسليم للعثمانيِّين، ورحَّب صربيو سمندرية Semendria الواقعة على نهر الدَّانوب بالجيوش العثمانيَّة الَّتي خلَّصتهم من جيرانهم الكاثوليك سنة **١٦٠٠**م.

بدأَ انتشار الإِسلام بين الصِّربيِّين بعد موقعة كوسوفو مباشرة، «تحوَّلوا إِلى الإِسلام بمحض إِرادتهم»، والمسلمون الأُوَل في الصِّرب كانوا أَشدَّ الدُّعاة تحمُّساً للدِّين الجديد، ساعدهم أَنَّ رجال الكنيسة من الصِّربيِّين في غاية الجهل والأُمِّيَّة، فلم يستطيعوا قراءة كتب خدمتهم الدِّينيَّة إِلَّا بصعوبة، ولم يعرف أَحد منهم الكتابة إِلَّا نادراً، ولم يعظوا النَّاس أَو يعلِّموهم أُصول الدِّين بطريقة الحوار[2].

في مستهل القرن السَّابع عشر في مدينة جانيفو Jagnevo: **١٢٠** أُسرة رومانيَّة كاثوليكيَّة، و**٢٠٠** أُسرة إغريقيَّة، و**١٨٠** أُسرة مسلمة، وبعد ذلك بأَقل من مئة عام، كان كلُّ بيت في المدينة يعدُّ مسلماً، لأَنَّ ربَّ كلِّ أُسرة أَسلم، ولم يبق على المسيحيَّة إِلَّا النِّساء وبعض الأَطفال، نحو منتصف القرن الثَّامن عشر، كانت قرية لجورس Ljurs بأَسرها كاثوليكيَّة، وفي سنة **١٨٦٣**م كانت هناك **٩٠** أُسرة مسلمة، و**٢٣** أُسرة مسيحيَّة، وبعد زمن قصير؛ أَسلمت القرية وما جاورها من القرى بشكل كامل[3].

---

(١) المرجع السَّابق، ص **٢٢٣**.
(٢) المرجع السَّابق، ص **٢٢٤ - ٢٢٥**.
(٣) المرجع السَّابق، ص **٢٢٦**.

الجبل الأسود



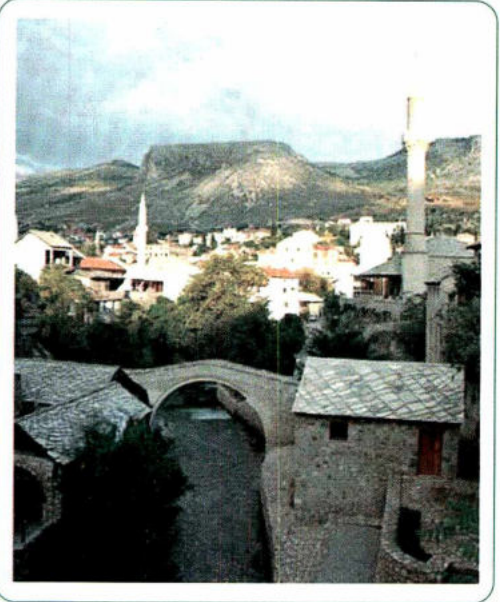
بعد موقعة كوسوفو وسقوط دولة الصِّرب، أَضحت هضاب الجبل الأَسود الموحشة، ملجأ لهؤلاء الصِّربيِّين الَّذين أَبوا الخضوع للعثمانيِّين، وعقدوا النِّيَّة على التَّمسُّك باستقلالهم، لذلك لم يتَّخذ الإِسلام سبيلاً بينهم في سهولة ويسر، وفي القرن السَّابع عشر، دخل في الإِسلام كثير من أَهالي الجبل الأَسود في المقاطعات الواقعة على الحدود، لاحتكاكهم بالمسلمين، وفي سنة ١٧٠٣م جمع دانيال بيتروفتش، الأُسقف الحاكم في ذلك الحين، القبائل وأَخبرهم قراره القضاء على المسلمين الَّذين يعيشون بين ظهرانيهم، فقتلوا في ليلة عيد الميلاد جميع المسلمين في الجبل الأَسود، دون احترام لحقِّ حرِّيَّة اختيار المعتقد![١].



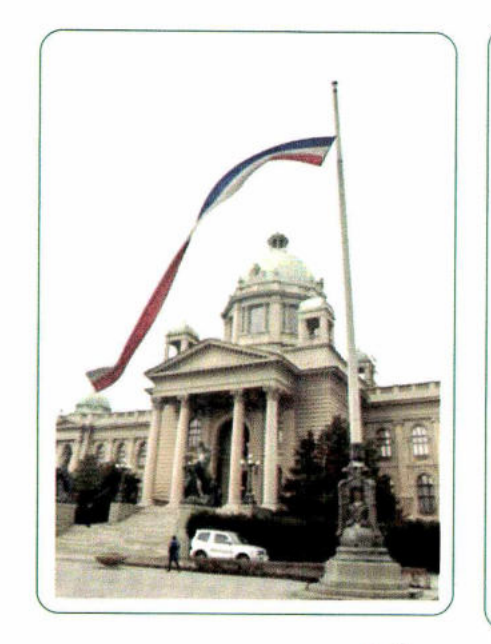

الطبيعة في الجبل الأسود

---

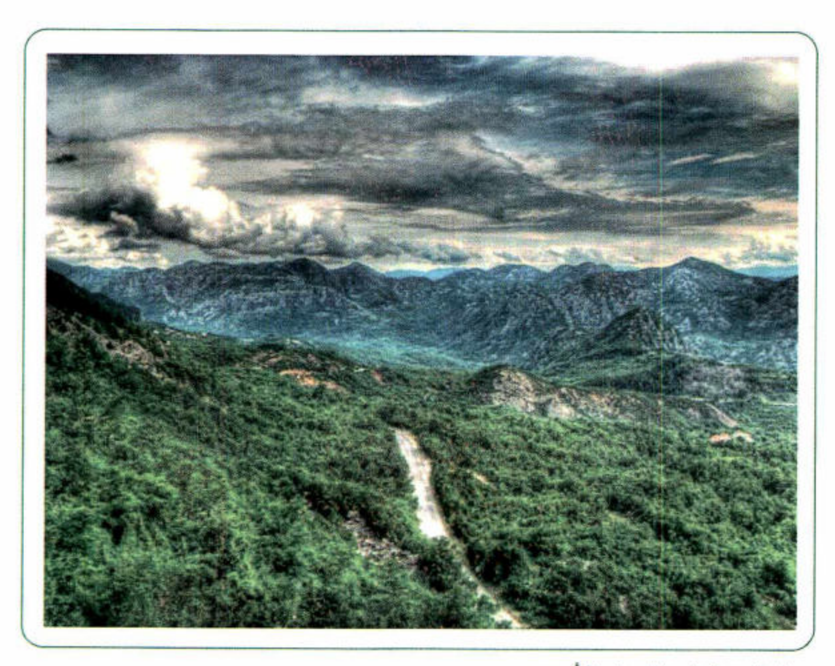
(١) المرجع السَّابق، ص ٢٢٦.



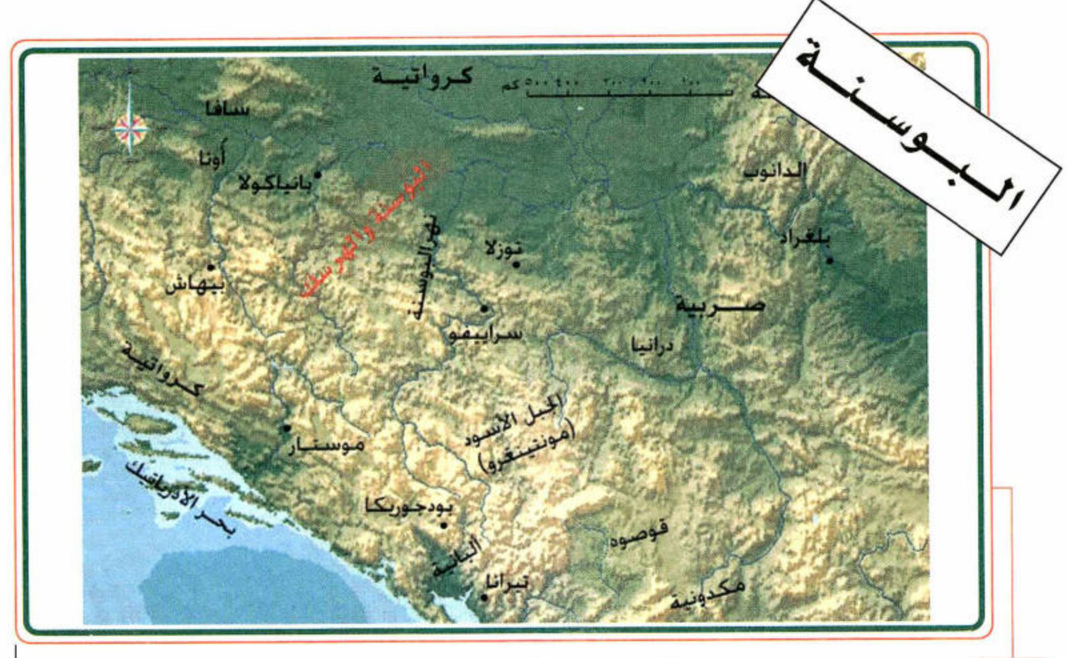
الطبيعة في كوسوفو



بلغراد



الطبيعة في الجبل الأسود



ينتمي السَّواد الأَعظم من أَهالي البوسنة إِلى طائفة مسيحيَّة من (الخوارج)، يطلق عليها طائفة البوجوميل Bogomiles، الَّذين تعرَّضوا من القرن الثَّالث عشر الميلادي لاضطهاد الكاثوليك الرُّومان، والَّذين طالما دعا البابوات إِلى شنِّ حرب صليبيَّة عليهم، وفي القرن الخامس عشر، أَصبحت آلام البوجوميل لا تحتمل، حتَّى إِنَّهم استغاثوا بالعثمانيِّين لتخليصهم ممَّا هم فيه من بؤس وشقاء، ففي سنة **١٤٦٣**م تقدَّم محمد الثَّاني إِلى البوسنة، فوجد الملك الكاثوليكي أَنَّ رعاياه قد تخلَّفوا عنه، وسلَّم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرَّئيسي، مدينة بوبوفاتس Bobovats الملكيَّة إِلى الأَتراك، وأَسرع سائر الحصون والمدن إِلى الاقتداء بالحصن، وفي خلال أُسبوع انتقلت سبعون مدينة إِلى أَيدي السُّلطان[1].

ومنذ ذلك الوقت، لم نسمع عن البوجوميل إِلا قليلاً، ويظهر أَنَّهم دخلوا في الإِسلام بمحض إِرادتهم في جموع كبيرة على أَثر الفتح

---

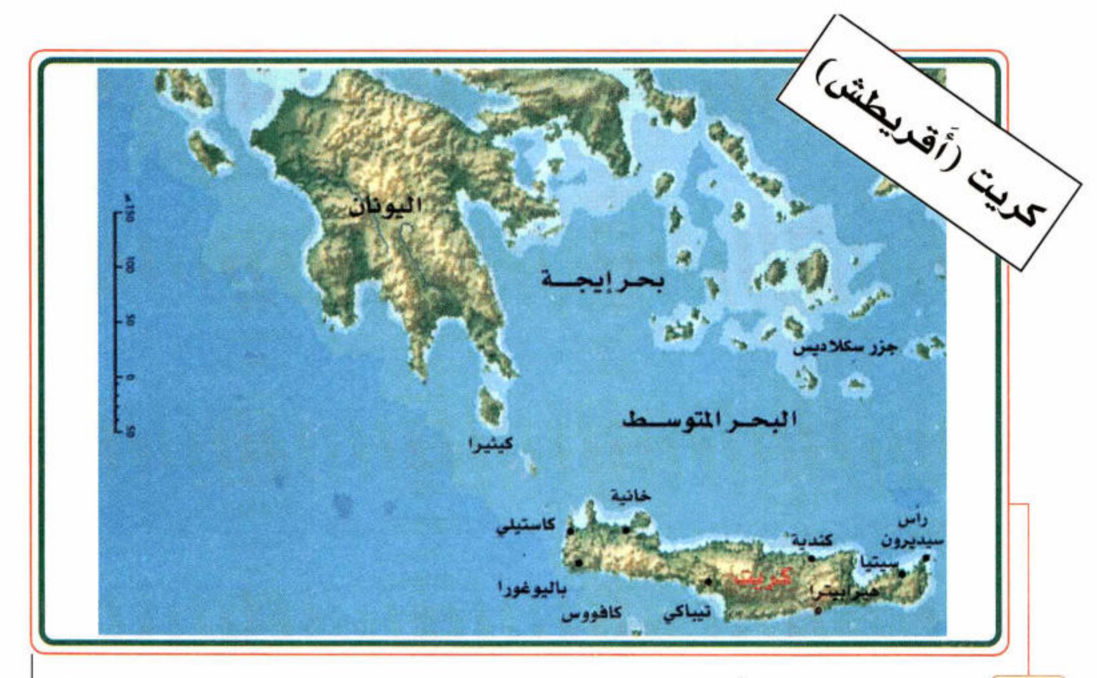
(١) المرجع السَّابق، ص ٢٢٧.

العثماني، سهَّل عليهم أنَّهم قبل الفتح العثماني تشابهوا في مواضيع كثيرة مع مبادئ الإِسلام، فقد رفضوا عبادة مريم العذراء، ونظام التَّعميد، وكلَّ صورة من الكهنوت، وأنكروا الصَّليب رمزاً دينيّاً، وعدُّوا من عبادة الأصنام الانحناء أمام الصُّور الدِّينيَّة والتَّماثيل وآثار القدِّيسين، واعتقدوا أنَّ المسيح نفسه لم يصلب[1]، وإِنَّما حلَّ محلَّه شبيه آخر، مع ذمهم للخمر[2].

قدَّم العثمانيُّون - كما كانت عادتهم دائماً في فتوحاتهم - قمَّة التَّسامح، وسمحوا للبوسنيِّين المسلمين الاحتفاظ بقوميتهم، يتكلَّمون لغتهم الوطنيَّة، مع غَيْرَة متدفِّقة على دينهم الجديد، وسرعان ما تبوَّأ أشراف البوسنة بفضل شجاعتهم العسكريَّة، وتقديسهم للإِسلام مكانة سامية في إِسطنبول، حتَّى شغل منصب كبير الوزراء ما بين سنتي ١٥٤٤ و١٦١١م بوسنيو الأَصل[3].

---

(١) وهذا ما ورد في إنجيل بطرس المكتشف في مخطوطات نجع حمادي في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥م، جاء حرفيّاً: يقول المخلص: إِنَّ الَّذي رأيته سعيداً يضحك هويسوع الحيُّ، لكن من يدخلون المسامير في يديه وقدميه، فهو البديل، فقد وضعوا العار على الشَّبيه، انظر إليه وانظر إليَّ.
وفي هذه المخطوطات المكتشفة كتاب يُسمَّى (كتاب سيت الأكبر)، جاء فيه: كان شخص آخر شرب المرارة والخل، لم أكن أنا، كان آخر (سيمون) هو الَّذي حمل الصَّليب على كتفه، كان آخر هو الَّذي حمل الصَّليب على كتفه، كان آخر هو الَّذي وضعوا تاج الشَّوك على رأسه، وكنت أنا في العُلَا أضحك لجهلهم.
انظر: مجلة المجلة، العدد ٧١٢، ٣ - ٩/ ١٠/ ١٩٩٣م، ص٥٦ وما بعدها، مقالة: مخطوطات نجع حمادي كانت جزءاً من مكتبة الإِسكندريَّة الضَّائعة، العثور على أناجيل كانت غير معروفة من قبل، الرِّواية القبطيَّة تقول: إِنَّ المسيح لم يصلب، وإِنَّما صُلِب شبيه له.
(٢) الدَّعوة إِلى الإِسلام، ص ٢٢٨.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢٢٩.



دخل العثمانيُّون جزيرة كريت سنة ١٦٦٩م، وكانت تابعة لجمهوريّة البندقيّة.

وكانت كريت قد دخلت في الإسلام ما بين ٨٢٥ و٩٦١م على يد عرب أَندلسيِّين، ولمَّا عاد سلطان الدَّولة الرُّومانية إلى كريت؛ لم تعترف إلَّا بالدِّين المسيحي، الدِّين الوحيد المعترف به في الجزيرة، وحُكمت بيد من حديد، حتَّى كان ظلمهم وجورهم سبب إثارة كثير من الثَّورات الَّتي قُمعت بشدَّة لا تعرف الرَّحمة، قسوة مفزعة، وقمع وحشي، فلا عجب أن تقدِّم المصادر معلومات عن أهالي كريت الَّذين كانوا يتطلَّعون إلى تغيير الحكام، ولم يتردَّدوا كثيراً في الخضوع للعثمانيِّين، أو الهجرة إلى تركية ومصر، حيث دخل كثير منهم في الإسلام[1].

أَسلم جمع كبير من أَهالي كريت بعد الفتح العثماني مباشرة طواعية، وكان مسلمو كريت يكثرون من اتِّخاذ البنات المسيحيَّات زوجات لهم، وكنَّ من بنات أَصدقائهم المسيحيِّين، والأَحداث السِّياسيَّة الحديثة سبَّبت

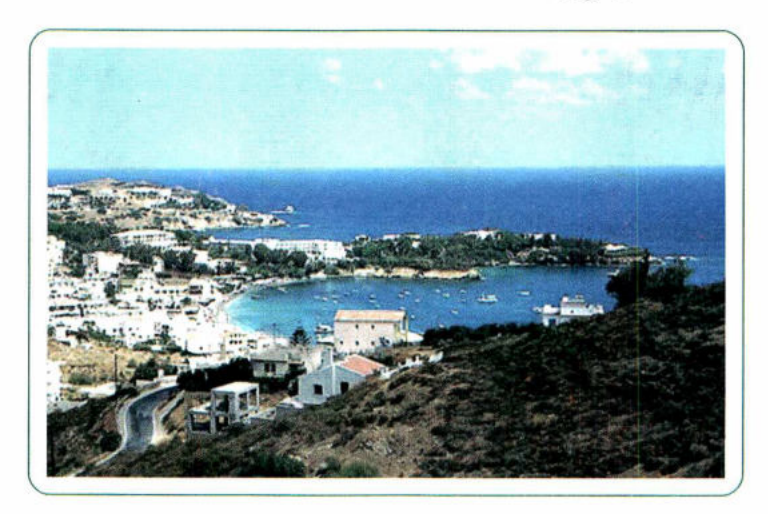
---

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٣٠ - ٢٣٢.



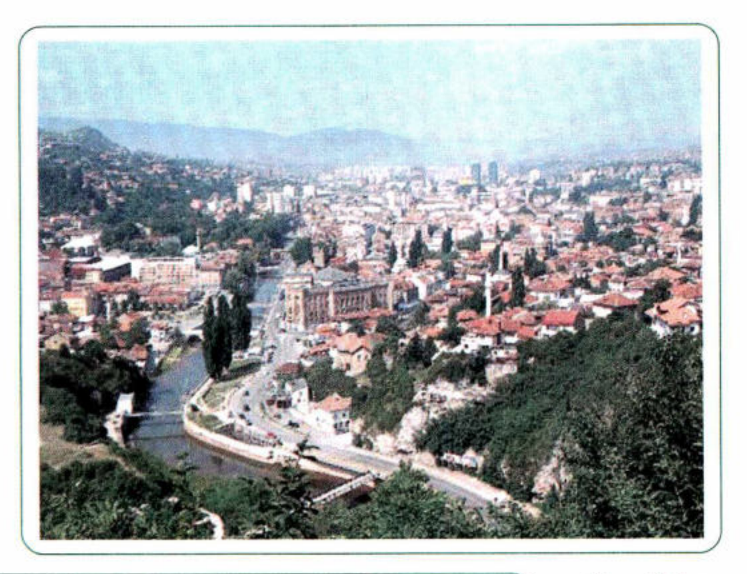
هجرة الكريتيين إلى مصر وأسية الصُغرى

نقصاً كبيراً في سكان كريت المسلمين، في سنة ١٨٨١م كان عدد المسلمين في الجزيرة ٧٣,٢٣٤، وفي سنة ١٩٠٩م نقص العدد على أثر الهجمات المستمرة إلى ٣٣,٤٩٦[١].

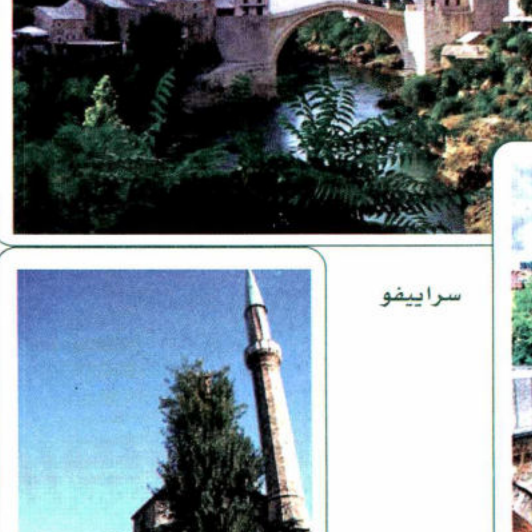


كريت

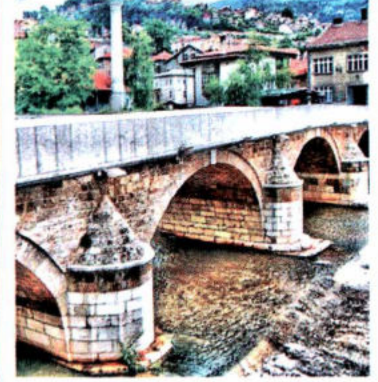
(١) المرجع السَّابق، ص ٢٣٤.



من البوسنة



سراييفو





انتشار الإِسلام في فارس (إيران) وأَواسط آسية

فارس:

لم يلقَ المسلمون مقاومة تذكر من الشَّعب الفارسي، الَّذي كان قد استبدَّ بحكمه ممثِّلو الدَّولة السَّاسانيَّة في أَواخر أَيَّامها استبداداً امتاز بكثير

من ضروب الفوضى والعنت، مما أثار غضب الأهلين، وجعلهم ينظرون إلى حكَّامهم نظرة تنطوي على الكراهة والبغضاء، خصوصاً بعدما جعلت الدَّولةُ الزَّرادشتيَّةَ دين الدَّولة الرَّسمي، والَّتي كانت من قبل بغيضة عند الأهلين.

الفتح العربي ظهر في صورة تخليص الأهلين ممَّا أصبحوا فيه، حيث تنفَّسوا الصُّعداء، ورحَّبوا بالعرب حبّاً في الخلاص من ظلم الحكام أوَّلاً، ورغبة باعتناق دين يرتضونه لأنفسهم[1].

إنَّ أهالي فارس بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التَّحوُّل إلى الدِّين الجديد، والتَّرحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة، لما يمتاز به من البساطة، «وهكذا قُدِّر للإسلام أن يبدِّد بضربة واحدة كلَّ هذه الغيوم، وأن يفتح أمام النَّاس سبلاً واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السَّيِّئة»[2].

«على أنَّ سكان المدن وخاصَّة الصُّناع وأصحاب الحِرَف وأهل الطَّبقة العاملة، قد رحَّبوا بالدِّين الإسلامي، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة، وذلك لما تتطلَّبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت، وتقبيح عبادة النَّار والأرض والماء، وهم الَّذين كان ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء، ولما في اعتناقهم الإسلام أيضاً من تركهم في الحال أحراراً ومساواتهم في المذهب الدِّيني»[3].

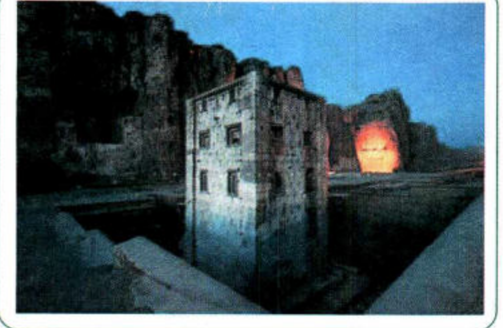
وكان لزواج الحسين بن علي رضي الله عنهما من شاهبانو Shahbanu إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأُسرة السَّاسانيَّة أثر كبير، فقد رأى الفرس في أولاد الحسين وشاهبانو وارثَيْن لملوكهم الأقدمين.

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ٢٣٥.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٣٧.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢٣٧.

وترك المسلمون الفاتحون معابد النَّار كما هي، وفي إيران حتَّى اليوم جماعات صغيرة من عبدة النَّار، في يزد وكرمان[1].

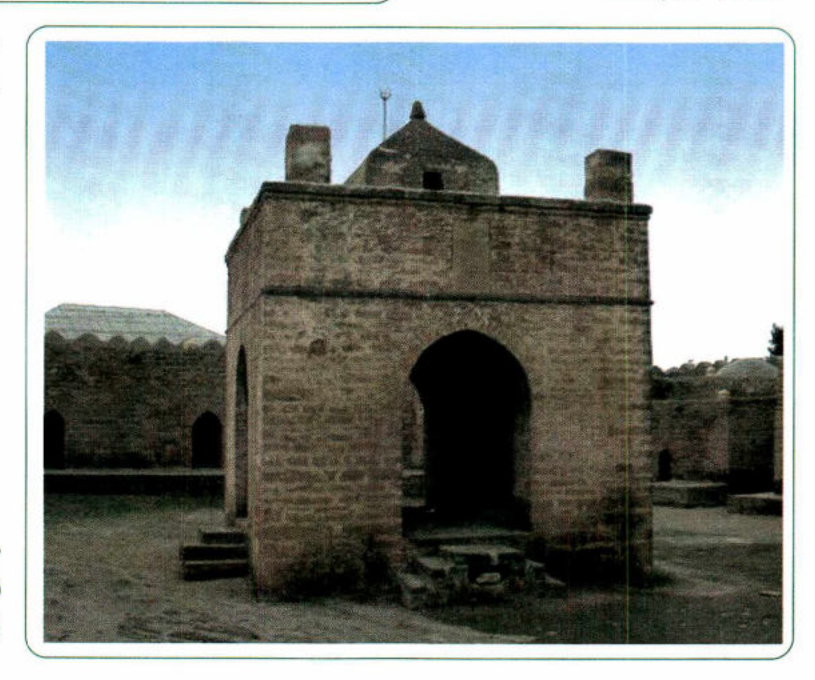
«ومن المستحيل قطعاً أن نقول: إنَّ اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوَّة على حمل النَّاس على اعتناق الإسلام»[2].





مدخل معبدٍ للنار

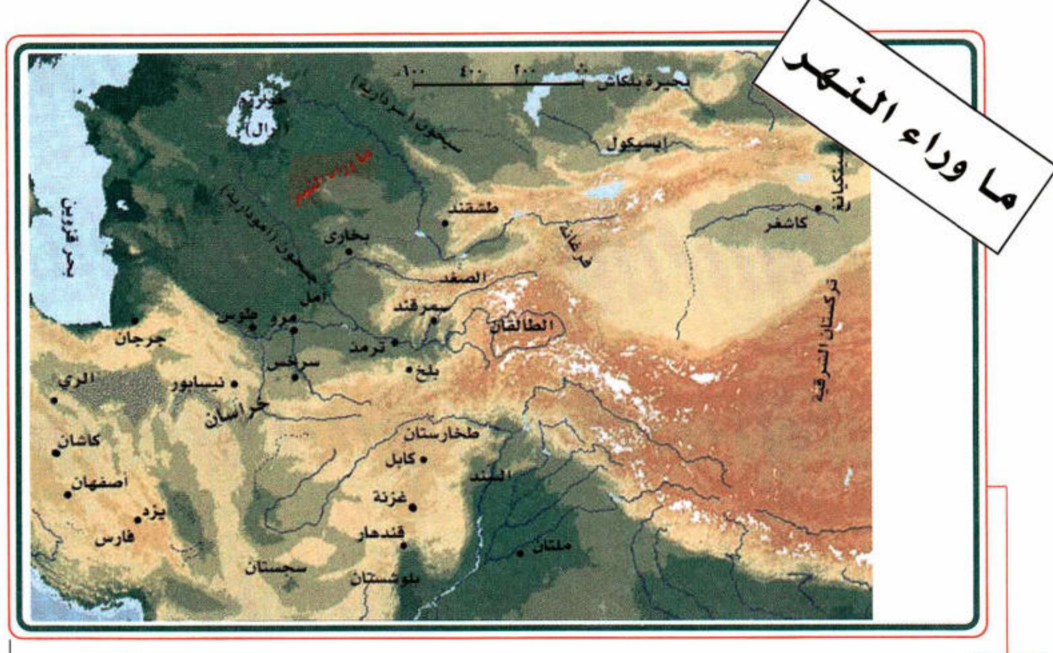
معبد نار في إيران



معبد النار قرب باكو (أذربيجان)

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٣٨.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٣٩.

ما وراء النهر



لمَّا فتح قتيبة بن مسلم الباهلي سمرقند، وجد هناك كثيراً من الأَصنام، كان عبدتها يعتقدون أَنَّ كلَّ من أَثار حنقها تعرَّض للموت، ولم يأبه الفاتح المسلم لهذه المخاوف الَّتي أَثارتها تلك الخرافات، فلم يتردَّد عن إِحراق الأَصنام أَمام أَعين من يعبدها، ولم يلحقه سوء، وكان من أَثر ذلك العمل؛ أَن دان بالإِسلام عدد كبير من النَّاس[1].

وقضيَّة سمرقند أَيَّام خلافة عمر بن عبد العزيز، قضية حضاريَّة خالدة، فتح المسلمون مدينة سمرقند، حاضرة ما وراء النَّهر، الَّتي اشتهرت في الإِسلام بعد ذلك بأَنَّها من مواطن الثَّقافة والحضارة الإِسلاميَّة، فتحها سعيد بن العاص في عهد الأُمويِّين، ثمَّ فتحها عنوة بعد ذلك قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣هـ، وهناك روايتان في سبب غزو قتيبة لها:

الرِّواية الأُولى تقول: إِنَّ أَهل سمرقند غدروا بالمسلمين وأَجلوهم عنها، فردَّ قتيبة على صنعهم هذا بالتَّوجُّه إِليهم بجيش كبير، فتح به بلدهم، وترك بها حامية كبيرة حتَّى لا يعاودوا الغدر بالمسلمين.

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٤٣.

والرِّواية الثَّانية تقول: إنَّ سعيد بن عثمان فتح سمرقند صلحاً على مال يؤدُّونه قُبالة حمايتهم، فلمَّا مات، وتولَّى قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة الجيوش الفاتحة لخراسان وما وراء النَّهر، استقلَّ هذا المال الَّذي يدفعونه، وفتح سمرقند عنوة دون أن يخطرهم بنقض العهد السَّابق، وإيذانهم بالحرب(١).

هاتان الرِّوايتان رواهما أبو عبيدة معمر بن المثنَّى المتوفَّى سنة ٢١٠هـ، ولم يرجِّح واحدة منهما على الأُخرى، إلَّا أنَّ منطق الحوادث يؤكِّد رجحان الثَّانية على الأُولى.

قَبِلَ أَهل سمرقند الأَمر على مضض، ولمَّا آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ، وبلغ أَهل سمرقند عنه ما ملأَ أَطراف الدَّولة وجوانبها من الحديث عن عدله ونصرته للحق ووفائه وبغضه للظُّلم، قالوا لسليمان بن أبي السُّرِّي - والي سمرقند أَيَّام عمر بن عبد العزيز -: «إنَّ قتيبة غَدَر بنا، وظلمنا وأَخذ بلادنا، وقد أَظهر الله العدل والإِنصاف، فأذن لنا فليَفِدْ منَّا وفد إلى أَمير المؤمنين يشكون ظُلامتنا، فإن كان لنا حقٌّ أُعطيناه، فإنَّ بنا إلى ذلك حاجة، فأَذِن لهم»(٢)، فأَنابوا عنهم وفداً يَلْقى الخليفة في دمشق، يشكو له ما كان من قتيبة معهم.

ولقي الخليفة وفدهم، فعرضوا الأَمر عليه، وقالوا فيما قالوه: إنَّ قتيبة غدر بنا ظلماً، وأَخذ بلادنا، والأَمر إليك لترفع عنَّا ما نزل بنا على يديه.

وتناول الخليفة قرطاساً وقلماً، وكتب إلى سليمان بن أَبي السُّرِّي، عامله على سمرقند كتاباً قال فيه: «إنَّ أَهل سمرقند قد شكوا إليَّ ظلماً

---

(١) الطَّبري ٦/ ٥٦٧، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٤م، تحقيق محمد أَبو الفضل إبراهيم.

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

أَصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم حتَّى أَخرجهم من أَرضهم، فإِذا أَتاك كتابي فأَجلس لهم القاضي، فلينظر في أَمرهم، فإِن قضى لهم فأَخرجهم إِلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أَن يظهر عليهم قتيبة»[1].

وعاد وفدهم بكتاب الخليفة إِلى عامله على سمرقند، فأَحال قضيَّتهم إِلى القاضي جُميْع بن حاضر النَّاجي قاضي سمرقند، فاستمع إِلى ظُلامتهم، واستدعى شهودهم عليها، ثمَّ استدعى شهوداً من الجيش الَّذي حضر الموقعة مع قتيبة، فشهدوا بالحقِّ، شهدوا أَنَّ قتيبة لم ينبذ إِليهم عهدهم، بل فاجأَهم بفتح بلادهم عنوة.

وحينما وضح هذا أَمام القاضي؛ أَصدر حكمه في هذه القضيَّة صريحاً لا غموض فيه، قويّاً ناطقاً بعدالة الإِسلام، القطب المتفرِّد بالقرار آنذاك، قال القاضي جُمَيْع: على الجيش الإِسلامي الَّذي فتح سمرقند بقيادة قتيبة أَن يتأَهَّب للخروج منها فوراً، وكذلك يخرج منها المسلمون الَّذين دخلوها بعد الفتح.

لقد كان لهذا الحكم رجَّة في أَنحاء سمرقند، إِذ ما كان يتصوَّر أَحدٌ أَنَّ تعاليم الإِسلام تمضي على هذا النَّحو، وتعطي الحقَّ للقاضي أَن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقرَّ فيه، وأَن تحكم الدَّولة على نفسها مُدِينةً إِيَّاها.

وأَسرع الوالي يخطر الخليفة بالحُكْم، ويطلب مشورته، فجاء الرَّدُّ بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره، وعندئذ أَصدر أَمره إِلى الجيش بالتَّأَهُّب للرَّحيل، وإِلى المسلمين المدنيِّين بمغادرة سمرقند.

وبينما هذا يجري على قدم وساق، والجيش يجمع أَسلحته وأَمتعته، ويفكُّ مخيَّماته، وبينما المسلمون المقيمون بسمرقند يودِّعون أَهلها، ويحزمون أَمتعتهم، ويعلنون بيع أَملاكهم فيها، وإِذا بمفاجأة تَجِدُّ لم تكن

(١) الطَّبري، ٦/٥٦٨.

في الحسبان، لقد قال أَهل الرَّأي في سمرقند: «بل نرضى بما كان، ولا نجدِّد حرباً.. قد خالطنا هؤلاء القوم، وأَقمنا معهم، وأَمِنونا وأَمنَّاهم، فإن حُكِمَ لنا عُدْنا إِلى الحرب، ولا ندري لمن يكون الظَّفر، وإن لم يكن لنا كنَّا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة»، وأَرسلوا وفداً إِلى الوالي، وأبلغوه أَنَّهم تشاوروا فيما بينهم بعد هذا الحكم الَّذي ما دار بخلدهم لحظة واحدة، أَنَّ تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله، وأَنَّهم ما كانوا يتوقَّعون أَنَّ هناك قاضياً يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد فتحه، وأَنَّهم ما كانوا يتصوَّرون أَنَّ القاضي يهمل في هذه القضيَّة عصبيَّته لقومه، ولا يعيرها اعتباراً ولا وزناً، وأَنَّهم استبعدوا أَن يأمر الخليفة بتنفيذ الحكم كما صدر، مع انصياع الجميع له، دون أَن يكون هناك اعتبار لما يترتَّب على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم.

أَمام هذا، وأَمام حسن المعاملة الَّتي وجدوها من إِخوانهم المسلمين المقيمين بسمرقند حال إِقامتهم بها، لا يسعهم إِلَّا أَن يعلنوا عن تنازلهم عن حقِّهم، والمطالبة ببقاء الحال على ما هي عليه، لأَنَّهم لن يخشوا بعد اليوم ضرّاً ينالهم.

وإِزاء هذه الرَّغبة الصَّادقة من أَهل سمرقند، وانضوائهم تحت راية الإِسلام، والإِخلاص لتعاليمه، والعمل على نشرها، والاستمساك بما أَمرت به، والاعتصام بحبل الله المتين، غدت سمرقند بعد مركزاً من المراكز الإِسلاميَّة، يأتيها الدَّاني والقاصي للتزوُّد بزاد المعرفة من علمائها.

هذه قضيَّة خالدة في تاريخ الإِسلام بلا جدال، ونوع فريد في قضايا العالَم بلا خلاف، وإِنَّها لصفحة مجيدة في تاريخ الإِنسانيَّة يفخر بها كلُّ مسلم في كلِّ جيل، وفي كلِّ عصر[1].

---

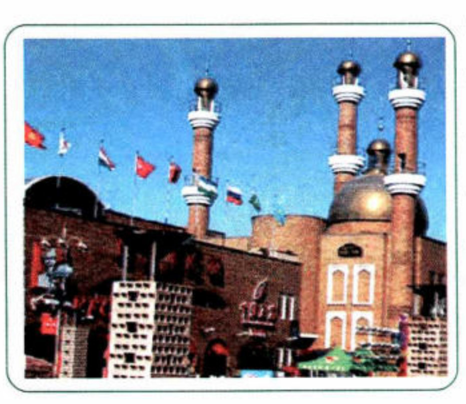
(١) الإِسلام وكفى، ص٣٠٧ وما بعدها.



وفي منتصف القرن العاشر الميلادي أَسلم ساتوق بغراخان Satuq Bghra khan مؤسِّس أُسرة إِيلخان الإسلاميَّة في كاشغر؛ على يد أَبي النَّصر السَّاماني الَّذي كان على جانب عظيم من التَّقوى، ودماثة الخُلُق.

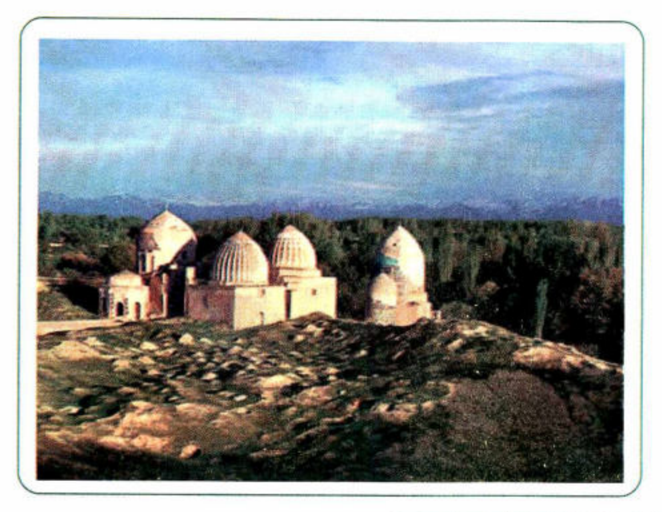
وفي سنة ٩٥٦م هاجر سلجوق مع قبيلته من تركستان إِلى بخارى، حيث دان هو وأَتباعه بالإِسلام، وأَصبحوا من المتحمِّسين له، وأحيوا مجد الإِسلام بتوحيد الممالك الإِسلاميَّة في غرب آسية في دولة واحدة.

وزمن الدَّولة الغوريَّة الَّتي امتدت من خراسان حتَّى شمال الهند، انتعشت حركة انتشار الإِسلام بين الأَفغان من خلال دعاة من العرب والهنود، دون عنف أو قوَّة[١].

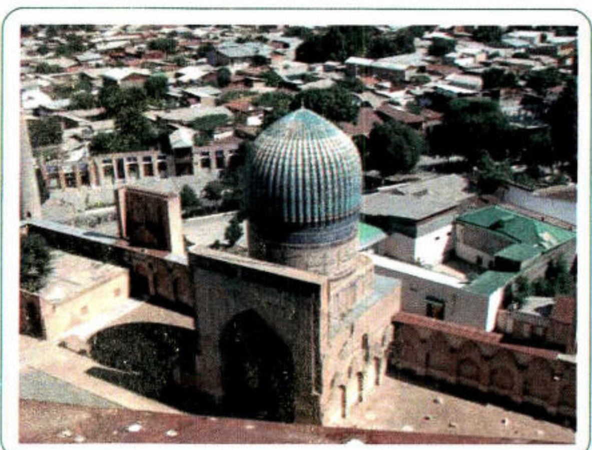


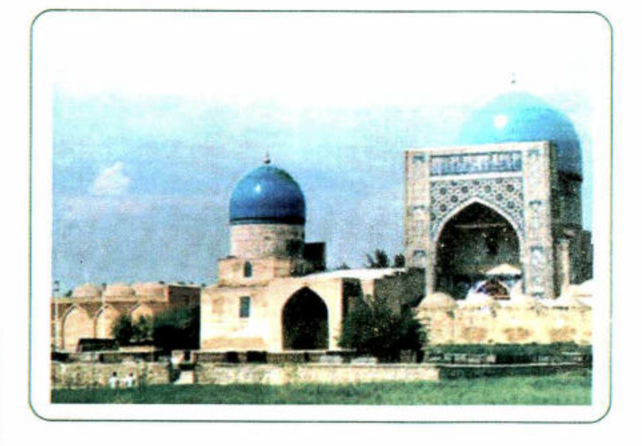
كاشغر

(١) الدَّعوة إِلى الإِسلام، ص ٣٤٤ -٣٤٧.



سمرقند





بخاری



انتشار الإِسلام بين المغول والتَّتار[١]

لا يعرف الإِسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول، لقد حوَّل جيش جنكيز خان هراة وبخارى وسمرقند وبلخ.. الَّتي كانت من قبل فخر الحضارة الإِسلاميَّة، وكعبة العلوم، رماداً تذروه الرِّياح، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد حاضرة الخلافة العبَّاسيَّة، حتَّى تمنَّى ابن الأَثير الجزري حينما أَراد تدوين حوادث سقوط بغداد بيد التَّتار: «يا ليت أُمِّي لم تلدني، فمن الَّذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإِسلام والمسلمين؟»[٢].

ولكن لم يكن بدٌّ أَن ينهض الإِسلام من تحت أَنقاض عظمته الأُولى،

---

(١) تتار أَوتتر: اسم أُطلق على شعب خليط من عدَّة قبائل بدويَّة سكنت آسية الوسطى وأَنحاء من سيبرية وتركستان وبلاد القيرغيز، وبعض المناطق المجاورة لشمال الصِّين، وهم خليط من الشُّعوب المغوليَّة والتُّركيَّة، وأُطلق اسم التَّتار على المحاربين من المغول والتُّرك الَّذين اشتركوا في حروب جنكيز خان، واتَّسع مدلول هذا الاسم، فشمل المغول أنفسهم، (القاموس الإِسلامي ١/ ٤٤٠).

(٢) الكامل في التَّاريخ، حوادث عام ٦١٧هـ.

وأَطلال مجده التَّالد، فاستطاع بدعاته الحكماء أَن يجذب أُولئك الفاتحين الوحوش، ويحملهم على اعتناقه بقناعة[1]، دون سيف أَو دماء، فهم الأَقوى عسكريّاً آنذاك، ولكنهم الأَضعف فكريّاً وحضاريّاً.

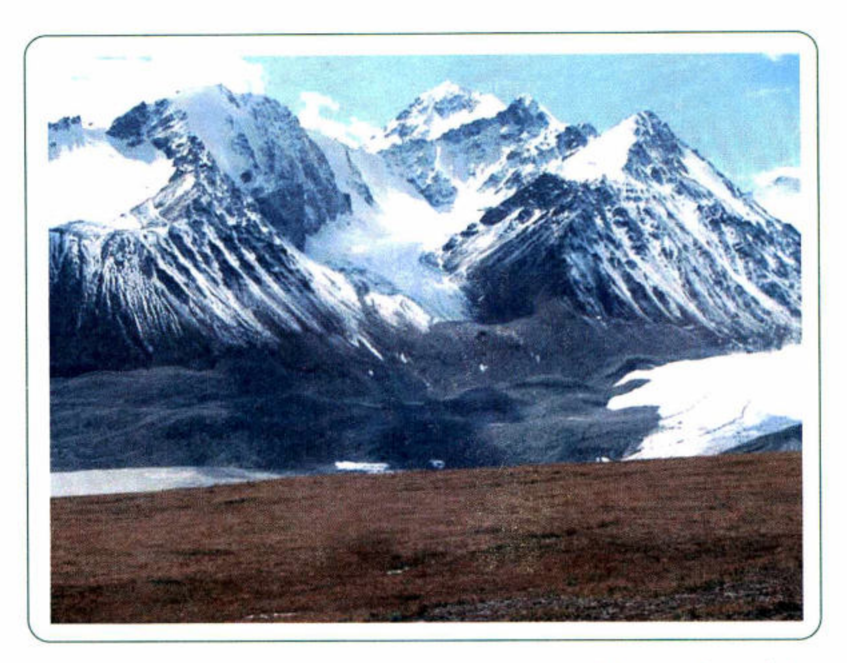
كانت ديانة المغول الشَّامانيَّة Shamanism، وهي ديانة وثنيَّة فيها تعدُّد آلهة، تقدم لها القرابين، وبعد فتوحاتهم احتكُّوا بالبوذيِّين والمسيحيِّين والمسلمين، وتنافس أَتباع هذه الدِّيانات الثَّلاث لتحويل أُولئك إِلى دينهم.

بعد وفاة جنكيز خان؛ انقسمت الإِمبراطورية إِلى أَربعة أَقسام، بين أَولاده الأَربعة:

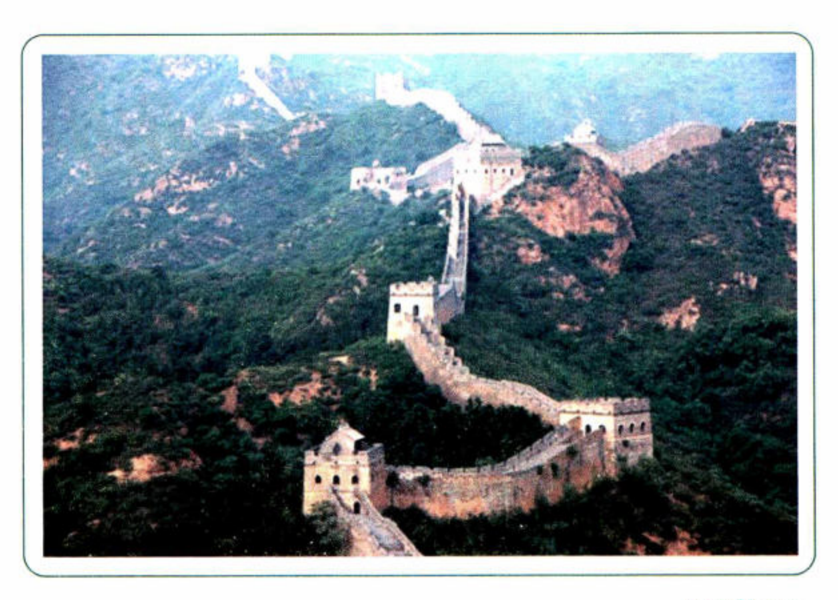
- أَجتاي، وحكم الجزء الشَّرقي من الإِمبراطوريَّة، (الصِّين).
- جغطاي، وحكم الجزء الأَوسط.
- باتو، وحكم الجزء الغربي (خان القبيلة الذهبيَّة).
- تولوي، وحكم بلاد فارس، الَّتي ضم إِليها هولاكو - مؤسِّس أُسرة إِيلخانات المغول في فارس - جزءاً عظيماً من آسية الصُّغرى.

ومع وجود العقبات الكبيرة القاسية ضد المسلمين حتَّى زمن أَرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١م)، رابع إِيلخانات المغول في فارس، ومع جميع المصاعب، أَذعن هؤلاء المغول، وكان بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧م) أَوَّل من أَسلم من أُمراء المغول، وكان رئيساً للقبيلة الذهبيَّة في روسية، وصار جيشه كلُّه مسلماً، يحمل كلُّ فارس سجادة للصَّلاة، ولم يكن في جيشه شخص واحد يتعاطى أَيَّ مسكر، وانتشرت في بلاده كتب الدِّين، والمناظرات العلميَّة، ودخل بركة خان في حلف مع الظاهر بيبرس سلطان

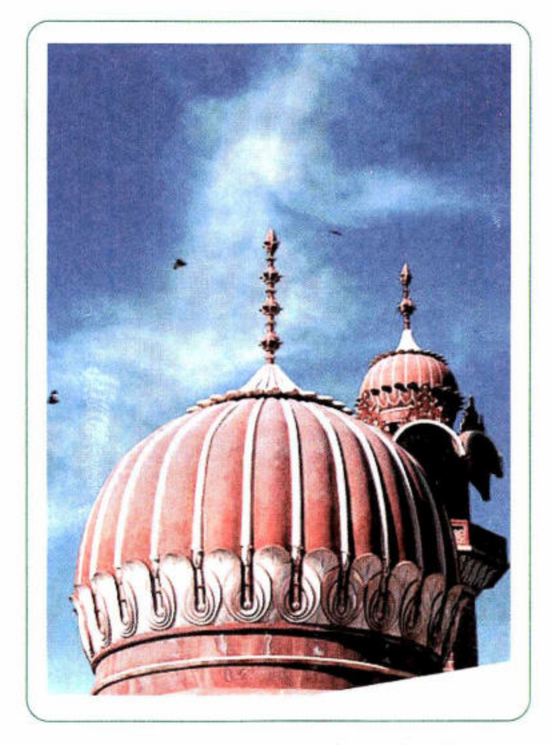
(١) الدَّعوة إِلى الإِسلام، ص ٢٥٠.



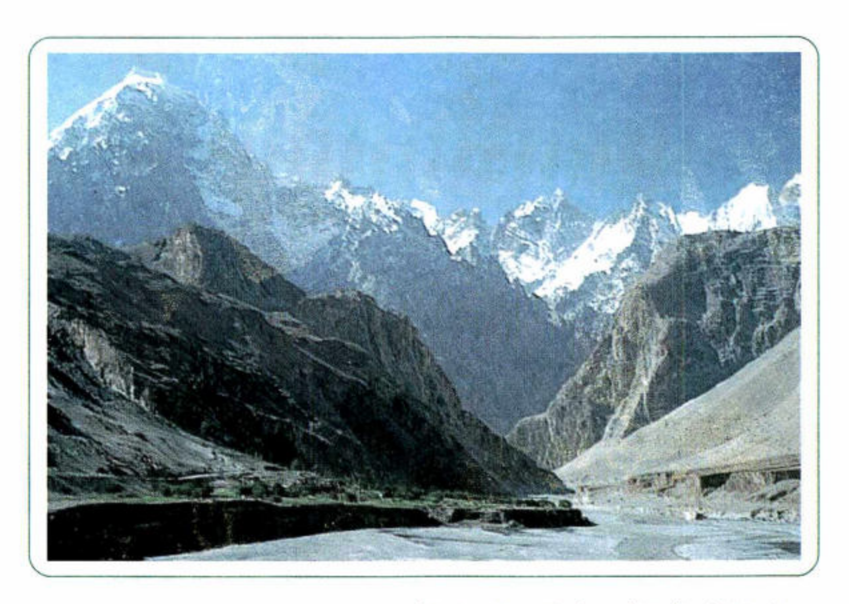
الطبيعة في منغولية



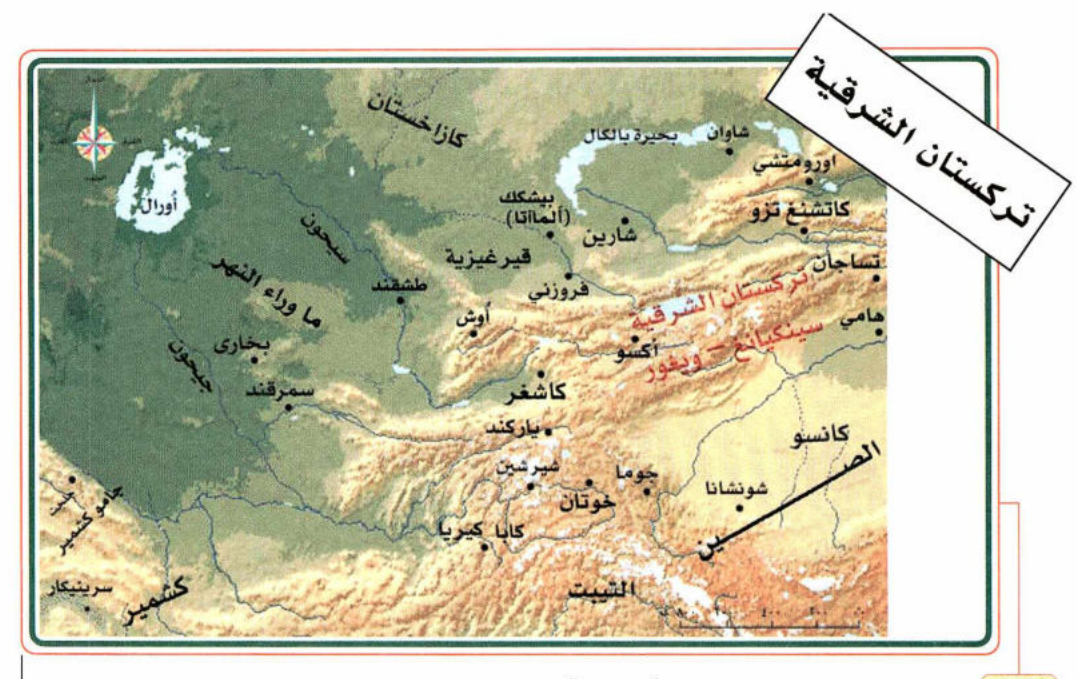
سور الصين



نموذج بناء مغولي



البيئة في قره قورم (عاصمة المغول)



المماليك في مصر والشَّام ضدَّ إيلخانات المغول في فارس، ضد هولاكو وجيوشه الوثنيَّة[١].

وكان تكودار أحمد (١٢٨٢- ١٢٨٤م) أوَّل إيلخانات المغول الَّذين اعتنقوا الإسلام في فارس، نشأ مسيحيّاً وعُمِّد باسم نيقولا، ولكنَّه دان بالإسلام حينما بلغ سنَّ الرُّشد، عن طريق اتِّصاله بالمسلمين، وبعث بنبأ إسلامه برسالة إلى السُّلطان قلاوون المملوكي، ركَّز فيها على «رخاء نسائم الأمن والأمان، تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدَّواء، وإنَّنا لا نحب المسارعة إلى هزِّ النِّصال للنِّضال إلَّا بعد إيضاح المحجَّة، ولا نبادر لها إلَّا بعد تبيين الحقِّ، وتركيب الحجَّة، وأدخلنا السُّرور على قلوب النَّاس، وعفونا عن كلِّ من اجترح سيئة واقترف، وقابلناه بالصَّفح»[٢].

إنَّ من يدرس تاريخ المغول ليرتاح حينما يتحوَّل فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع، وما سفكوه من الدِّماء، إلى أسمى عواطف

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٥٩.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

الإنسانيَّة، وحبِّ الخير، الَّتي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التَّاريخيَّة الَّتي كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك، والَّتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي[1].

ولمَّا دخل غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأناً في الدِّين الإسلامي سنة ١٢٩٥م - وكان بوذيّاً - جعله دين الدَّولة الرَّسمي في فارس، واقتفى أثره جنده وقوَّاده، ولما خلفه أخوه محمد خدابندة عام ١٣٠٤م، أسلم بتأثير زوجته، ويذكر ابن بطوطة: أنَّ سيرة ذلك الأمير كان لها أثر كبير في نفوس المغول، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدِّين السَّائد في دولة إيلخانات فارس[2].

إسلام أُسرة جغطاي (الجزء الأوسط من الإمبراطوريَّة المغوليَّة): اعتنق تغلق تيمورخان (١٣٤٧ - ١٣٦٣م) ملك كاشغر الإسلام على يد رجل من أهل الورع والتَّقوى في مدينة بخارى، ولمَّا عرض الإسلام على أُمرائه؛ تبيَّن أنَّهم أسلموا قبله بسنوات[3].

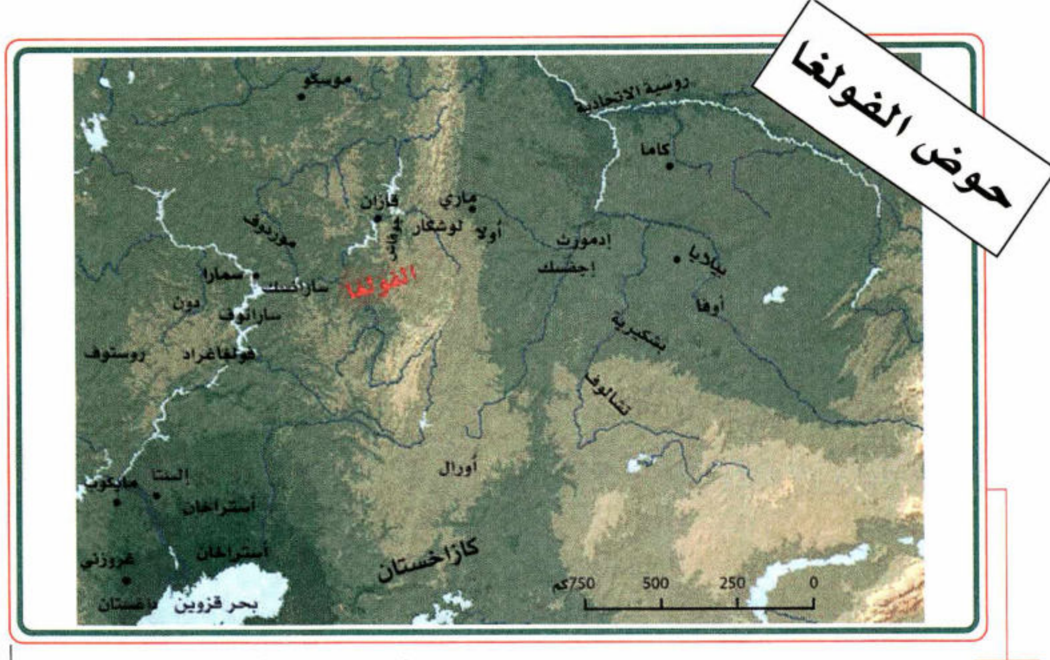
وبث تغلق تيمورخان الدُّعاة بين المغول البدو، مثل إسحاق ولي، وفي كاشغر وباركند وخُتان، وكان في القرن الرَّابع عشر الميلادي تأثير كبير لالبير Pir وتلاميذه في نشر النَّقشبنديَّة في آسية الوسطى.

أمَّا في حوض الفولغا وحاضرتها سيريه Serai، حيث القبيلة الذَّهبيَّة، نشر الإسلام أُوزبك خان (١٣١٣ - ١٣٤٠م) بين القبائل الأُوزبكيَّة في أواسط آسية، رافق ذلك تسامح مع المسيحيِّين، حتَّى سمح لهم بمتابعة التَّبشير لدينهم، ونشره في بلاده لمن يقتنع به[4]، ومنح أُوزبك خان

---

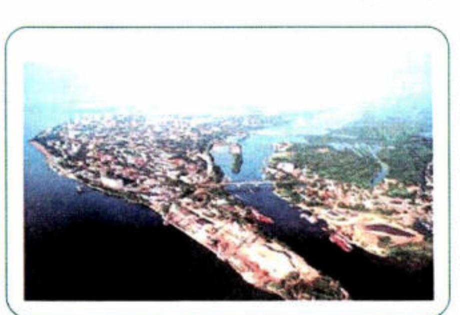
(١) المرجع السَّابق، ص ٢٦٣.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٦٤.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢٦٥.
(٤) المرجع السَّابق، ص ٢٧٢.

حوض الفولغا



المطران بطرس سنة ١٣١٣م عهداً: «من أُوزبك إِلى أُمرائنا.. إِنَّ كنيسة بطرس مقدَّسة فلا يحلُّ لأَحد أَن يتعرَّض لها، أَو لأَحد من خدَّامها أَو قسِّيسيها بسوء، ولا أَن يستولي على شيء من ممتلكاتها أَو رجالها، ولا أَن يتدخل في أُمورها، لأَنَّها مقدَّسة كلُّها، ومَنْ خالف أَمرنا هذا بالتَّعدي عليها، فهو أَثيم أَمام الله، وجزاؤه منَّا القتل، ولندع المطران ينعم بالأَمان والبهجة، ولندعه - أَو وكيله - يقرر وينظِّم كلَّ المسائل الكنسيَّة بقلب سليم، وفؤاد عادل قويم.. إلخ»[١].

حقيقة كأَنَّها خيال، دعت البابا يوحنا الثَّاني والعشرين سنة ١٣١٨م إِلى إِرسال شكر إِلى الأَمير المسلم أُوزبك خان، لما حقَّقه من عطف على رعاياه المسيحيِّين، ومعاملته الطَّيبة لهم[٢].



سمارا (حوض الفولغا)

---

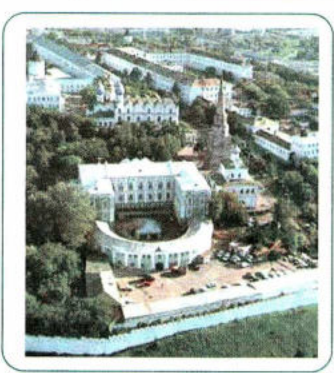
(١) المرجع السَّابق، ص ٢٧٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٧٣.

تتارستان





جامع قازان عاصمة تتارستان



قازان



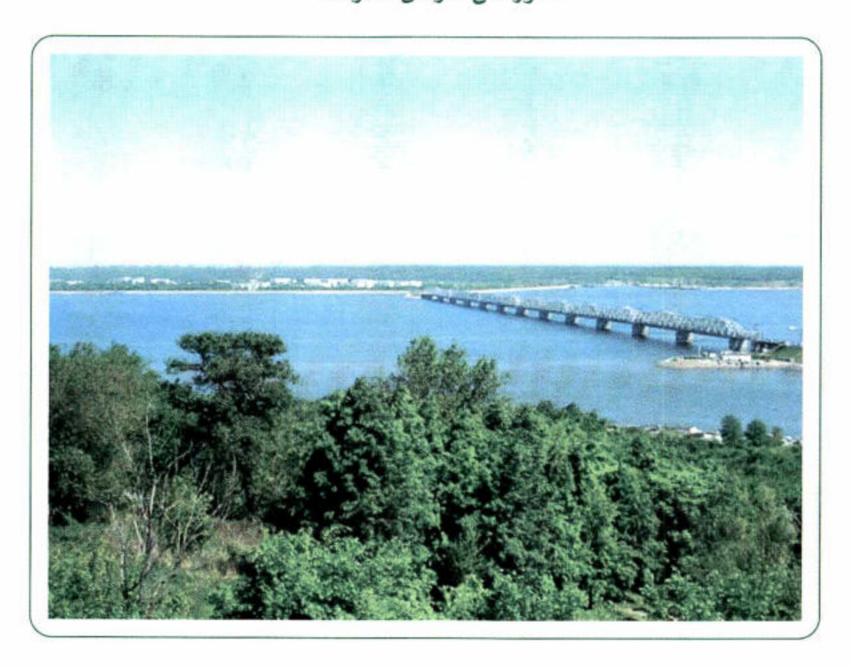
البيئة في تتارستان



كاشغر

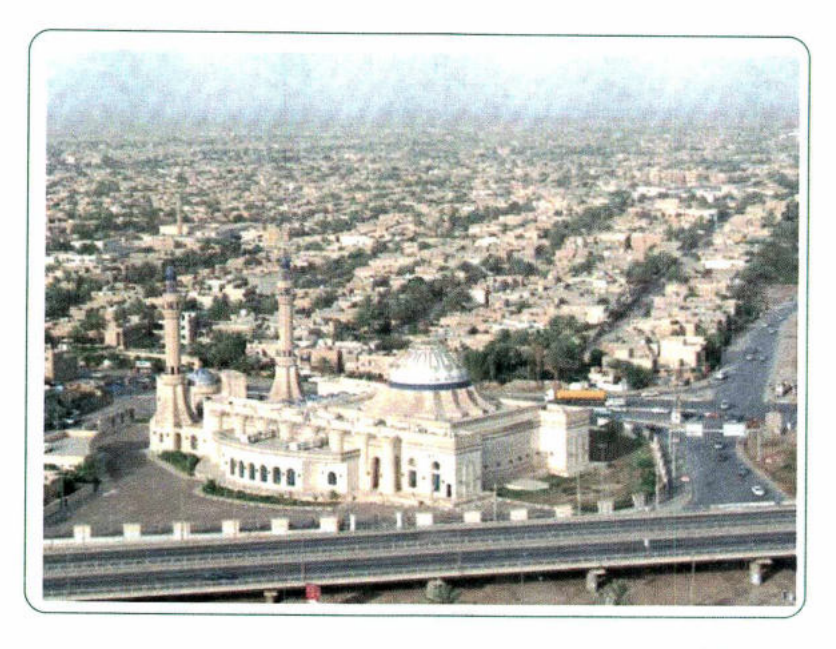


صور من حوض الفولغا

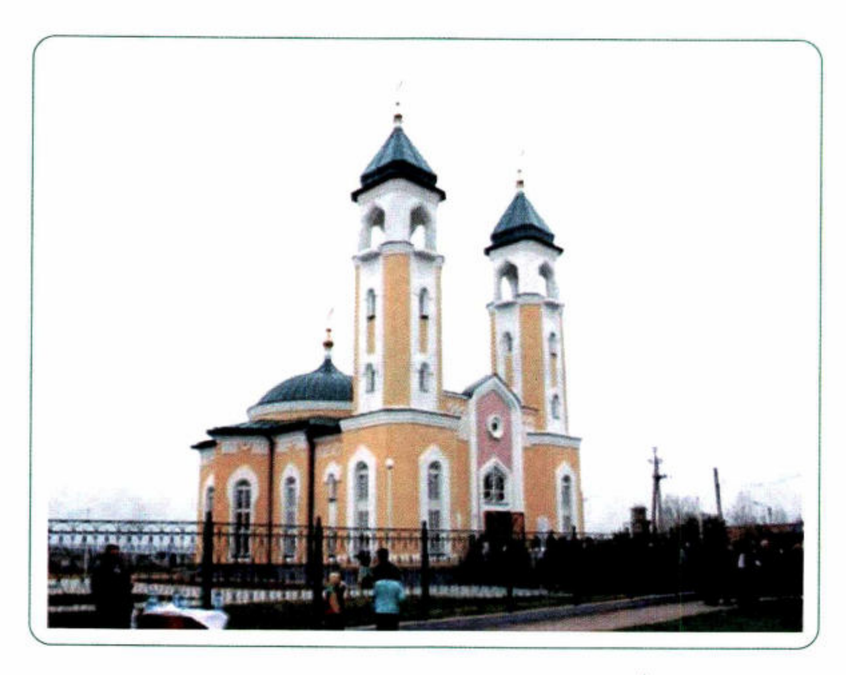




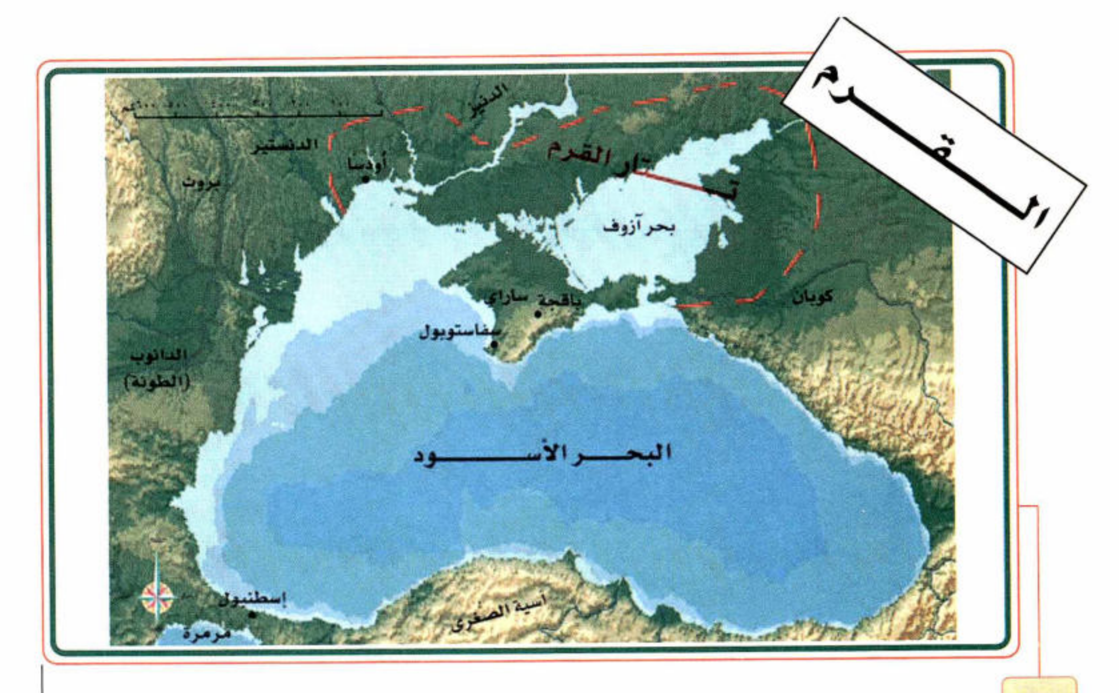
أرسل الخليفة المقتدر بالله أحمد بن فضلان سنة ٣٠٩هـ - ٩٢١م إلى بلاد البلغار (حوض الفولغا) ليفقه المسلمين في الدِّين ويعرفهم شرائع الإسلام بناءً على طلبهم.



بغداد



مسجد في أستراخان



وفي روسية:

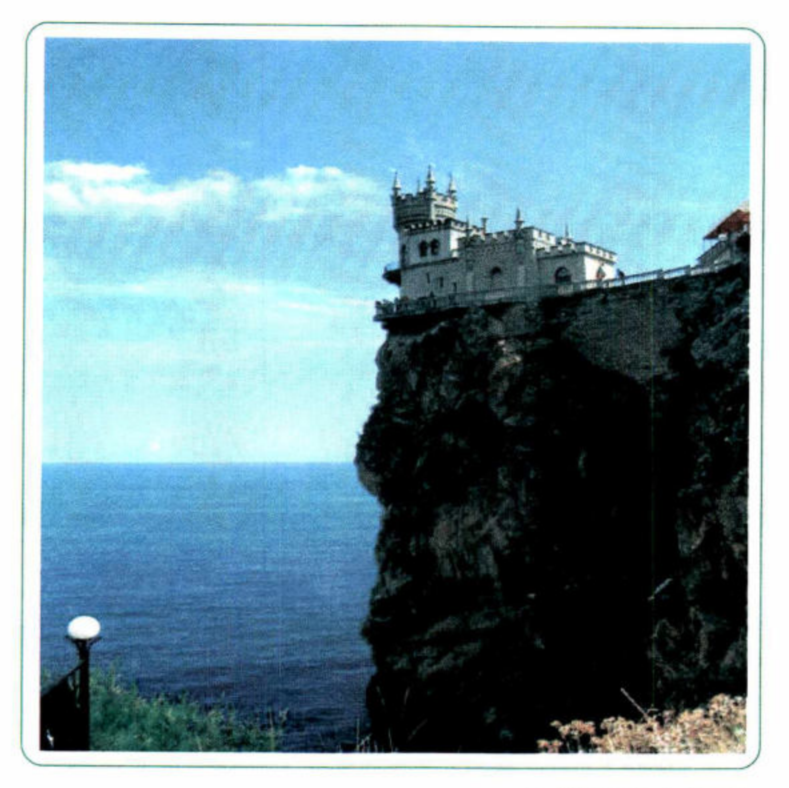
انتشر الإِسلام في القرن العاشر الميلادي على ضفتي نهر الفولغا على يد تجَّار مسلمين كانوا يتاجرون في الفِرَاء، وأَرسل إِليهم الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢م) رسولاً من قِبَله، يقوم بتثبيتهم على الدِّين، وتعليمهم مبادئ الإِسلام وشعائره.

فلاديمير ملك روسية لم يستطع تحريم الخمر على نفسه، فتنصَّر سنة ٩٨٨م، وأَصدر مرسوماً يقضي بأَن يذعن الرُّوس كافة للتَّعميد وفق طقوس الدِّيانة المسيحيَّة، وأَصبحت المسيحيَّة ديانة الرُّوس[١].

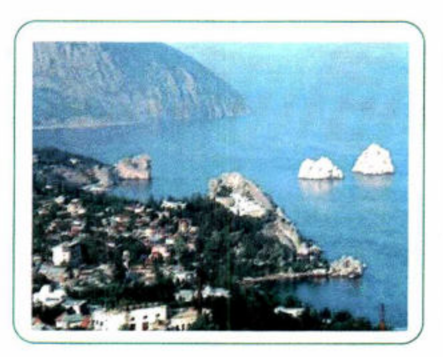
وفي عام ١٩٠٥م صدر مرسوم ينصُّ على التَّسامح الديني في روسية، فنشط المسلمون التَّتار، واستطاع تتار القرم جذب الكثيرين إِلى الإِسلام، ووصل جموع من المسلمين التَّتار إِلى ليتوانية وبولونية أَوائل القرن الخامس عشر الميلادي[٢].

---

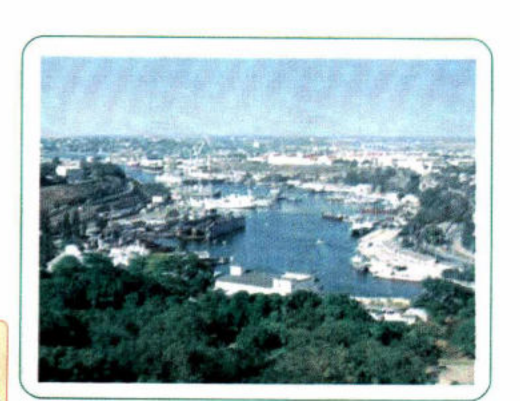
(١) المرجع السَّابق، ص ٢٧٤.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٧٦.



من شبه جزيرة القرم



يالطا



سفاستوبول



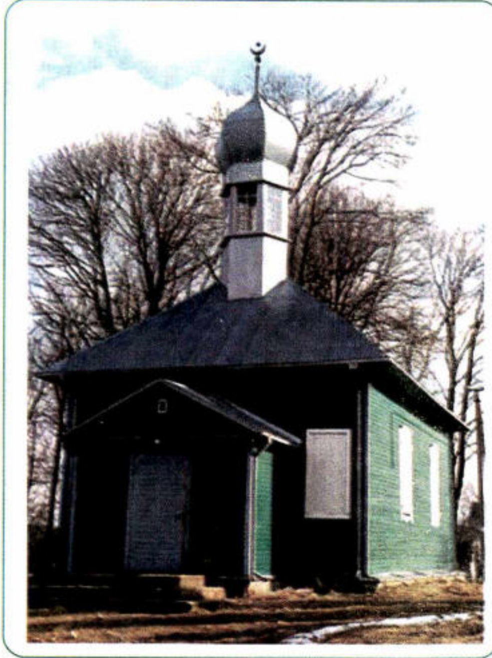
ومن أَغرب الحوادث في تاريخ الدَّعوة إِلى الإِسلام؛ ما كان من تحوُّل القيرغيز في آسية الوسطى على أَيدي علماء التَّتار الَّذين نشروا الإِسلام بينهم في القرن الثَّامن عشر حيث بُنيت المساجد والمدارس، لقد شقَّت الدَّعوة طريقها إِلى القيرغيز عبر روسية المسيحيَّة بدعاة على أَنَّهم دعاة من قِبَل الحكومة الرُّوسيَّة، وهذا مثال وحيد لحكومة مسيحيَّة شاركت في نشر الإِسلام، ويعلِّق السِّير توماس أَرنولد على ذلك بقوله: لعلَّها رأَت بهم برابرة وحوشاً لا يمكنهم فهم الإِنجيل بيسر[1].

وفي زمن الإِمبراطورة كاترين الثَّانية سنة ١٧٧٨م؛ طلبت تعهُّداً من كلِّ تتري يدخل بالمسيحية بترك خطاياه الوثنيَّة، وتجنُّب كل اتِّصال بالمسلمين، ولكنهم جميعاً اعتنقوا الإِسلام، واعتُرِف عام ١٨٧٢م أَنَّه من المحال أَن يفوز المبشِّرون بإِدخال المسيحيَّة بين التَّتار، ذلك أَن «استمالة مواطني قازان أَمر صعب المنال»[2].

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٧٩.

وصار القانون الجنائي الرُّوسي يتضمَّن عقوبات صارمة لمن يحيد عن الكنيسة الأُرثوذكسيَّة، ويُعاقب كلُّ شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحي إلى الإسلام، بتجريده من الحقوق المدنيَّة كافة، وبحبسه مع الأشغال الشَّاقَّة مدَّة تتراوح بين ثماني سنين وعشر، ومع كل هذه الأوامر الحكوميَّة، نجحت الدَّعوة الإسلاميَّة في جذب القرى بأسرها إلى الإسلام، ولاسيما القبائل الرُّوسيَّة الَّتي تقيم في الشَّمال الشَّرقي[1].



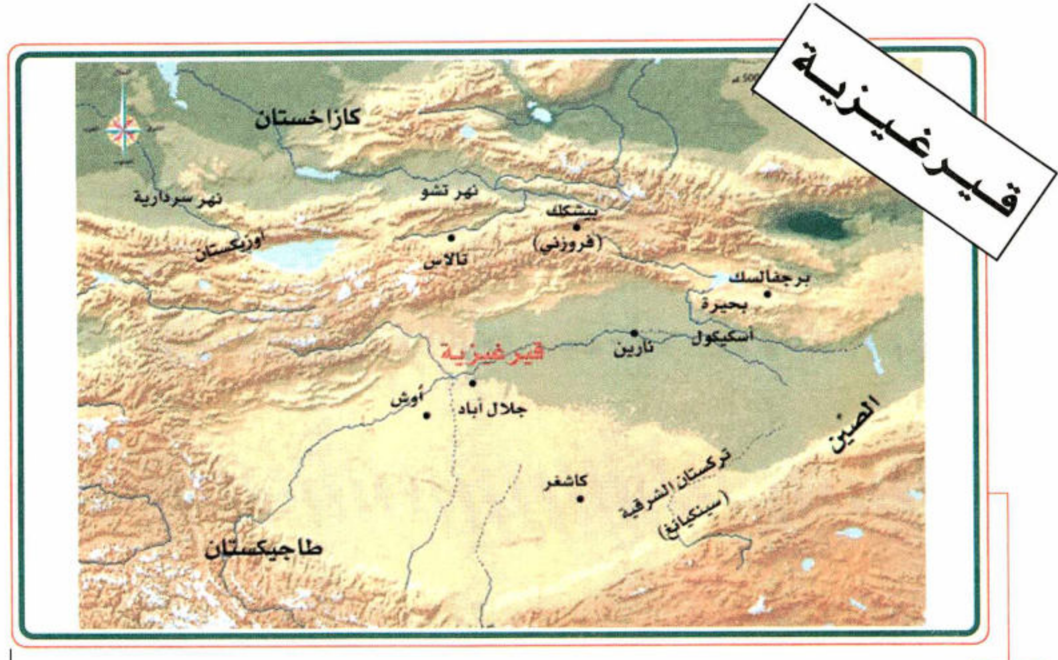
مسجد تتري (ليتوانية)

وتعدُّ مدينة قازان المركز الرَّئيسي لنشاط هذه الدَّعوة، وكان يطبع في كلِّ سنة عدد كبير من الكتب الإسلاميَّة، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً، لاسيما على إثر صدور مرسوم حرِّيَّة التَّديُّن سنة ١٩٠٥م.



وارسو (عاصمة بولونية)

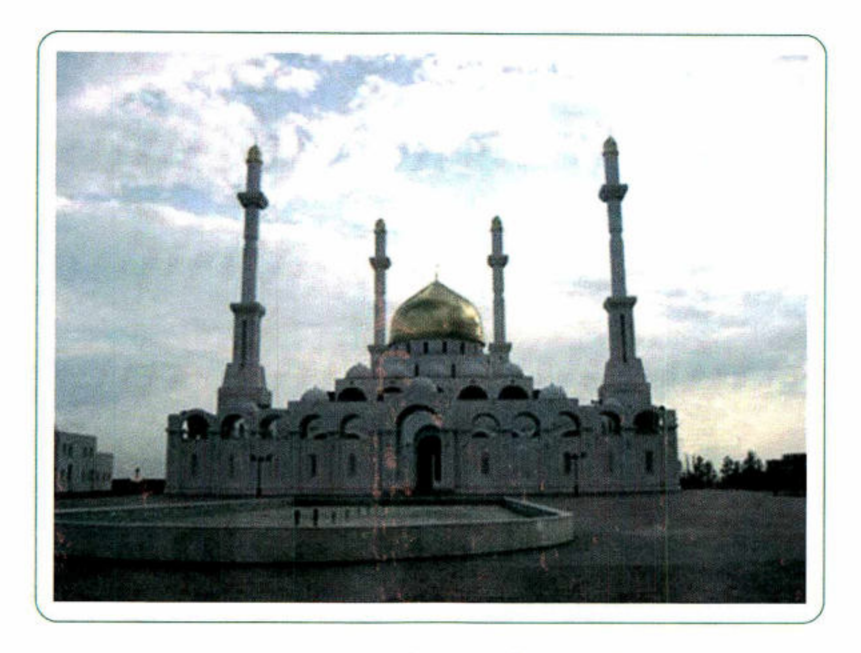
(١) المرجع السَّابق، ص ٢٨٠.



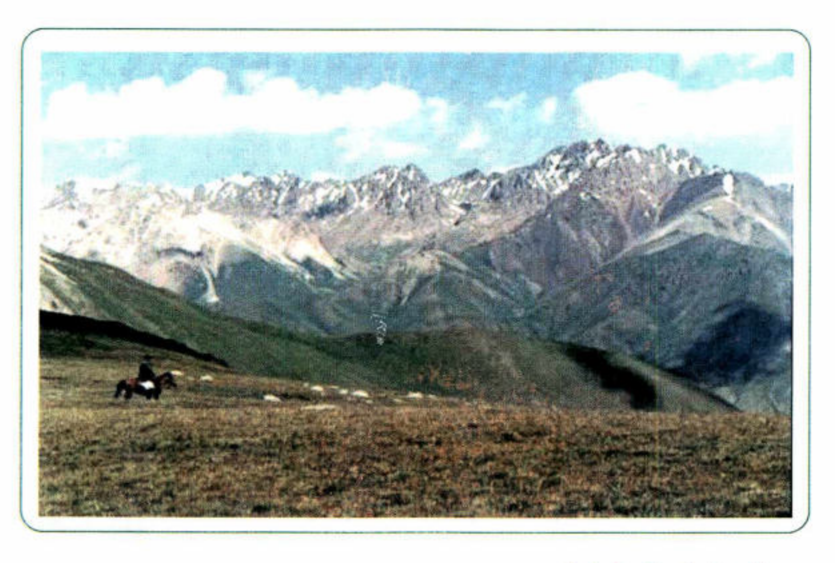
قرية أَتومفا Atomva اعتنقت الإِسلام سنة ١٩٠٩م، وأَسلم ٥٣,٠٠٠ نسمة بين سنتي ١٩٠٦ و١٩١٠م، يرجع ذلك إِلى مستوى الحياة الأَخلاقيَّة في المجتمع الإِسلامي، الَّذي كان أكثر رقيّاً، كما يرجع أَيضاً إِلى شعور التَّآخي الَّذي كان يشيع في هذا المجتمع، لقد كان الزِّي التَّتري علامة على تفوُّق الثَّقافة، لذلك أَسلمت قبائل بكلِّ أَفرادها مثل: الفوتياك Votiaks، والشِّيريمس Cheremiss، والفِن Finns، والشُّوفاش Chuvash[١].

النَّشاط الفعال يعدُّ صفة تتميَّز بها الدَّعوة الإِسلاميَّة الّتي كانت منبثَّة بين القبائل الوطنيَّة في ذلك الحين، وكانت كلُّ أُسرة تقبل الإِسلام تتلقَّى المعونة عيناً أَو نوعاً، فالبيت يبنى للفرد، ويباع الحقل والماشية وغيرهما لآخر، فإِذا أَسلمت أُسرات كثيرة في قرية من القرى، بُني لهم مسجد، وأُسِّست مدرسة لأَطفالهم[٢].

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٨٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٨٣.



مسجد إبراهيم بن عاشور (قيرغيزية)



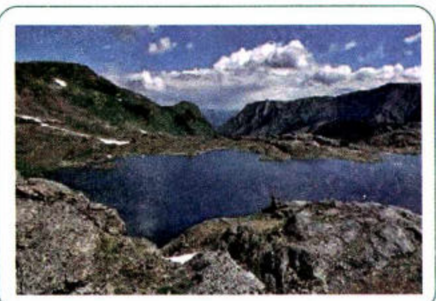
البيئة في قيرغيزية

سيبيرية



الإِسلام بين تتار سيبرية:

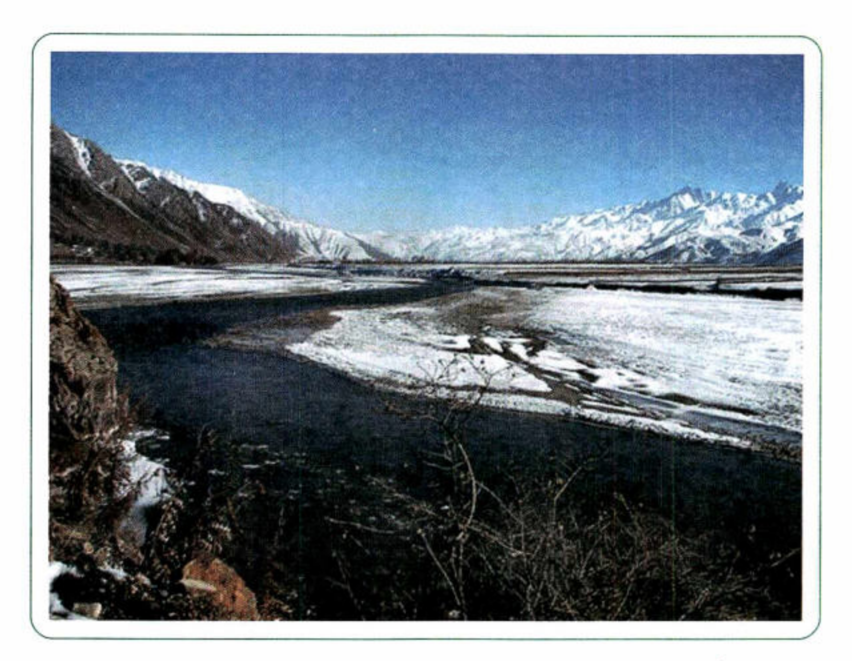
ترسخ قدم الإِسلام في سيبرية بعد النِّصف الأَخير من القرن السَّادس عشر، وانضوت تحت لواء الحكم الإِسلامي في عهد كوتشم خان. من سلالة جوجي خان أكبر أبناء جنكيز خان - نحو ١٥٧٠م، وطلب دعاة من بخارى، إِلى حاضرته على ضفَّة نهر إِرتس Irtish، كذلك قدم دعاة من قازان، وتعثَّرت جهود الدُّعاة حينما تقدَّم تيَّار الغزو الرُّوسي نحو سيبرية، ومع ذلك لم يتوقَّف تقدُّم الإِسلام، وفي سنة ١٧٤٥م تسرَّب الإِسلام لأَوَّل مرَّة إِلى قبائل التَّتار Baraba Tatars، وكانت مساكنهم بين نهري إِرتس Irtish، وأُوب Ob، ثمَّ أَسلموا بأَسرهم[١].



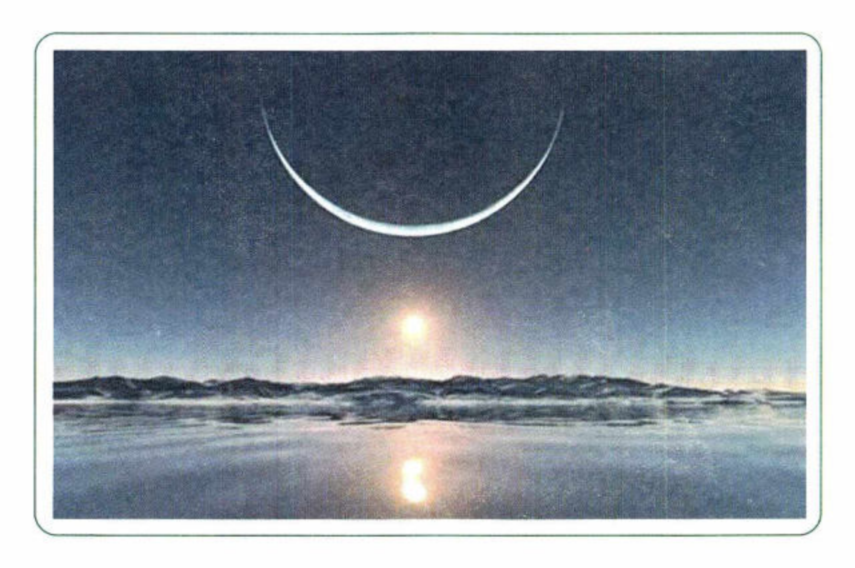
بحيرة بايكال

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٨٤.



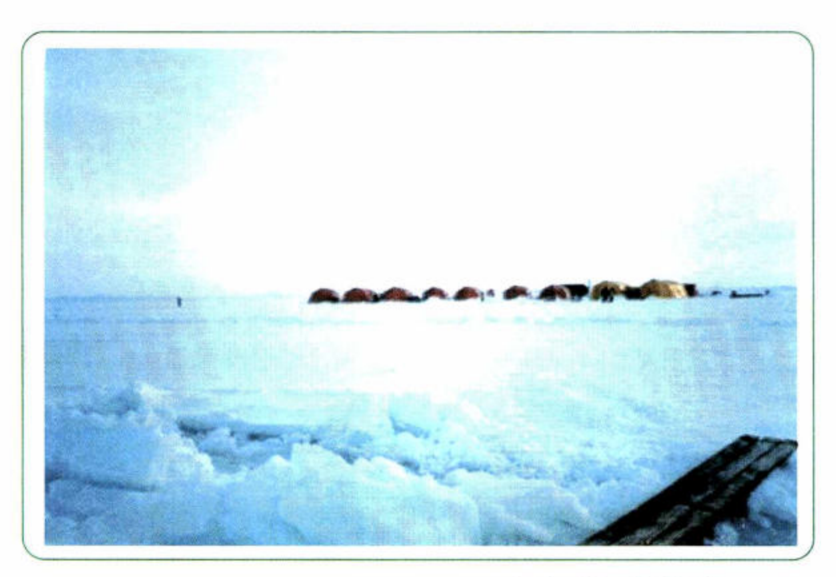
نهر أُوب (سيبيرية)



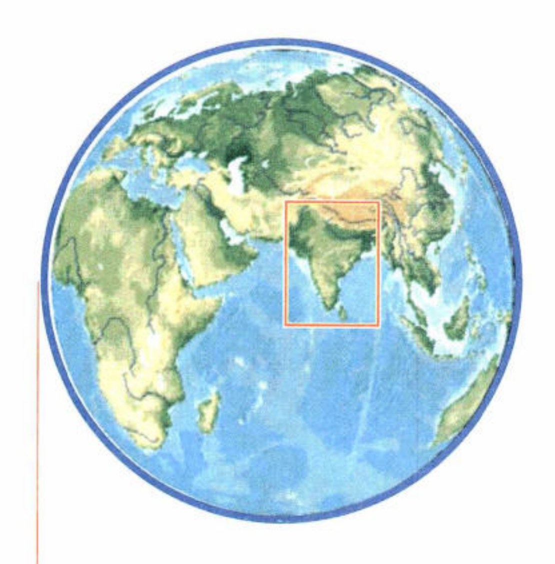
غروب الشمس في القطب الشمالي



ميناء فلاديفوستك



سيبيرية (القطب الشمالي)



انتشار الإِسلام في الهند

مذابح محمود الغزنوي، واضطهادات أُورنغزيب Aurangzeb، وحَمْل النَّاس على الختان على يد حيدر علي، وتيبو سلطان Tibu Sultan، لا يمثِّل انتشار الإِسلام في الهند.

مسلمو الهند - وهم عشرات الملايين - لم يكن للقوَّة والعنف نصيب

في تحويلهم إلى الإسلام، بل كان للتَّعليم والإقناع وحدهما اللَّذين لجأ إليهما الدُّعاة المسالمون، تأثيره الفعَّال في هذه السَّبيل[1]، من يكره على الإسلام يغتنم أوَّل فرصة للارتداد حينما يتلاشى أثر المكرهين، وهذا ما جرى مع تيبو سلطان الَّذي أذاع منشوراً سنة ١٧٨٨م على أهالي ماليبار: «ما دامت المرأة فيكم لا تقنع برجل واحد، بل تعاشر عشرة رجال، وما دمتم تذرون أُمَّهاتكم وإخوانكم ينغمس في حمأة الرَّذيلة، فإنَّ جميع النَّاس يولدون من سفاح، وما دمتم في علاقاتكم أكثر قحة من الوحوش الضَّارية، لذلك أرى لزاماً علي أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة، وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر، وإذا عصيتم أمري، وخالفتم نصحي، فقد أقسمت حقّاً غير حانث فيه ولا آثم، أن أحملكم على الصِّراط المستقيم، وأن أُنيلكم شرف الإسلام أجمعين، وأن أسوق جميع عظمائكم، كبيركم وصغيركم إلى مقرِّ حكومتي»[2].

الخلجيُّون (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م)، - كما يقول ابن بطوطة - سنُّوا عادة تقديم الشَّخص الَّذي أسلم حديثاً إلى السُّلطان، الَّذي كان يكسوه كسوة حسنة، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره[3]، وكلُّ من يسلم يعفى من الجزية، فتقدَّم الهندوس زرافات ووحداناً لنيل شرف الإسلام السَّمح.

الأُسقف لفروي Lefory: «إنَّ طابع تعاليم الإسلام الواقعيَّة قد جذب عقولاً لم تقنع بنظام الفكرة الحلوليَّة (وحدة الوجود) الَّتي تتميَّز بالغموض والنِّسبيَّة، إذ المعرفة البشريَّة شخصيَّة بحتة.. لمَّا اصطدم الإسلام مع ما عُرف عنه من تمثيل قوي لحقيقة وجود الله، وتلك الحقيقة الَّتي انبعثت

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ٢٨٥.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٨٨ -٢٩٤.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢٩٠، وقول ابن بطوطة في رحلته، دار التُّراث، بيروت ط. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م (أدب الرِّحلات)، ص٤٢٠.

منها، وهي طابع الحقّ الَّذي يتميَّز بالثَّبات المطلق والمحسوسيَّة البحتة، اصطدم بعقيدة الحلول الَّتي تقوم على الغموض، وبما قامت عليه هذه العقيدة من نسبيَّة، تبع ذلك بالضَّرورة أَنَّ الإسلام لم ينتصر في هذه المعركة فحسب، بل لقد غدا البلسم الشَّافي الَّذي سرى في شريان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا، وسرعان ما أَحيا عقولاً كثيرة، وبث فيها حياة أَكثر قوَّة ونشاطاً، تلك العقول الَّتي لم تقبل من تلقاء ذاتها أَن تتأَثر بمثل هذا التَّأثير الفكري»[١].

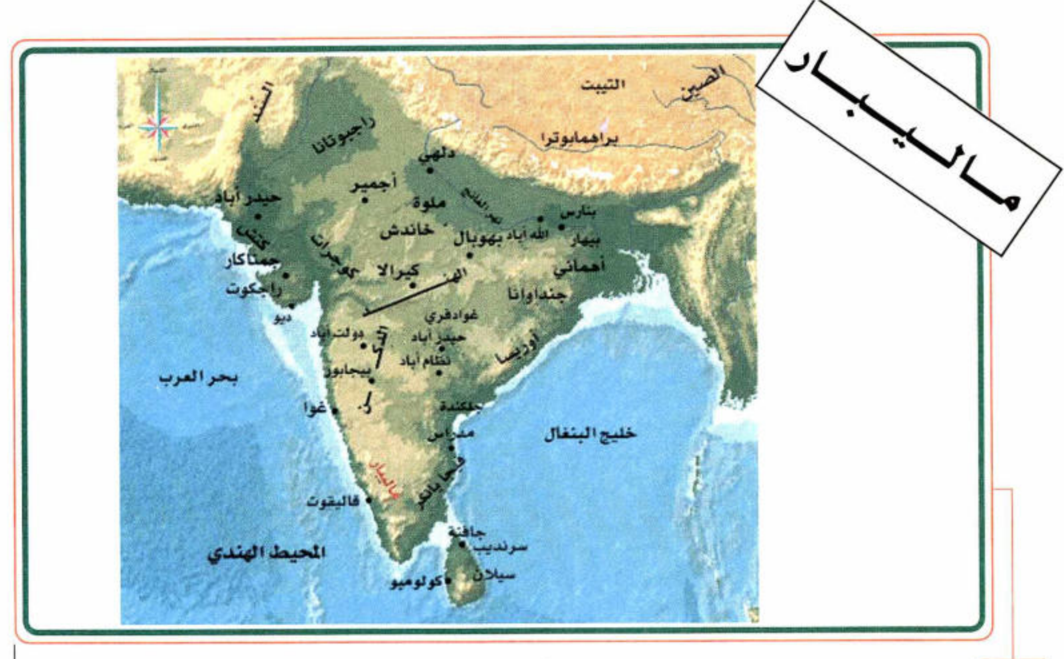
بروح التَّسامح، والحوار الهادئ، والأُسوة، تحوَّل كثير من أَفراد القبائل الهنديَّة الرَّاجبوت Rajaputs من الهندوسيَّة إِلى الإِسلام[٢].



من بيئة الهند

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٩٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٩١.

مـالـيـبـار

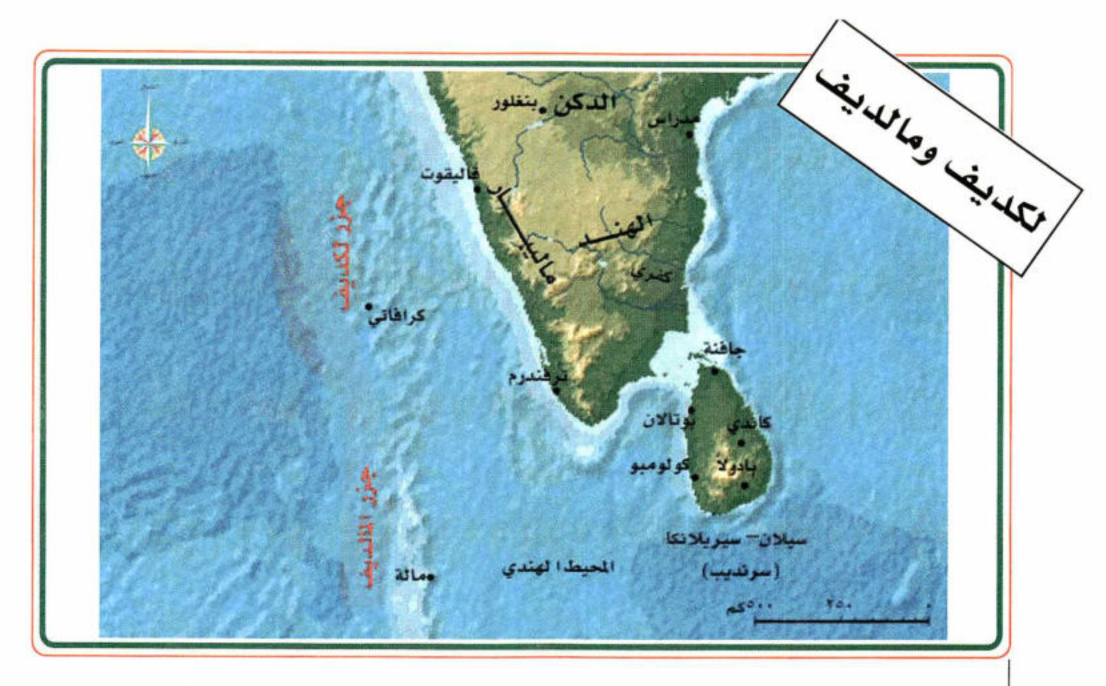


وصلها الإسلام منذ القرن الثَّامن الميلادي على يد تجَّار عرب وفُرْس، وعلى يد هجرات استقرَّت في السّاحل الجنوبي الغربي للهند، وبسبب العلاقات الوديَّة، وحماية الحكام الهنود ومؤازرتهم، وما تبع من رخاء البلاد بسبب بقاء التُّجَّار المسلمين؛ بدأ انتشار الإسلام، ولقي الَّذين دخلوا في الإسلام من أهالي هذه البلاد الاحترام والتَّقدير اللذين لقيهما التُّجَّار، مع أَنَّهم كانوا قبل إسلامهم ينتمون إلى أَحطّ طبقة في المجتمع[١]، وحال قدوم البرتغاليِّين دون دخول كلِّ سكان ماليبار في الإسلام[٢].

وهناك جماعة أُخرى من المسلمين في جنوب الهند، وهم الرفوتّان Ravuttans، الَّذين يعزون دخولهم في الإسلام إلى تعليم الدُّعاة، ومنهم نَترشاه (نادرشاه ٩٦٩ - ١٠٣٩م) أشهر هؤلاء الدُّعاة، الَّذي استقرَّ في ترتشنابلي Trichinapoly ومات فيها[٣].

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٩٦.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٩٨.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢٩٩.



وجماعة الدوديكولا Dudekulas في جنوب الهند، يعزون دخولهم في الإسلام إلى بابا فخر الدِّين، وقبره في بينوكنده Penukonda(١).

ومقرُّ الرَّئيس الرُّوحي لجماعة المسلمين في ماليبار في بونَّاني Ponnani مع مطلع القرن العشرين.

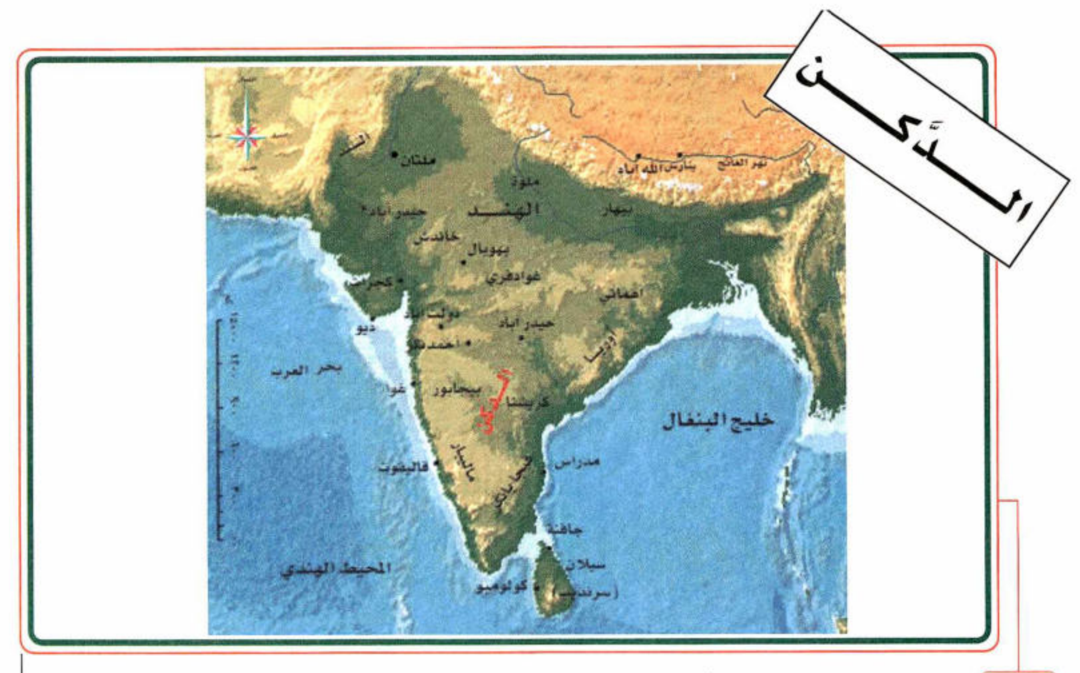
وعبر الإسلام إلى جزر لكديف وملديف من ماليبار. وأَهل هذه الجزر كلُّهم اليوم مسلمون، وصلها التُّجَّار العرب والفُرْس، الَّذين استوطنوا هذه الجزر، وتصاهروا إلى الأَهالي، وفي (ماله) العاصمة، ضريح الشَّيخ يوسف شمس الدِّين، وهو من تبريز(٢).

وفي هضبة الدّكن بدأَت الدَّعوة عام ١٣٠٤م على يد دعاة، مثل: بيرمها بير (المرشد الأَكبر النَّاسك)، وخوندمير حسيني، ومحمَّد بن سيد علي، وعمر عيدروس بيش بان(٣).

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٠٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٠٢.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٣٠٤.

الـدكـن



وفي مدينة المُلْتان تحوَّل النَّاس بمحض إِرادتهم إِلى الإِسلام، ومن أَسباب إِسلامهم التَّسامح الدِّيني الَّذي أَظهره العرب لرعاياهم الوثنيِّين، حتَّى رمَّم شعب برهمن آباد معبدهم، ولم يمنعوا من إِقامة شعائر دينهم الخاص[١].

أَمَّا السِّند، فحين ضعف الإِسلام السِّياسي، كان الإِسلام الدَّعوي لا يزال يحرز نجاحاً متوالياً في كلِّ أَرجاء السِّند.

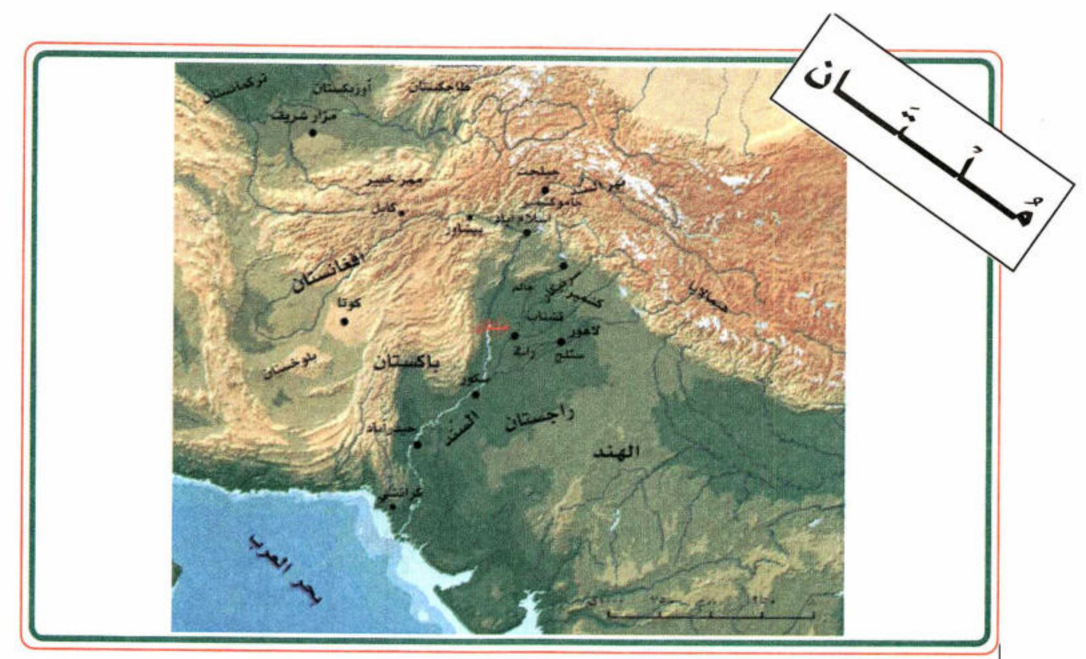
دخلت أُسرة سَمَّا Sammas الَّتي حكمت بلاد السِّند من سنة **١٣٥١** إِلى **١٥١٢**م في الإِسلام في عهد ننْدا بن بابينيه أَحد أُمراء هذه الأُسرة، فكان عهده عهد «سلام وطمأنينة، حتَّى إِنَّ هذا الأَمير لم يُطلب إِليه قط أن يركب لقتال، ولم ينزل له عدوٌّ قط إِلى ساحة الحرب»، ونجده يوصف في الوقت نفسه بأَنَّه «معروف بعدالته، وكثرة دخول النَّاس في الإِسلام في عهده»، ومرجع ذلك إِلى الوسائل السِّلميَّة في نشر الدَّعوة[٢].

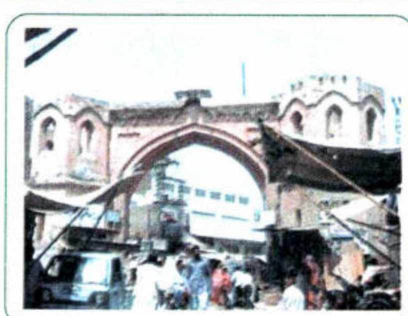
---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٠٥.

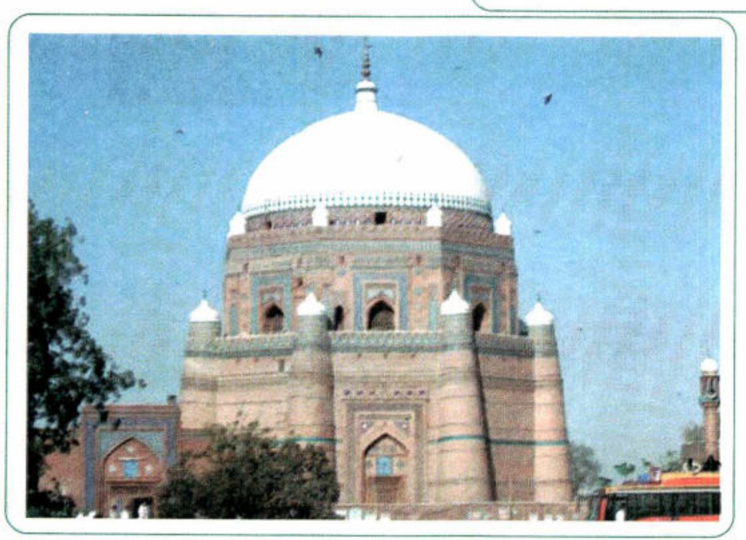
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٠٦.

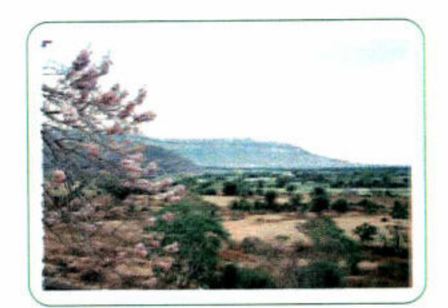
مُلْتَان





من ملتان

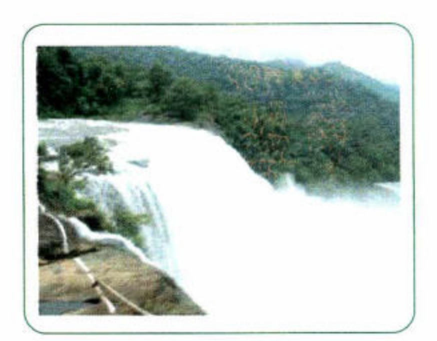


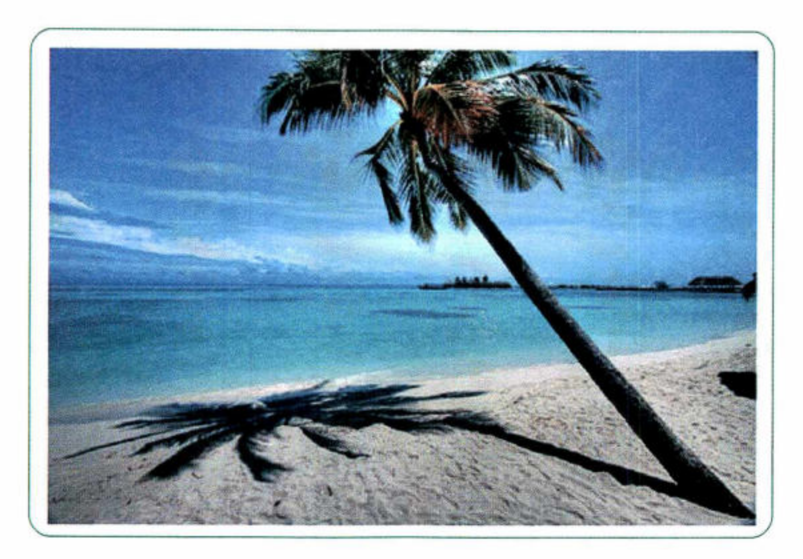



من الدكن



البيئة في ماليبار

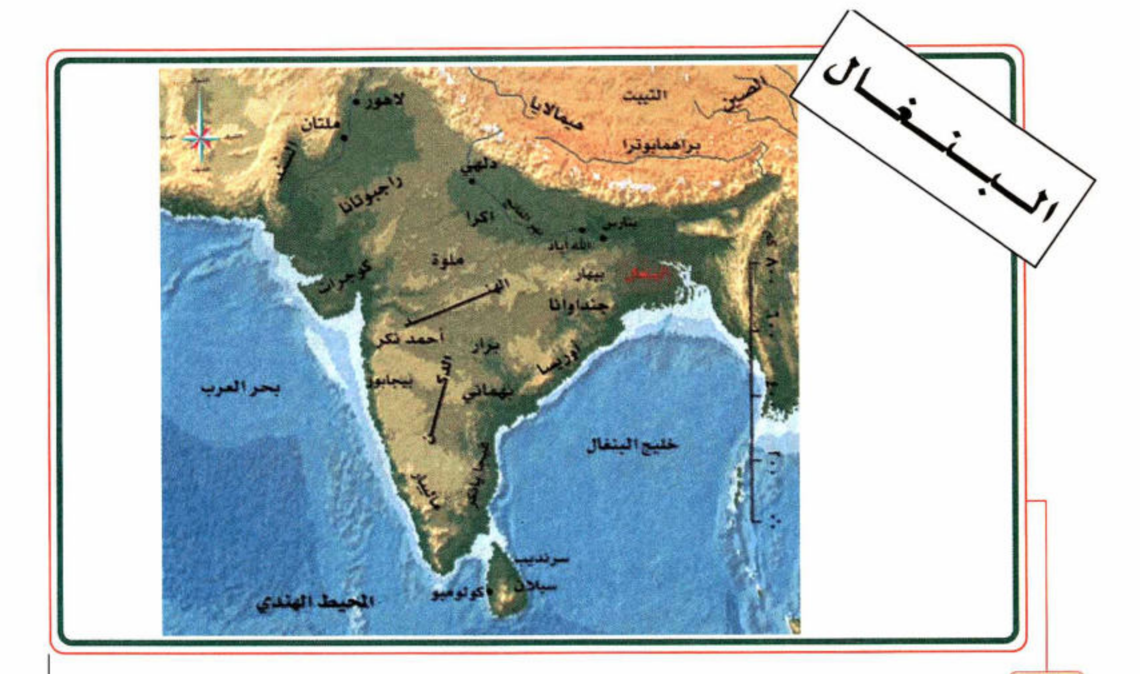


من جزر مالديف



من جزر لكديف

البنغال



وكوجرات وكتش

دخلهما الإِسلام على يد الإِمام شاه بيرانه[1].

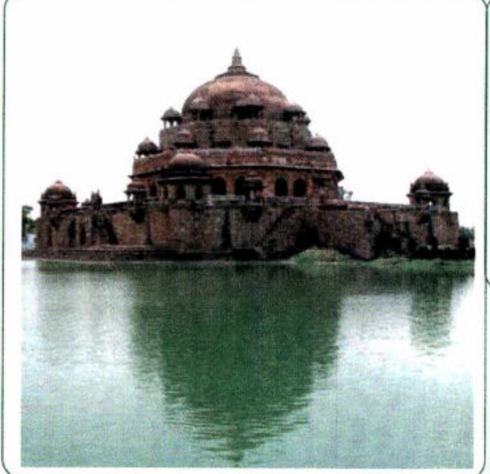
ولاقى دعاة الهند المسلمون أَعظم النَّجاح في البنغال، وتأَسَّست دولة إِسلاميَّة في نهاية القرن الثَّاني عشر الميلادي على يد محمد بختيار الخلجي، الَّذي فتح بهار والبنغال، واتَّخذ جور حاضرة الإِمارة الأَخيرة[2].

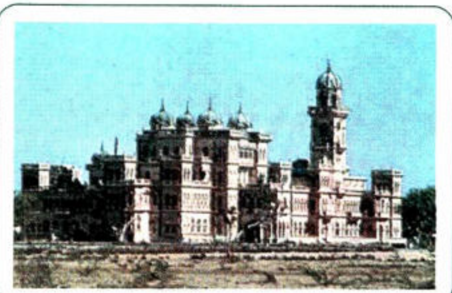
ومن روَّاد الإِسلام في راجبوتانا: خواجة معين الدِّين خشتي ١٢٣٤م[3].

لقد انتشر الدُّعاة المسلمون يعظون في شوارع المدن الهنديَّة، ويوزِّعون النَّشرات، ويشرحون تعاليم الإِسلام في بعض الطُّرقات العامَّة الرَّئيسيَّة، حتَّى دعا الهندوس من يلقي عليهم عظاته الإِسلاميَّة[4].

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣١١.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣١١.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٣١٦.
(٤) المرجع السَّابق، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

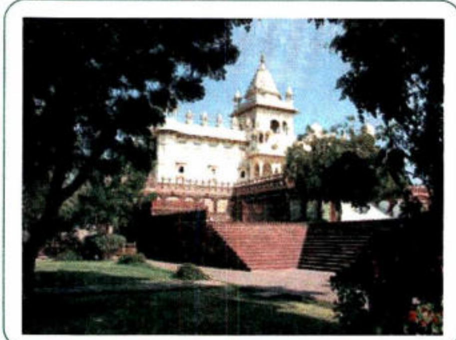




من كوجرات

من بهار

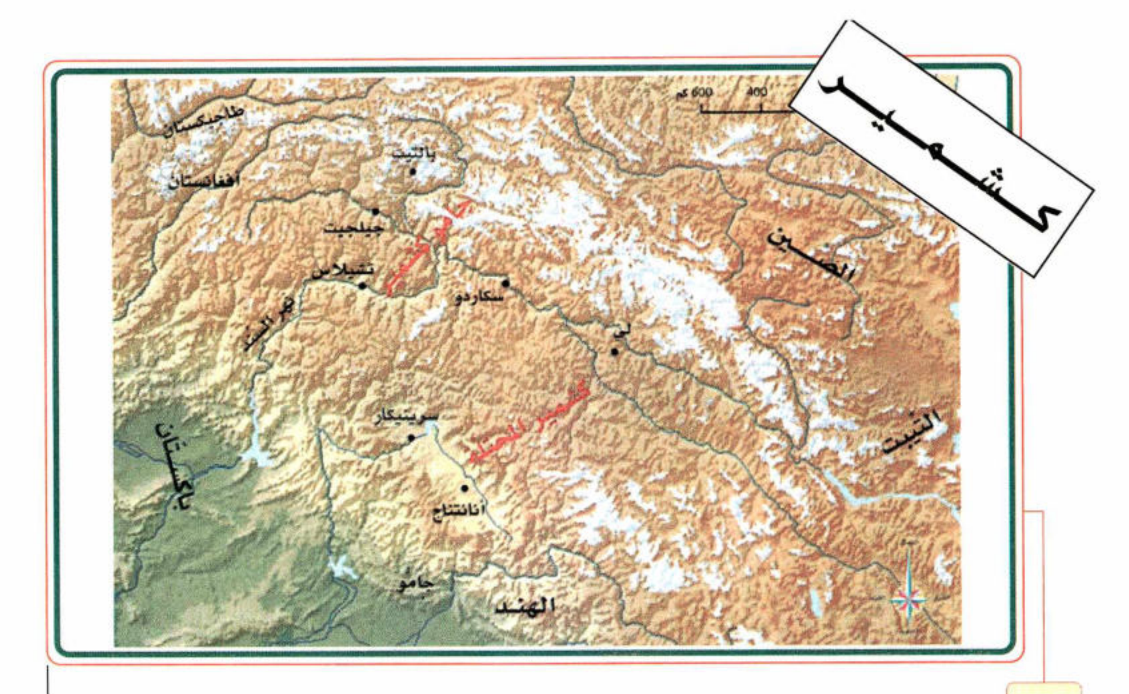




من راجبوتانا



من البنغال



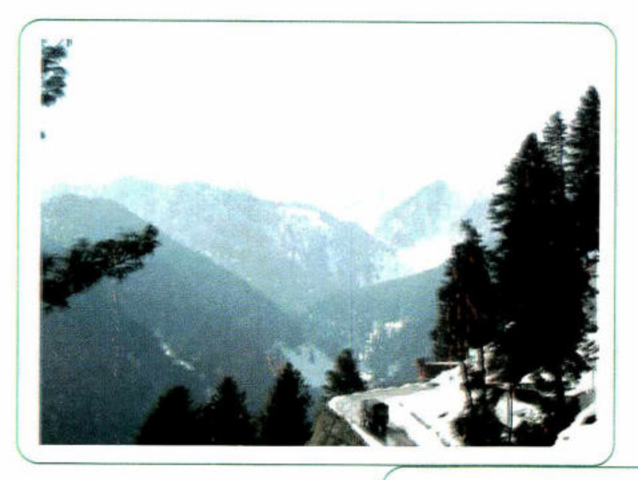
وفي كشمير:

نسبة المسلمين ٧٠٪ من مجموع السُّكَّان، وأوَّل ملوك كشمير اعتناقاً للإسلام بلبل شاه، في مستهل القرن الرَّابع عشر الميلادي، وفي ١٣٨٨م رواج عظيم على يد سيد علي الهمذاني، وفي عهد أكبر أضحت كشمير ولاية مغوليَّة، وفي عهد أُورنغزيب تحوَّل السَّواد الأعظم إلى الإسلام.

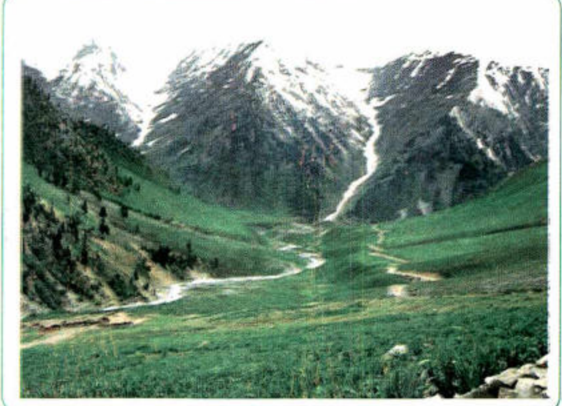
ونقل تجار كشمير المسلمون الإسلام إلى بلاد التِّيبت، وتزوَّجوا من نساء تيبتيَّات أسلمن، أكثر من ٢٠٠٠ أُسرة في لهاسا Lhasa عاصمة التِّيبت، وذكر «دخل في الإسلام فريق من بين سكان التِّيبت بمؤثرات أتت من فارس وتركستان»(١).

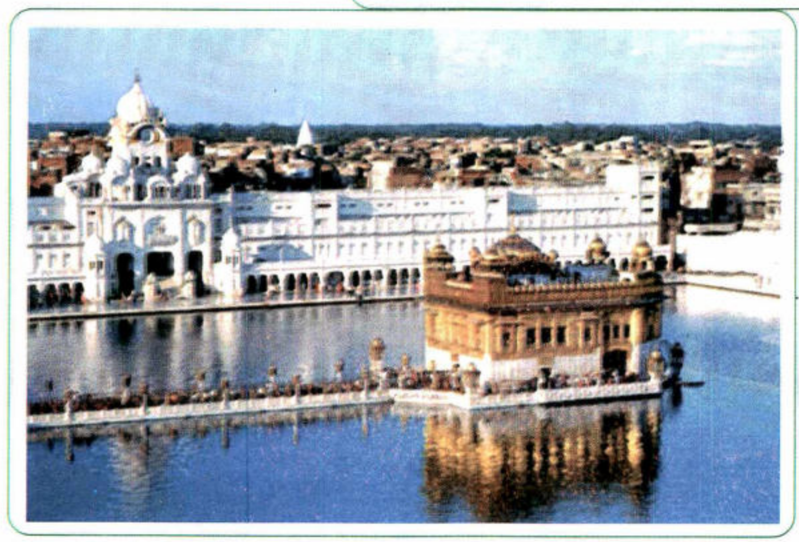
ومن التِّيبت وصل الإسلام وانتشر في إمارة يونَّان الصِّينيَّة المسلمة حتَّى يومنا هذا.

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٣٠.



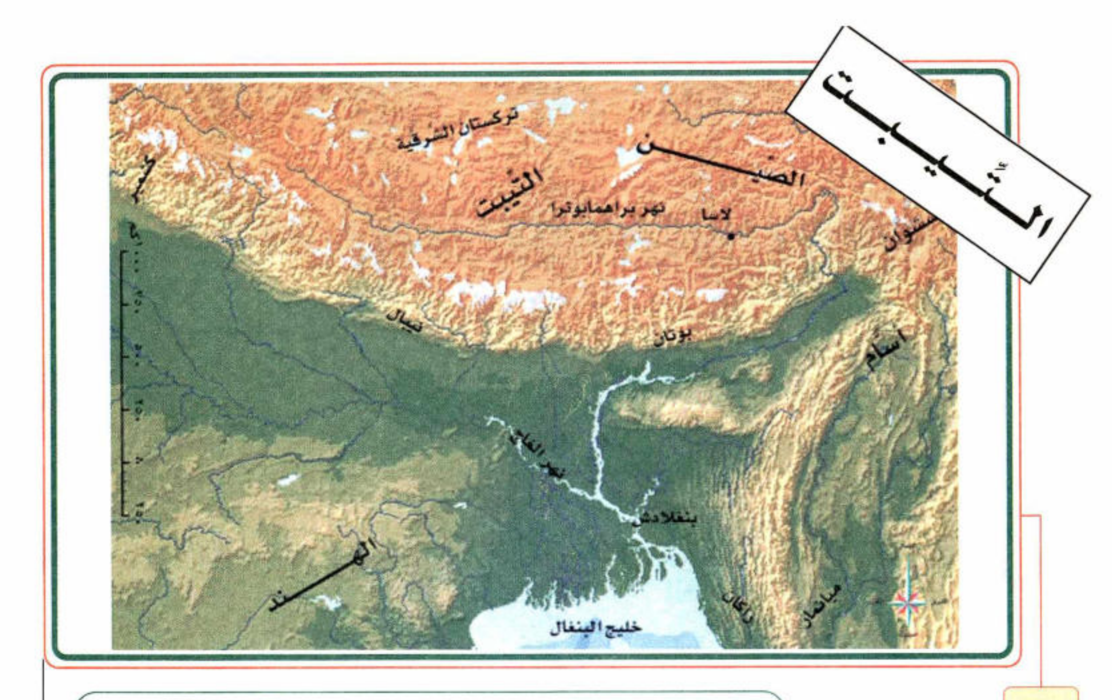
الطبيعة في كشمير

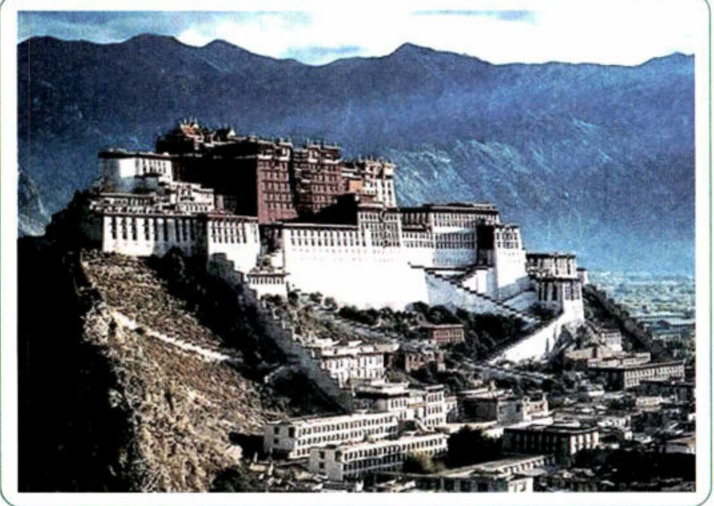




معبد السيخ
في أميستار

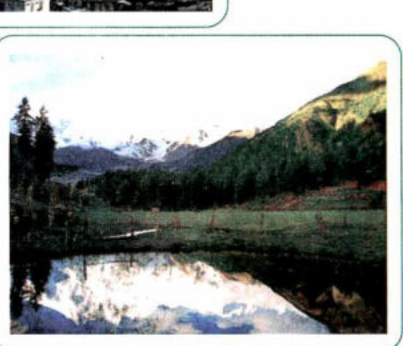
التيبت



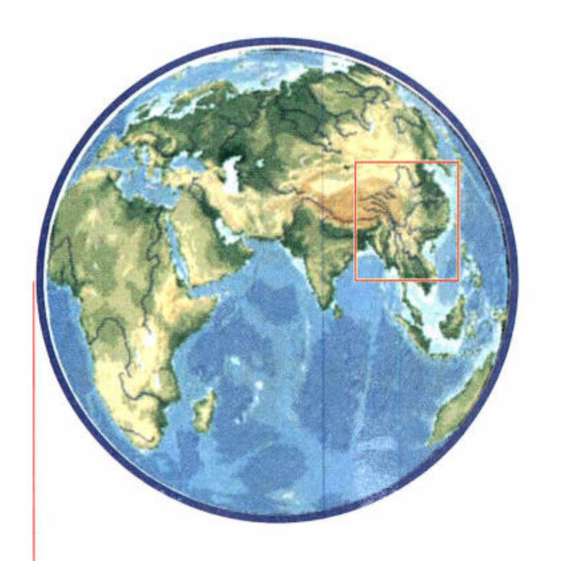


من التيبت





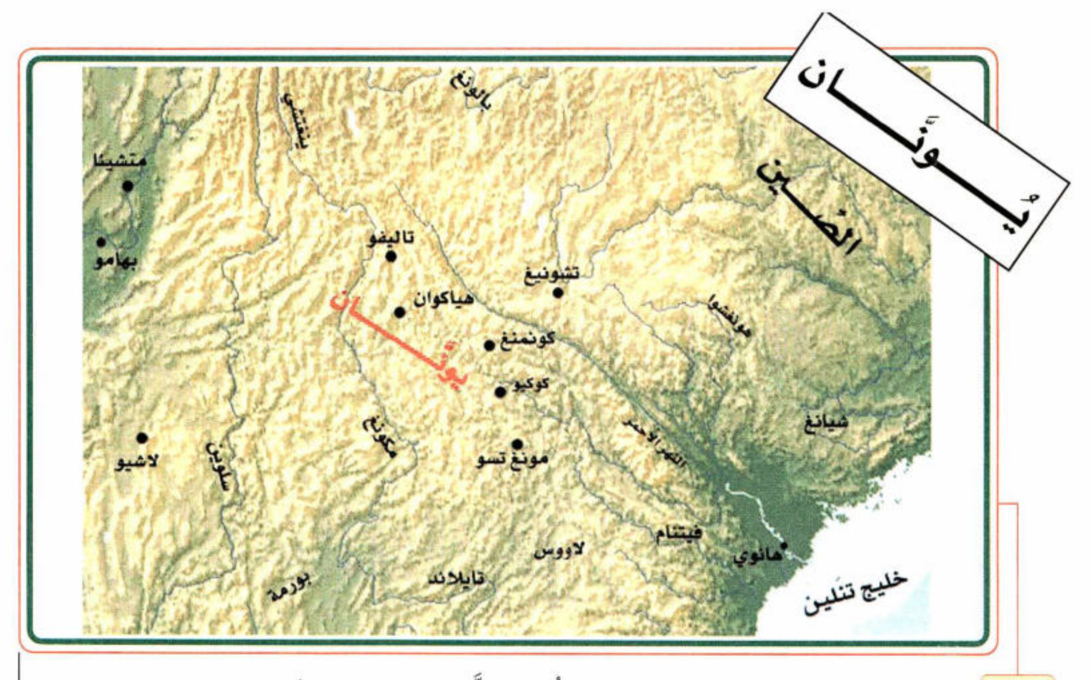
البيئة شمال كشمير



انتشار الإِسلام في الصِّين

في عهد دولة تانج Tang (٦١٨ - ٩٠٧م) نشأَت قوَّة إِسلاميَّة في ميناء كنتون Canton[١].

(١) الدَّعوة إلى الإِسلام، ص ٣٣١.



دخل الإسلام الصِّين مع التُّجار الَّذين سلكوا الطَّريق البحري، ومن الشَّائع بين مسلمي الصِّين أَنَّ أَوَّل من دعا إلى الإسلام في بلادهم أحد أخوال النَّبيِّ ﷺ، وكانوا يعظِّمون قبره المشهور في كنتون، إلَّا أَنَّه لا يوجد لهذه الأُسطورة أيُّ سند تاريخي، ويظهر أَنَّها نبتت في زمن متأخِّر، ولا شك أن ظهورها كان نتيجة لرغبتهم في أن يربطوا تاريخ الدِّين في بلادهم - ما أمكنهم - بعصر النُّبوَّة[١].

تقلَّد عدد من المسلمين مناصب رفيعة تحت إمرة حكام المغول للصِّين، مثل عبد الرَّحمن الَّذي اختير سنة **١٢٤٤**م رئيساً على بيت مال الدَّولة، وعمر شمس الدِّين (السَّيِّد الأَجَل) الَّذي كان من أهالي بخارى، عهد إليه قوبيلاي خان حينما اعتلى العرش **١٢٥٩**م في إدارة بيت مال الإمبراطوريَّة، ثمَّ أَصبح حاكماً ليونَّان Yunnan، وترك بعد وفاته عام **١٢٧٠**م أثراً طيِّباً بسبب عدله وفطنته، إذ بنى في مدينة يونَّان معابد لأَتباع كنفوشيوس بقدر ما بنى فيها من المساجد.

لقد مثَّلت ذرِّيَّة (السَّيِّد الأَجَل) دوراً هامّاً في توطيد دعائم الإسلام

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٣٣.

في الصِّين، وكان حفيده هو الَّذي حصل من الإمبراطور سنة **١٣٣٥**م على الاعتراف بأَن الإسلام «هو الدِّين الحقُّ الخالص»، وهو اسم ظلَّ الإسلام يحمله زمناً طويلاً، وأَذن الإمبراطور في سنة **١٤٢٠**م لشخص آخر من سلالة (السَّيِّد الأَجَل) بأَن يبني مساجد في العاصمتين سينانفو Si - ngan - Fu، ونانكن – Nan kin.

ومع بداية القرن الرَّابع عشر الميلادي؛ جميع سكان تاليفو Talifu حاضرة يونَّان من المسلمين[١].

وابن بطوطة يذكر أَنَّه ما زار مدينة صينيَّة إلَّا ووجد بها مسلمين لهم مساجدهم، وهم معظَّمون محترمون.

وفي عهد أُسرة منج Ming، وفي زمن الإمبراطور هنج وو Hung wu مُنح المسلمون امتيازات خاصَّة، تدل عليها كثرة المساجد الَّتي بُنيت في أثناء حكم هذه الأُسرة (**١٣٦٨** - **١٦٤٤**م).

ونمت صلات ودِّيَّة بين الصِّين وأُمراء المسلمين المقيمين على حدودهم الغربيَّة، وأكثروا من تبادل السُّفراء مع الأُمراء التيموريِّين، وتمكَّن الشَّاه رخ بهادر عام **١٤١٢**م أَن يحمِّل مبعوثاً صينياً إِلى حاضرة ملكه سمرقند رسالة إِلى الإمبراطور الصِّيني يدعوه إِلى الإِسلام[٢].

في أَوائل القرن السَّادس عشر في مدينة كنجنفو Kenjanuf أَكثر من ثلاثين أَلف أُسرة مسلمة تمتَّعت بكرم الإمبراطور، واحترمهم الصِّينيُّون، وترك أَمر التَّحوُّل إلى الإِسلام حرّاً، وكان في العاصمة أَربعة مساجد كبيرة، وما يقرب من تسعين مسجداً في الولايات من الإمبراطوريَّة، بُنيت كلُّها على نفقة الإمبراطور.

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٣٥.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٣٩.

وفي عهد دولة منشو Manchu عام ١٦٤٤م لم يتمتَّع المسلمون بحرِّيَّة دينيَّة، فثاروا محتجِّين في ولاية كانسو Kansu سنة ١٦٤٨م، وكانت هذه أوَّل مرَّة تسلَّح فيها المسلمون وثاروا على الحكومة الصِّينيَّة[1].

وفي سنة ١٧١٣م نشر الإمبراطور ينج تشن Yung Chen قراراً نُشِر في كلِّ أنحاء الإمبراطوريَّة: «يوجد منذ قرون كثيرة مضت، عدد كبير من المسلمين يؤلِّفون جانباً من الشَّعب، أعتبرهم كأبنائي، وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقيَّة رعيَّتي تماماً، ولا أُفرِّق بينهم وبين الَّذين لا يدينون بالإسلام»، وشهد بأخلاقهم الفاضلة، وأطلق لهم الحرِّيَّة في إقامة شعائر دينهم «الَّذي يهدف إلى تعليم النَّاس التَّمسُّك بالحياة الفاضلة، وتأدية واجباتهم الاجتماعيَّة والمدنيَّة.. فماذا نستطيع أن نطلب منهم أكثر من هذا؟»[2].

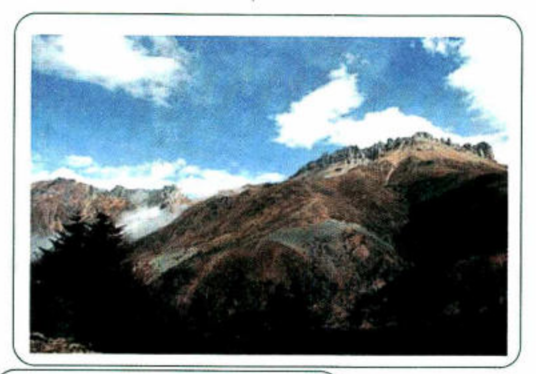
وأسكت الإمبراطور كلَّ من حرَّض على المسلمين لأنَّهم لا يتكلَّمون بلغة الصِّين، ويلبسون لباساً يختلف عمَّا يلبسه سائر الأهالي، ودينهم يختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصِّين، وقال: اتهامات لا أساس لها ولا صحَّة.

وتحوَّل عدد كبير إلى الإسلام نهاية القرن السَّابع عشر، والدَّعوة إلى الإسلام كانت في غاية الرَّزانة والوقار[3].

داعية من ولاية خوانشي، اسمه: هونفوين Han - Fo - Yun، كان يحمل كتباً إسلاميَّة ويتنقَّل لمدة عشر سنوات داعياً إلى الإسلام، واستمرَّت الدَّعوة نشطة حتَّى عام ١٩٠٠م بحكمة وهدوء، فقد التزم المسلمون في حياتهم العاديَّة ما هو شائع حولهم من عادات وطبائع،

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٣٩.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٤٠.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٣٤٠.

ولبسوا العمامة في المساجد فقط، وتجنَّبوا بناء مآذن عالية، بل إنَّ مساجدهم كانت في معظم الأحيان تتَّفق مع المعمار الصِّيني، فكانت في الغالب لا تتميَّز بشيء عن معابد الصِّينيِّين، أو مساكنهم العاديَّة[١].



ويعزى اعتناق الإسلام في السِّنين الأخيرة إلى تأثير كتب المسلمين الصِّينيِّين.

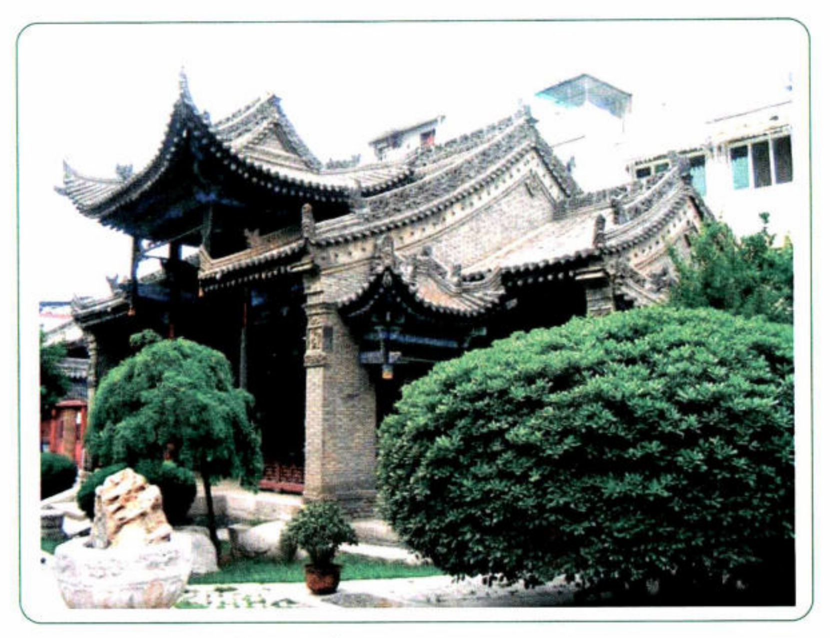
والمعهد الإسلامي في هوتشو Hochow بولاية كانسو Kansu يعلِّم طلبة العلوم الدِّينيَّة، ليعودوا إلى ولاياتهم دعاة[٢].





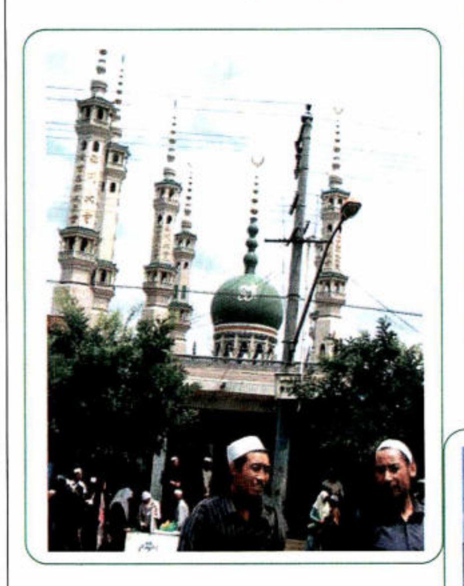
البيئة في يونَّان
(لاحظ التربة الحمراء)

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٤٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٤٦.



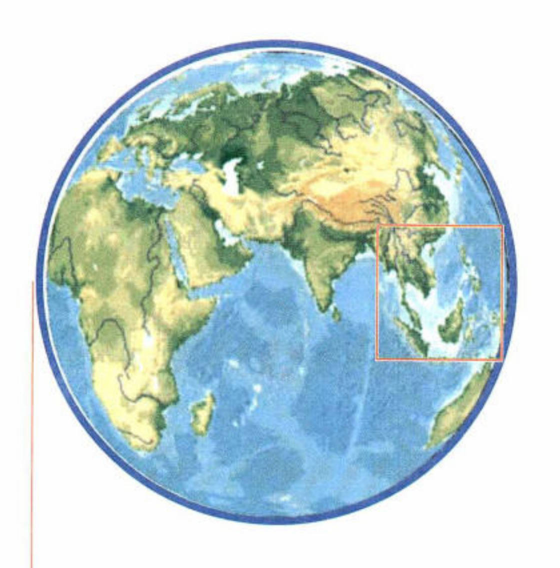
مساجد من الصين







من مقاطعة كانتون



انتشار الإِسلام في جنوب شرق آسية

انتشار الإِسلام في أَرخبيل الملايو:

«نفذت الدَّعوة بقوَّة الإِقناع وحدها»[١]، مع أن معارضة الإِسبان، الَّذين استعمروا قسماً من الأرخبيل في القرن السَّادس عشر الميلادي كانت شديدة.

بدأ وصول الدُّعاة من جنوب الهند إِلى أَرخبيل الملايو منذ منتصف القرن الرَّابع عشر الميلادي، ووصلها التُّجَّار المسلمون في وقت مبكِّر، ففي عام ٦٨٤م شكَّل عربي إِمارة عربيَّة على ساحل سومطرة الغربي[٢].

(١) الدَّعوة إِلى الإسلام، ص ٤٠١.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٠٢.





ووصل الدُّعاة إلى عذراء ماليزية (الفيليبِّين)، وتعلموا اللُّغات المحلِّيَّة، وعرفوا عادات السُّكَّان وطباعهم، وتزوَّجوا من نسائهم، وحذقوا بالعمل في مهن الأهالي، «لم يفدوا على هذه البلاد غزاة، كما فعل الإسبان في القرن السَّادس عشر، ولم يستخدموا السَّيف أداة لتحويل النَّاس إلى الإسلام، بل لم يدَّعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتَّع بالغلبة والسِّيادة، لكي يحطُّوا بذلك من شأن السُّكان الأصليِّين، ويسلبوا حقوقهم، بل قَدِموا في زيِّ التُّجَّار، واستخدموا كلَّ ما لديهم من ذكاء أسمى، ومدنيَّة أزهر في سبيل دينهم، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة نفوذهم الشَّخصي، أو لتنمية ثرواتهم»[(١)].

بدأت الدَّعوة في سومطرة في اتشيه Atjeh على يد عربي اسمه عبد الله عارف منتصف القرن الثَّاني عشر، وبقيت مقصورة على الموانئ الَّتي اتَّصل بها التُّجَّار المسلمون، وتقدَّمت في داخل البلاد ببطء، وقامت مملكة برلاك في الزَّاوية الشَّماليَّة الشَّرقيَّة من سومطرة مملكة مسلمة، وفي

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٠٣.

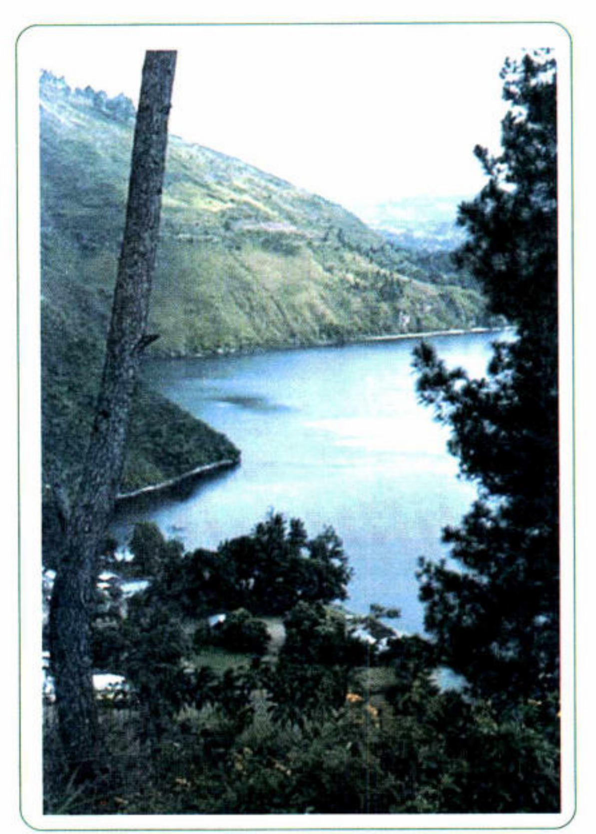
أواخر القرن الخامس عشر قامت مملكة منانجكباو المسلمة، شمال خط الاستواء وجنوبه[1].

«الوسائل العنيفة لم تجذب أحداً إلى الإسلام»، أُسرة بدري Padris المتعصِّبة، حاولت فرض الإسلام بحدِّ السَّيف «فلم تجذب أحداً إلى الإسلام»، وبعد تدخُّل الهولنديين المستعمرين وإنهاء حركة البدري «أخذ الإسلام ينتشر بالوسائل السِّلميَّة، فاستجاب السُّكان - من قبيلة البتك - للجهود السِّلميَّة الَّتي بُذِلت لإدخالهم في الإسلام، حتَّى إن قريتَيْن من قرى البتك كان جميع أهليهما قد تنصَّروا، انتقلتا جمعاً واحداً إلى الإسلام، بعد تنصُّرهما بزمن قصير»[2].

أفلحت حركة حديثة لنشر الدَّعوة قامت في العقد الأوَّل من القرن العشرين في اجتذاب كثير من مسيحيِّي مقاطعة سيبيروك Sipirok إلى الإسلام، بل في اجتذاب فريق ممَّن يعيش في وسط المحيط الَّذي تجلَّى فيه نفوذ الإرساليَّة المسيحيَّة، ومن جاوة حُمِل الإسلام لأوَّل مرَّة إلى مقاطعات لمبونج Lampong، الَّتي تكوِّن أقصى حدود سومطرة الجنوبيَّة[3].

من جزيرة سومطرة

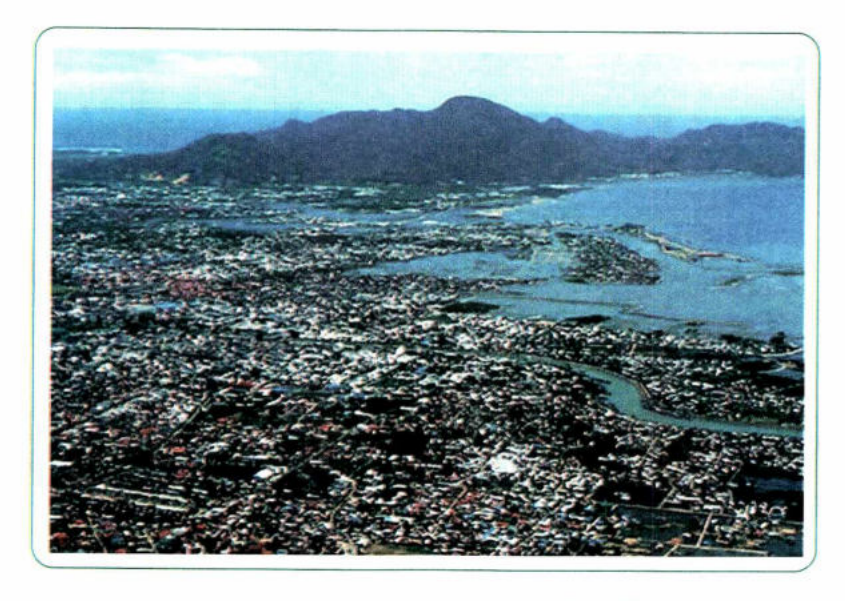
(١) المرجع السَّابق، ص ٤٠٤.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٠٧.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٤٠٩.



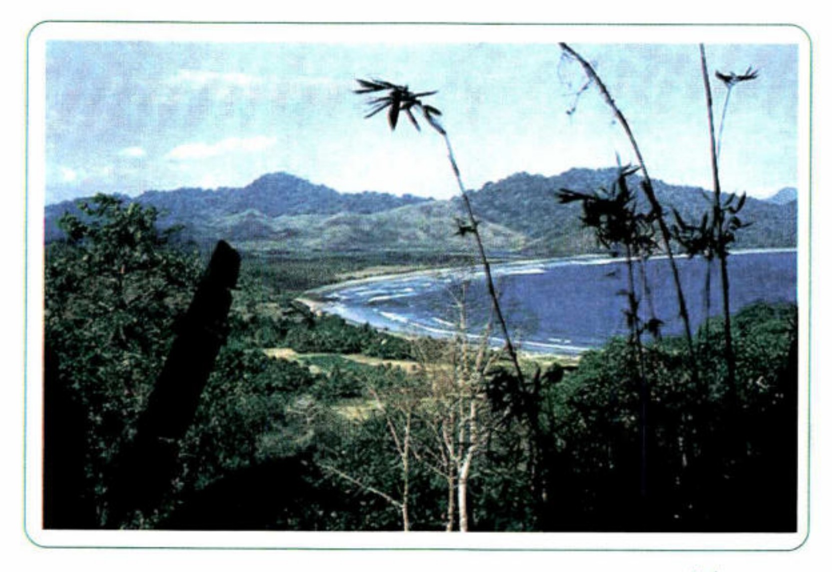
سومطرة



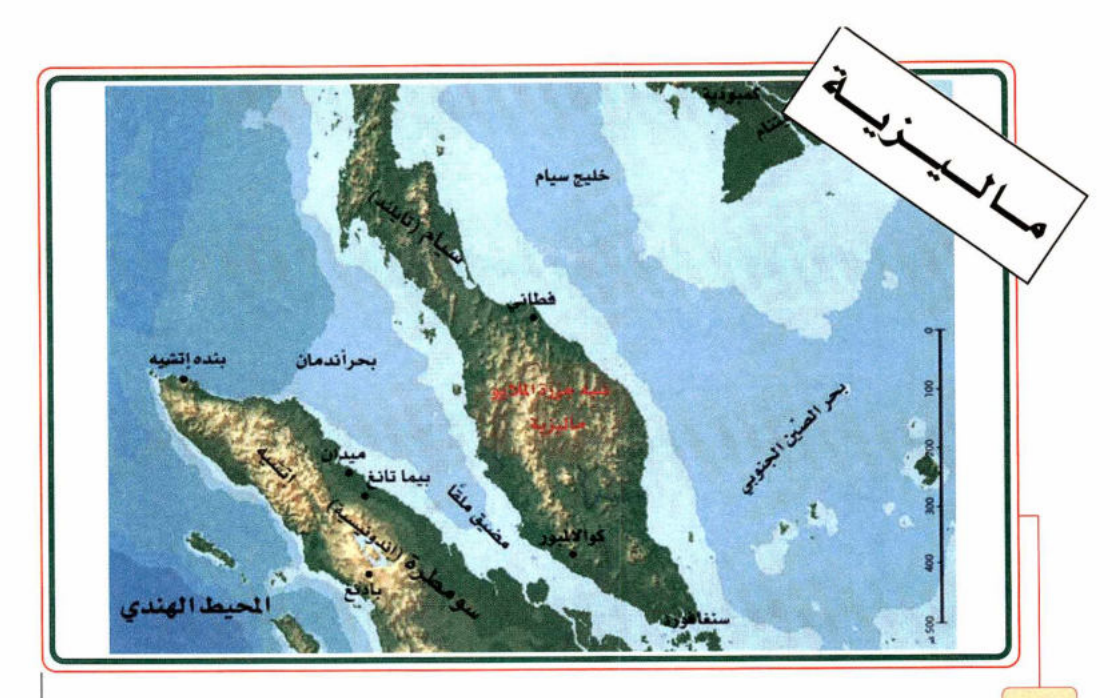
جامع باندا (في اتشيه)



سومطرة (اتشيه)



جاوة



شبه جزيرة الملايو - (ماليزية):

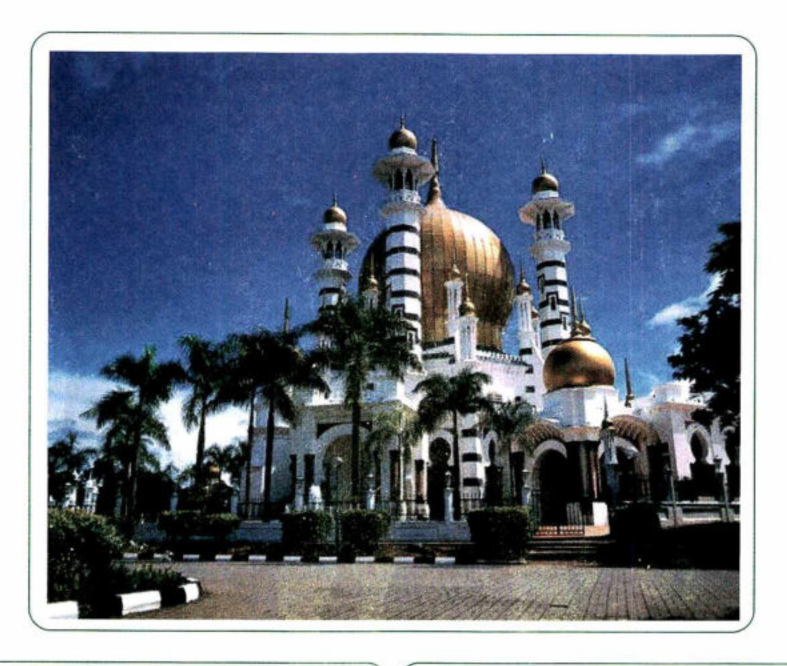
جاءتها هجرات من سومطرة، ولاسيما من منانجكباو، أَواسط القرن الثَّاني عشر، وفي عام ١٢٧٦ اعتلى العرش سلطان مسلم (محمد شاه)، وفي قويدة دخل الإِسلام عام ١٥٠١م هذه المملكة بحوار الشَّيخ عبد الله مع أَمير قويدة فحطَّم الأَصنام بيده، وبنى المساجد، وتسمَّى (مُزْلف شاه)، اقتباساً من الآية الكريمة: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٥٠/ ٣١]، وقامت علاقات طيِّبة مع سلطنة اتشيه المسلمة، تمثَّلت بالوفود والمراسلات.

اتَّسم السُّكان بالتَّساهل والتَّسامح مع الآخر، مع تمسُّك شديد في صيام رمضان، وتأدية فريضة الحجِّ إِلى مكَّة المكرَّمة.

ودخل الإِسلام إِلى سيام البوذيَّة على يد تجَّار عرب وفُرْس، مع هجرات من الملايو، بدأَت في نهاية القرن الرَّابع عشر(١).

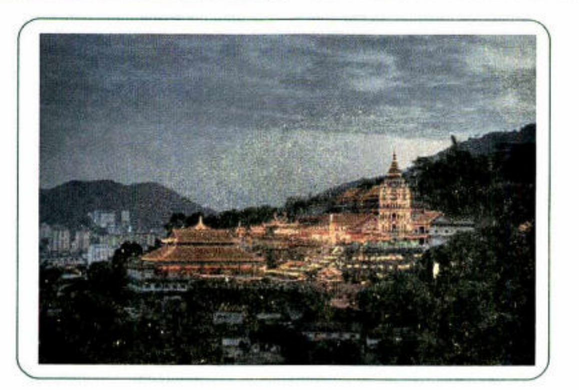
---

(١) المرجع السَّابق، ص ٤١٥.









صور من
ماليزية

جـــاوة



وفي جاوة: لم يفرض الإِسلام فيها بوسائل حربيَّة، «بل على العكس من ذلك» ورفع الإِسلام السُّكان إلى مستوى عالٍ من الثَّقافة والرُّقي، وكانت أَوَّل محاولة لدخول الإِسلام إلى جاوة قرابة القرن الثَّاني عشر، وفي النِّصف الأَخير من القرن الرَّابع عشر تكوَّنت حركة للدَّعوة، نالت نجاحاً أعظم على يد شخص يدعى مولانا ملك إِبراهيم، الَّذي رسا على ساحل جاوة الشَّرقي في بلدة جريسك Gresik قبالة جزيرة مادورة، لم تنجح دعوته تماماً، ومات عام ١٤١٩م، ودُفن في جريسك[١].

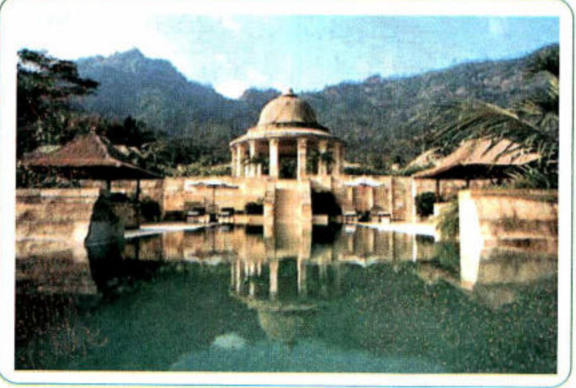
أَعظم رسل الإِسلام في جاوة ابن رادن رحمت Raden Rahmat، الَّذي رُبِّي على الإِسلام بتوجيه والده، وأَضحت أَمبل Ampel مقرَّ الإِسلام الرَّئيسي في جاوة، وفي مملكة بلمبنجن Balambengan، أَقصى الحدود الشَّرقيَّة لجاوة، نشر الإِسلام فيها مولانا إِسحاق[٢].

والجهات الشَّرقيَّة من جاوة اعتنقت الإِسلام بدعوة الشَّيخ نور الدِّين إِبراهيم وابنه مولانا حسن الدِّين، ففي جزيرة بنتام، أَكثر ولايات الجزيرة

(١) المرجع السَّابق، ص ٤١٥.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤١٩.

انحرافاً نحو الغرب، وإِحدى ملحقات مملكة باجاجاران الوثنيَّة، تحقَّق نجاح دعوي عظيم. «بوسائل الإِقناع اللَّطيفة وحدها وليس بحدِّ السَّيف، بسط الإِسلام نفوذه على ساحل سومطرة القريب من بلاده دون أن يمتشق سلاحاً، واجتذب الَّذين دخلوا في الإِسلام على يديه بالوسائل السِّلميَّة وحدها»[1].

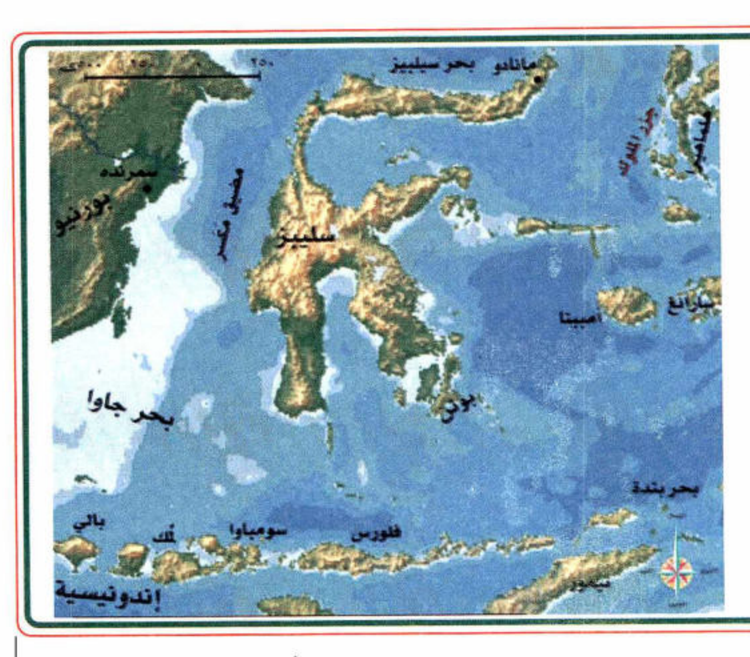




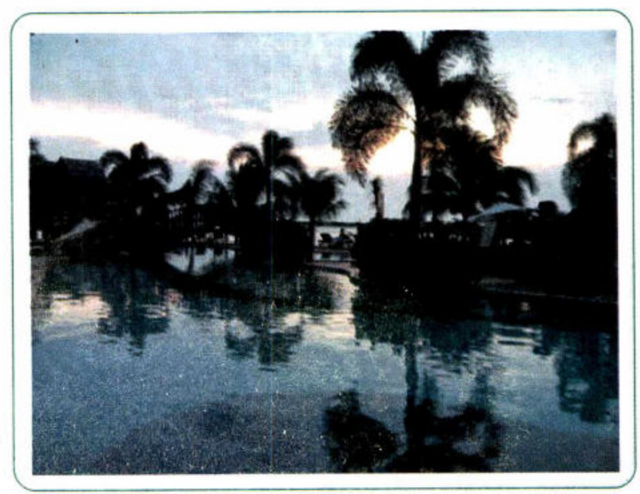
الطبيعة في جاوة

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٢٤.

جزر الملوك

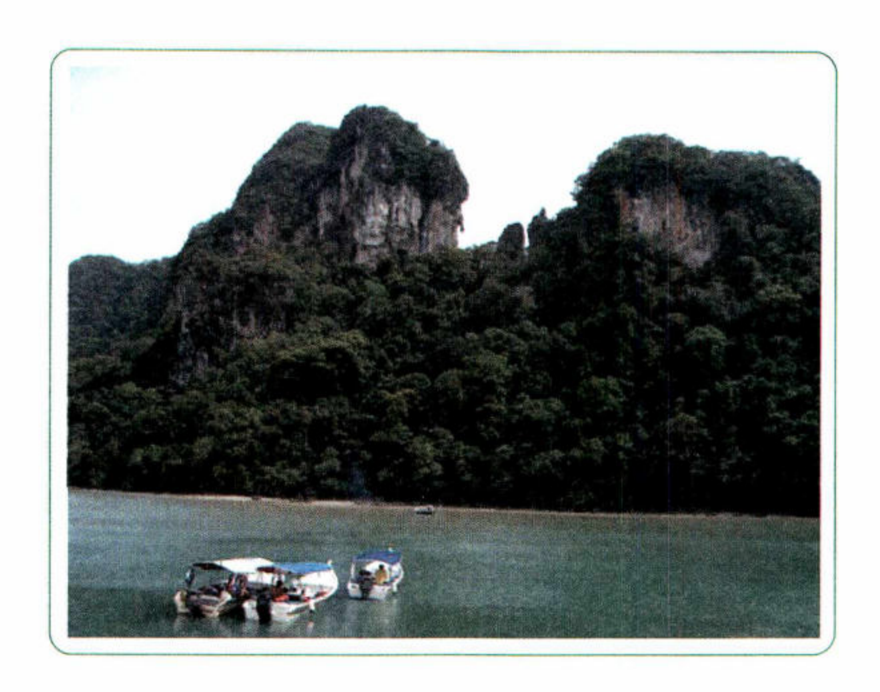


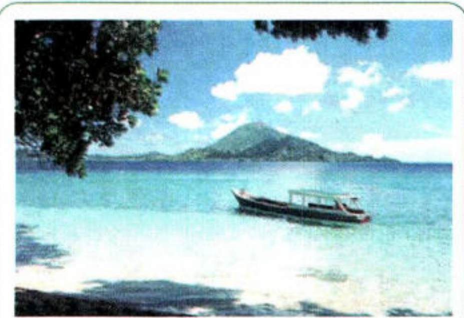
وصل الإِسلام إِلى هذه الجزر بوصول الجاويِّين وأَهل الملايو إِلى هذه الجزر لتجارة القرنفل، في القرن الخامس عشر الميلادي، وأَشهر الدُّعاة الشَّيخ منصور، ويظهر أَنَّ الإسلام قد رسخت قدمه في جزيرة ترنات المجاورة قبل ذلك بوقت قصير، على يد تاجر يدعى داتو ملَّا حسين[1].

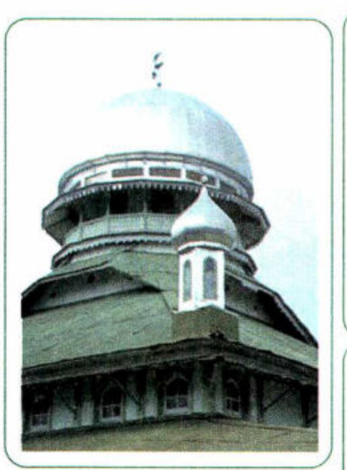


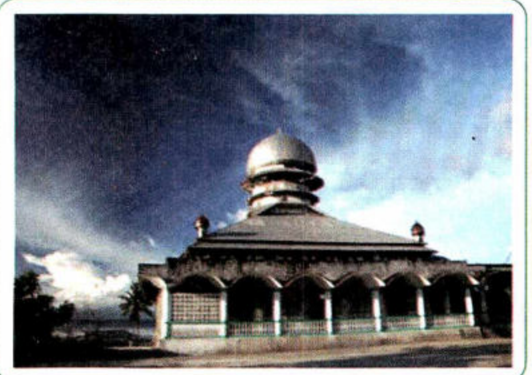
من جزر الملوك

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٢٧.





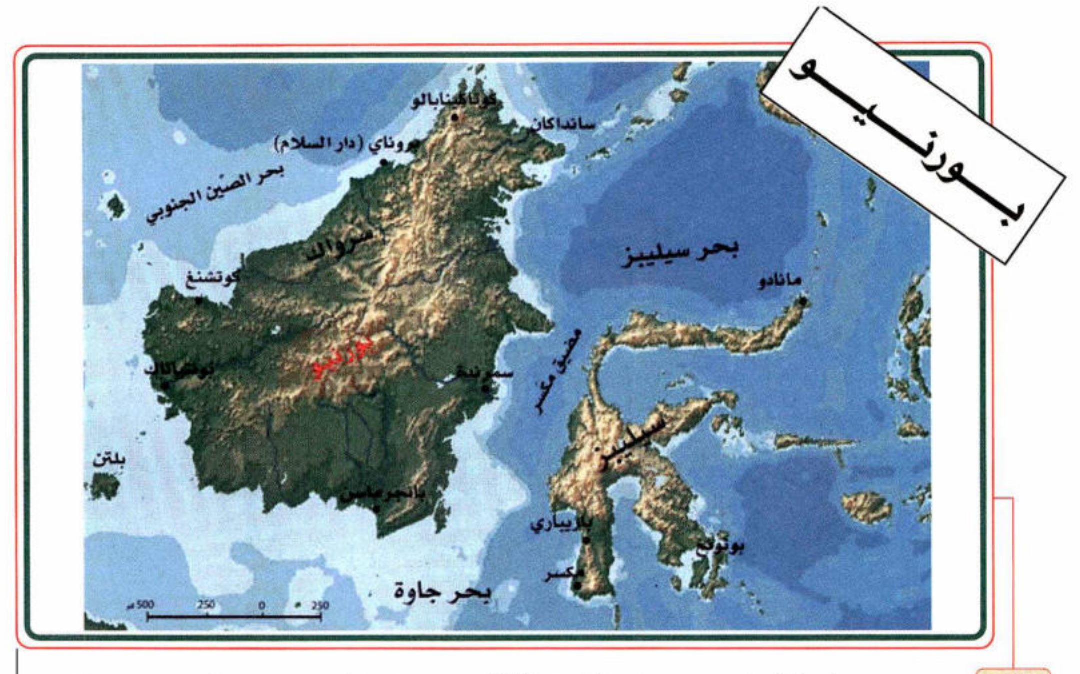






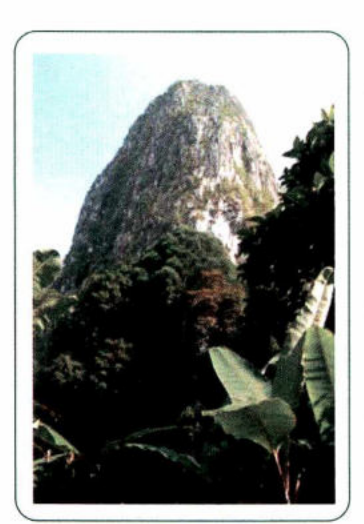
من جزر الملوك

بـــورنـــيـــو



وصل الإسلام مستهل القرن السَّادس عشر إلى جنوب الجزيرة، وفي الشَّمال الغربي في بروناي Brunai ملك مسلم منذ ١٦٠٠م، والإسلام الدِّين الشَّائع على طول السَّاحل الغربي.

بقيت الوثنيَّة داخل الجزيرة، كقبيلة إيدان «يُكنُّون أسفاً صادقاً على جهالتهم، وفكرة وضيعة عن أنفسهم لهذا السَّبب عينه، ذلك أنَّهم عندما كانوا يأتون إلى دور المسلمين أو سفنهم، نراهم يظهرون لهم ألوان التَّبجيل والاحترام، باعتبارهم ذوي عقول أسمى من عقولهم، ولأنَّهم يعرفون خالقهم، وهم لا يجلسون في المكان الَّذي ينام فيه المسلمون»[1]، احتراماً وتقديراً، وبدأ الوثنيُّون من قبائل الدياك يغيِّرون عقيدتهم إلى الإسلام دعوة وسلماً وقناعة.



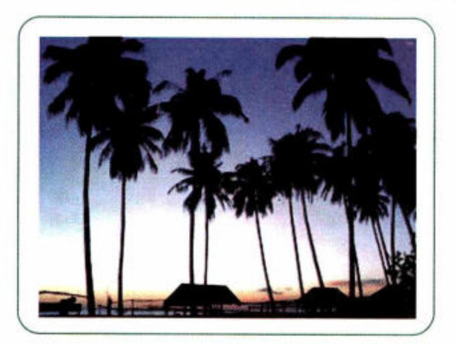
من بورنيو

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٢٨.





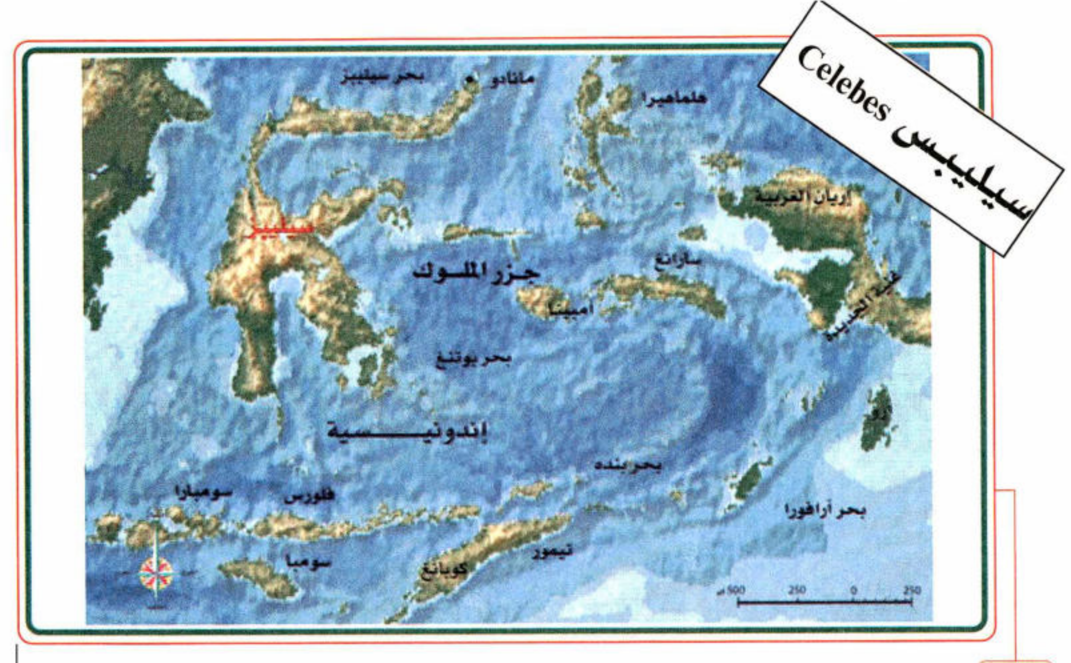
مسجد
في بروناي





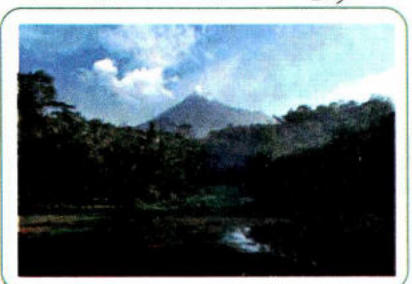
الطبيعة في بورنيو

سيليبس Celebes



من الجنوب الغربي لهذه الجزيرة شقَّ الإِسلام طريقه في بطء بين القبائل الوثنيَّة منذ عام ١٥٤٠م، ونشطت الدَّعوة في مستهل القرن السَّابع عشر، «وصلتهم بطلب من حاكمهم سفينة مملوءة بأئمة الشَّريعة، الَّذين وطَّدوا دعائم دينهم بين سكان الجزيرة توطيداً قويّاً في زمن قصير»[١]، وذلك سنة ١٦٠٣م.

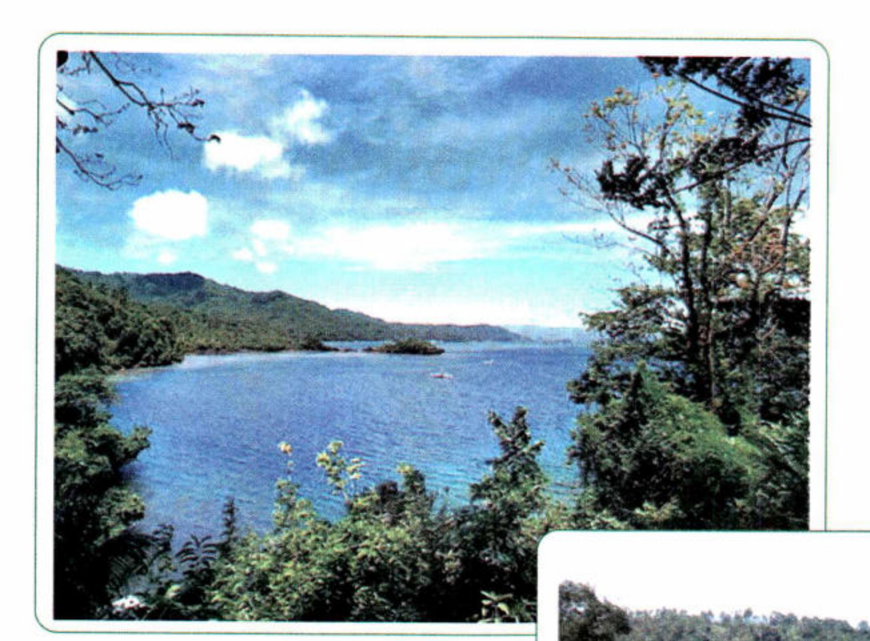
نشط تجَّار سيليبس المسلمون، وتنقَّلت سفنهم في أنحاء الأَرخبيل (إِندونيسية) كافة، من ساحل غينية الجديدة إِلى سنغافورة، وكانوا جاليات متميِّزة، أَدخلوا الإِسلام في كثير من الجزائر الوثنيَّة بنجاح[٢].


سيليبس

التَّحوُّل إِلى الإِسلام كان بطريقة دعويَّة سلميَّة بشكل كامل[٣].

---

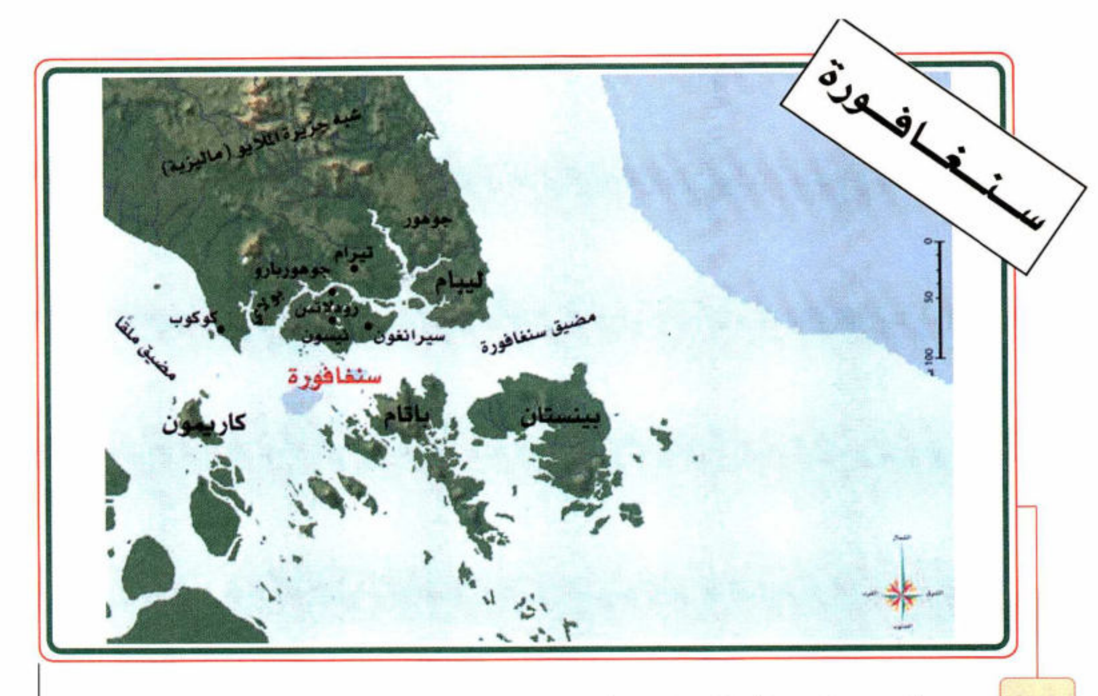
(١) المرجع السَّابق، ص ٤٣٣.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٣٥.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٤٣٨.



من جزر سيليبس



جزيرة بابوا



عذراء ماليزية (الفيليبين):

صراع بين الإِسبان وأساطيلهم الحربيَّة، وبين المسلمين ودعوتهم لكسب ولاء السُّكان.

وصل الإِسلام إِلى مندناو Mindanaw من شبه جزيرة الملايو على يد شريف كابونجسوان، الَّذي استقرَّ بالجزيرة، وتزوَّج فيها، وأضحت القبائل الَّتي أسلمت أكثر رقيّاً وحضارة[١].

ولم ينجح الإِسبان في تبشيرهم، وصار دينهم منذ البداية غير محبَّب لدى الشَّعب، وكان عنفهم وتعصبهم على طرفي نقيض مع سلوك التَّسامح الَّذي ظهر به دعاة المسلمين الَّذين عرفوا لغة الشَّعب، واندمجوا به، ولم يدَّعوا لأَنفسهم أيَّ حقٍّ أو تميُّز، مع احترام الشَّعب وتقديره[٢].

وممّا يذكر أَنَّ محاكم التَّفتيش شُكِّلت بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) عام ١٤٧٨م، أصدره البابا سيكستُس الرَّابع (١٤٧١ - ١٤٨٤م)

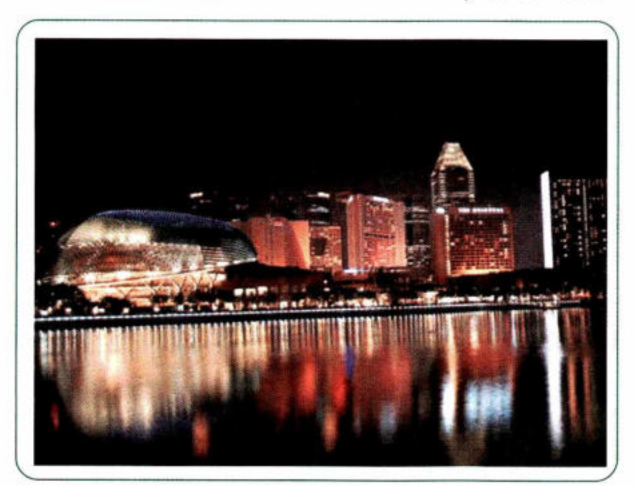
(١) المرجع السَّابق، ص ٤٣٩.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٤٠.

لتنصير المسلمين بأَشدِّ وسائل العنف، كالأَسياخ المحمَّاة، وسحق العظام، ورفع المرأَة من ثديها حتَّى تموت، أَو تركها عُرْيانة على قبر تربط إِليه بلا طعام حتَّى تموت.

وأَقام الحاكم الإِسباني ليكاسي محاكم التَّفتيش في الفيليبين، وتتبَّع المسلمين لتنصيرهم، وفي عام ١٥٩٥م استُرِقَّ المسلمون لأَنَّهم مسلمون، وهُدِمَت مساجدهم.

وبعد الاستعمار الإِسباني، وفي عام ١٨٩٩م حلَّ استعمار جديد على يد الأَمريكيِّين للفيليبين، ذهب ضحيَّته ١٨٠٠٠ قتيل فيليبيني في أَرض المعركة، و٢٠٠٠٠٠ (أَي ٢٠٪ من السُّكان) ماتوا من الجوع والمرض، وبسبب إِحراق الجنود الأَمريكيين للقرى والمحاصيل والماشية، بقصد تمزيق الاقتصاد، وإِخضاع المقاومة من خلال قطع مؤن التَّغذية.

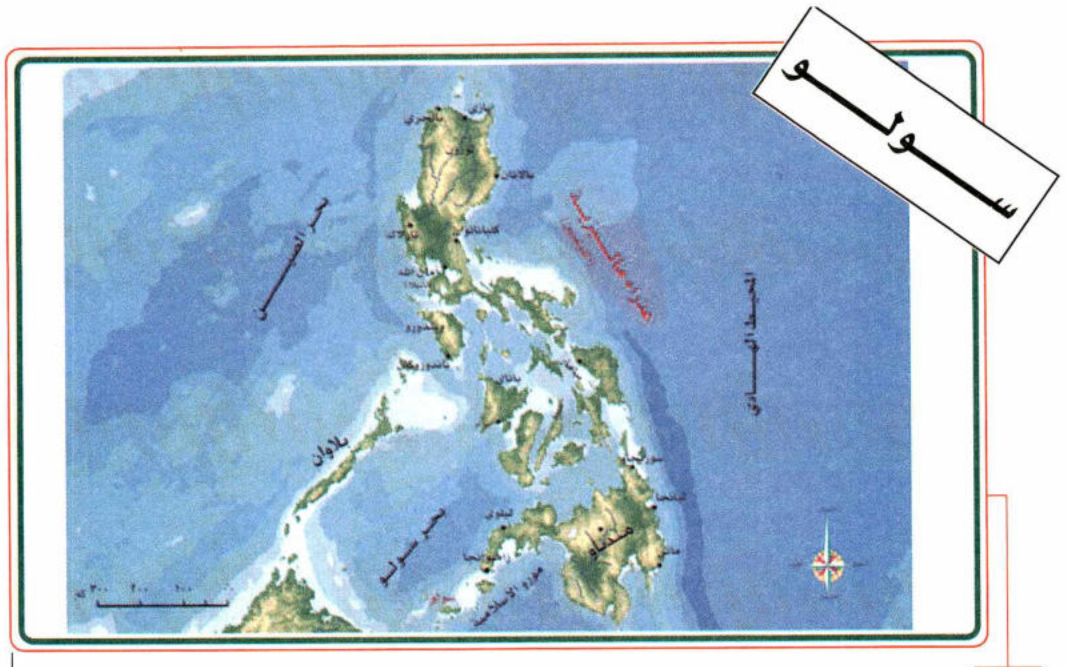
وبسبب فظاظة الإِسبان، كانت مملكة مندناو الإِسلاميَّة ملجأ الرَّاغبين في التَّخلص من الحكومة المسيحيَّة البغيضة، ومع استعمار إِسبانية لمندناو عام ١٨٧٨م، بقيت الجزيرة مركزاً إِسلاميّاً مناهضاً للتَّبشير[١].



سنغافورة

(١) الإِسلام وكفى، ص ٨٤.

سولو



وصلها الإسلام منتصف القرن الرَّابع عشر على يد الشَّريف كريم المخدوم، الَّذي قدم من الملايو، ووصل سولو نحو سنة ١٣٨٠م، واستقر في بواناسا Bwanasa قاعدة سولو القديمة.

ثمَّ وصلها داعية اسمه أبو بكر نحو سنة ١٤٥٠م تقريباً، وقام بدعاية ناجحة، وزوَّجه الملك المسلم بجندا Baginda ابنته، وجعله وريثه، فنظَّم حكومة سولو، وسنَّ قوانينها على أُسس إسلاميَّة قويمة[١].

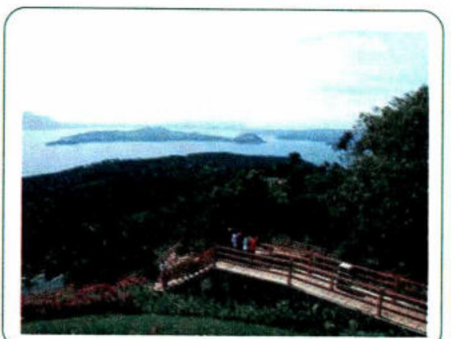
ونجحت الدَّعوة شمال الفيليبين حتَّى في مانيلا (أمان الله)، ساعد على ذلك «مسلك العدوان الَّذي ظهر به قساوسة الإسبان الَّذين أقاموا بعثة تبشيريَّة في سولو، قد خلق في نفوس الأهالي نفوراً شديداً من الدِّيانة الأجنبيَّة»[٢].

«إنَّ أهالي جزائر الفيليبين يتحاملون على المسيحيَّة بسبب المساوئ الَّتي أدَّت بهم إلى حمل السِّلاح في وجه رهبان الإسبان»[٣].

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ٤٤١.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٤٢.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٤٤٢.



مسجد في مانيلا

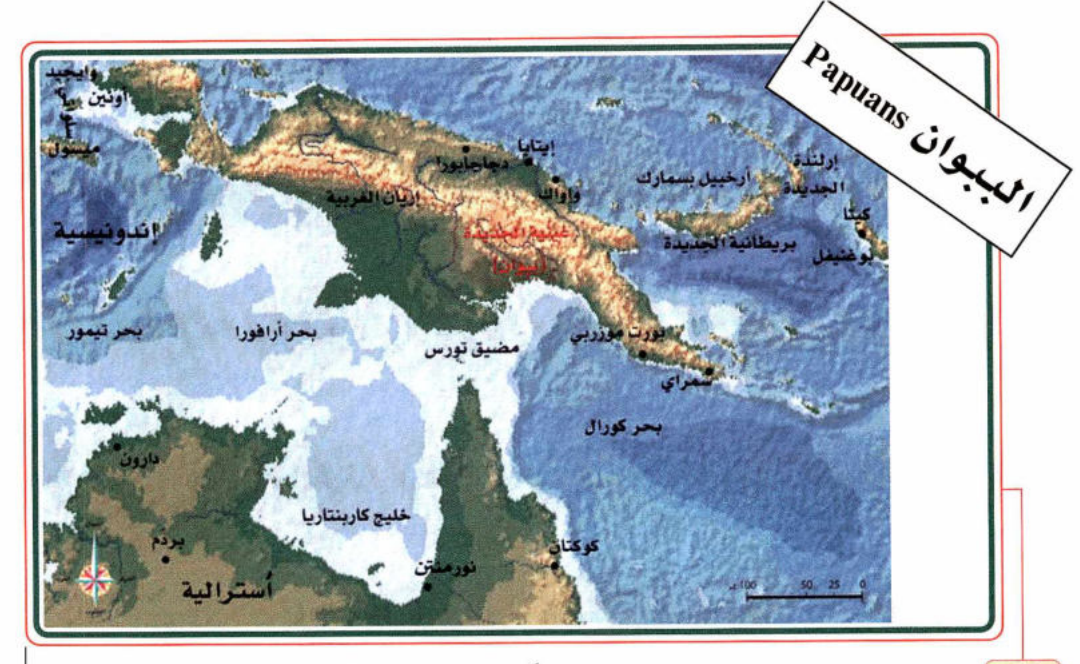






الطبيعة
في الجزر الفلبينية

الببوان Papuans



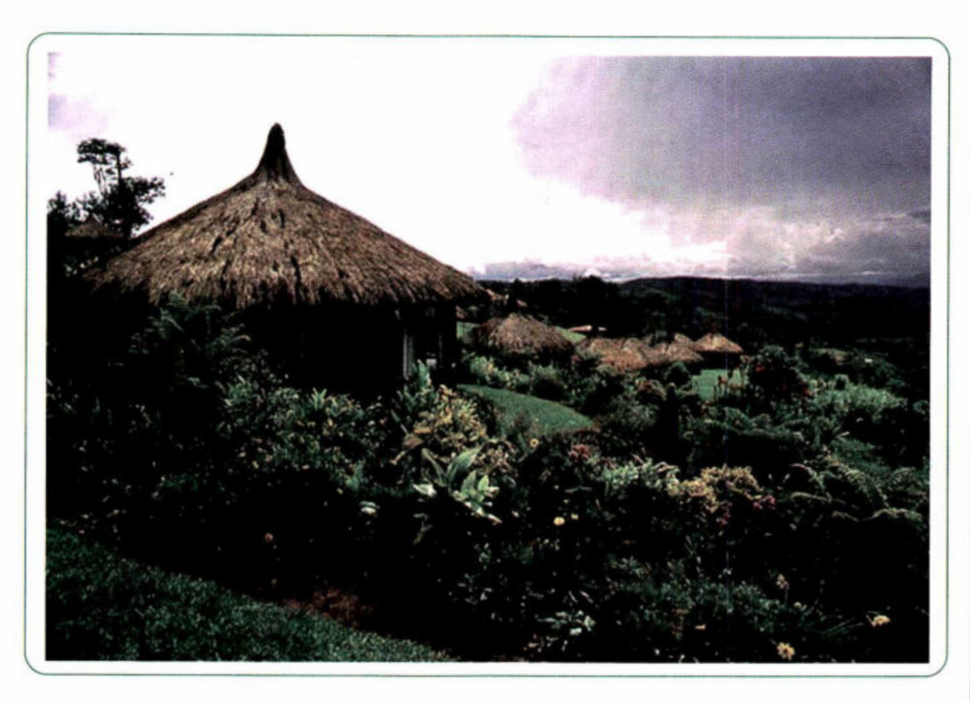
في غينية الجديدة، والجزر الَّتي تقع إِلى الشَّمال الغربي منها، مثل الـوايـجـيـو Waigyu، والـمـيـسـول Misool، والـوايـجـمـا Waigama، والسلوتي Salawatti، وشبه جزيرة أُونين Onin كانت خاضعة في القرن السَّادس عشر لسلطان باتجان أَحد ملوك ملوكس (جزر الملوك)، وبفضل نفوذ حكام باتجان من المسلمين، اعتنق زعماء الببوان في هذه الجزائر الإسلام، أسلم سكان السَّواحل، وبقي سكان المنطقة الدَّاخليَّة وثنيِّين[١].

لقد حقَّق التُّجار المسلمون نهضة ملحوظة عام ١٧٨٧م في هذه الجزر، وبرهنوا وهم القادمون من مادورة وجاوة وبالي على أَنَّهم دعاة متحمِّسون للإِسلام، قدَّموا المساعدات لمن أَسلم[٢].

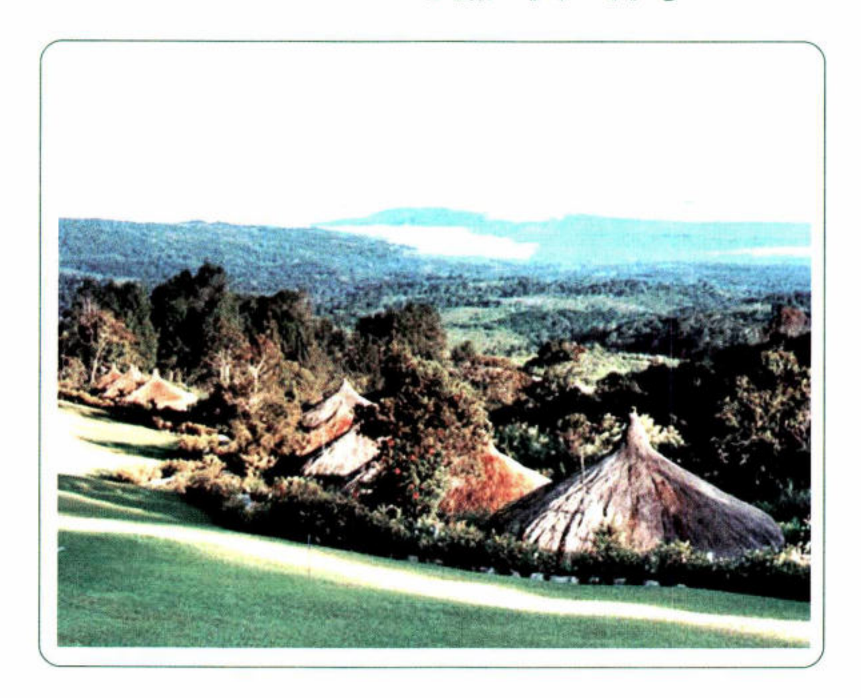
---

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٤٣.

(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٤٤.



من غينية الجديدة (ببوان)



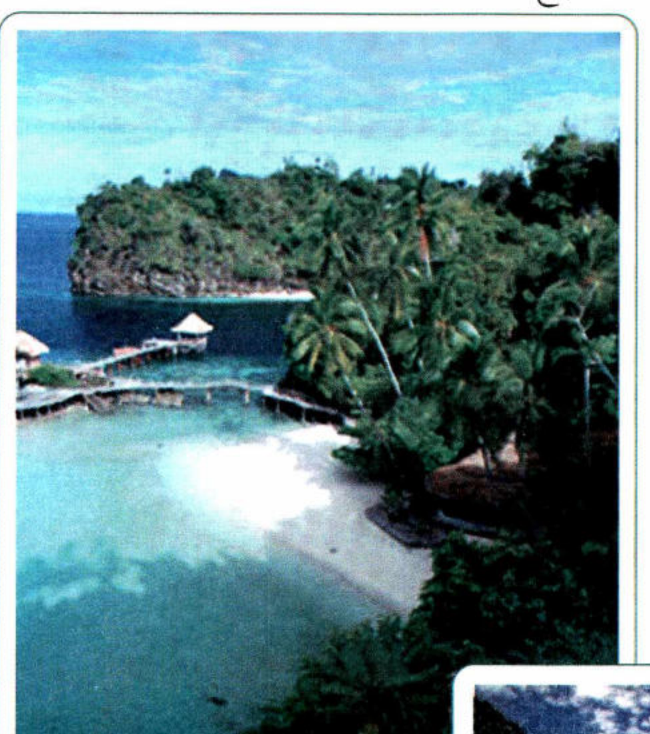
دعاة المسلمين
(التُّجَّار والفقهاء)

ويختتم السِّير توماس أَرنولد صفحات انتشار الإِسلام في جنوب شرق آسية قائلاً: الشَّواهد كافية تدلُّنا على وجود جهود سلميَّة في الدَّعوة لنشر عقيدة الإِسلام في خلال السَّنوات السِّت مئة الأَخيرة، حقّاً إِنَّ السَّيف كان يُمْتَشق أَحياناً لتأييد قضية الدِّين، [وهذا أَمر طبيعي في حال الاعتداء على المسلمين، خصوصاً حينما وصل الاستعمار الإِسباني إِلى المنطقة، داعماً التَّبشير، ومانعاً الدُّعاة المسلمين]، ولكن الدَّعوة والإِقناع، وليس القوَّة والعنف، كانا هما الطَّابعين الرَّئيسيَّين لحركة الدَّعوة هذه، وإِنَّ النَّجاح الرَّائع هو الَّذي أَحرزه التُّجَّار بنوع خاص، الَّذين كسبوا السَّبيل إِلى قلوب الأَهالي، بتعلُّم لغتهم، وانتحال أَخلاقهم وعاداتهم، وأَخذوا في رفق وتدرُّج ينشرون معارف دينهم بأَن بدؤوا يحولون إِلى الإِسلام نساء البلاد اللَّاتي تزوَّجوا منهن، والأَشخاص الَّذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجاريَّة، وبدلاً من أَن يعتزلوا الأَهالي في أَنفة وكبرياء، امتزجوا شيئاً فشيئاً في عامَّة الشَّعب، واستخدموا كلَّ ما يتميَّزون به من تفوق في العقليَّة والحضارة في القيام بأَعمال التَّحويل إِلى الإِسلام، واصطنعوا لمبادئ دينهم وطقوسه شروطاً حاذقة، ونماذج ماهرة، كانوا يرونها لازمة لتقريب هذا الدِّين إِلى أَذهان الشَّعب، الَّذي كانوا يرغبون في جذبه إِليهم، وفي هذا الواقع كان دعاة المسلمين - كما قال عنهم Buekele - على جانب عظيم من الحكمة والرَّويَّة[١].

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٤٥.

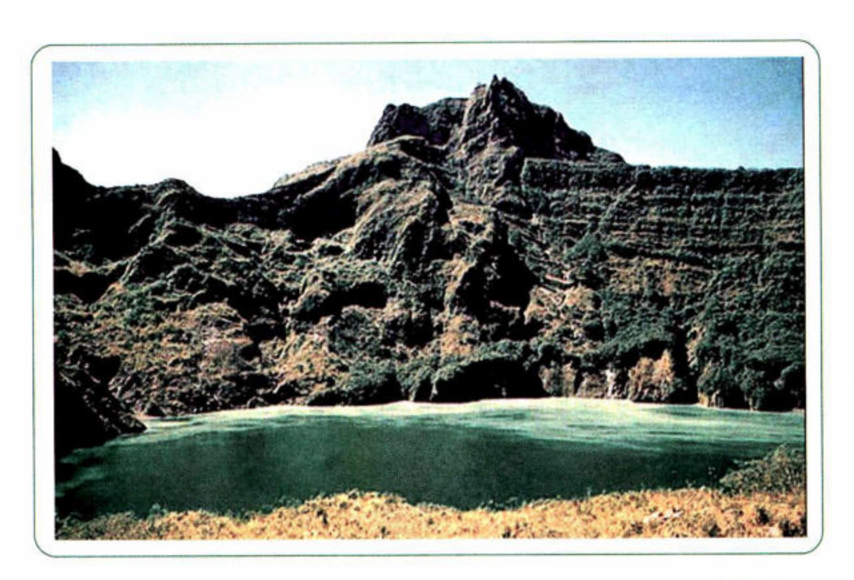
وإلى جانب التُّجَّار، كانت هنالك جموع ممَّن يصحُّ أن نسميهم الدُّعاة المحترفين، وهم الفقهاء والقضاة والحجاج، ووضعت الحكومة الهولنديَّة المستعمرة عراقيل في سبيل الحجِّ، يجب على الحاج الحصول على جواز سفر، ودفع ١١٠ فلورين - وهو مبلغ كبير جدّاً - ومن لم يلتزم يدفع غرامة تساوي ضعفي هذا المبلغ.

ومع كلِّ هذا، يعمل الإسلام اليوم على طرد الوثنيَّة من أرخبيل الملايو بخطا مدروسة متَّئدة[١].

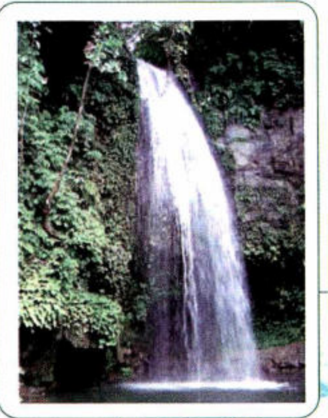


غينية الجديدة (ميسول)

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٤٦.

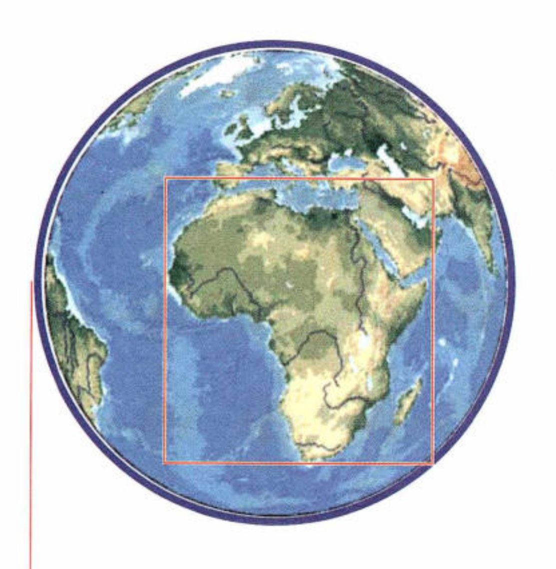


من جاوة



من سومطرة





انتشار الإِسلام في إِفريقية

ثلثا القارَّة مسلم

ممَّا لا شكَّ فيه تاريخيّاً، أَنَّ القبط في مصر؛ رحَّبوا بالفاتحين المسلمين لإِنقاذهم من اضطهاد الحكم البيزنطي وضرائبه الباهظة.

سبعة آلاف من البربر كانوا في جيش طارق بن زياد - وهو بربري أيضاً - ساروا لفتح إسبانية، لقد كان دخول البربر في الإسلام عن يقين ثابت، واختير لهم العلماء والفقهاء من العرب ليقرؤوا لهم ويفسِّروا آيات القرآن الكريم، ويعلموهم فروض دينهم الجديد وواجباتهم[١].

وأرسل عمرُ بن عبد العزيز إسماعيلَ بن عبد الله والياً على شمال إفريقية، وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقِّهوا مسلمي البربر في أمور دينهم[٢].

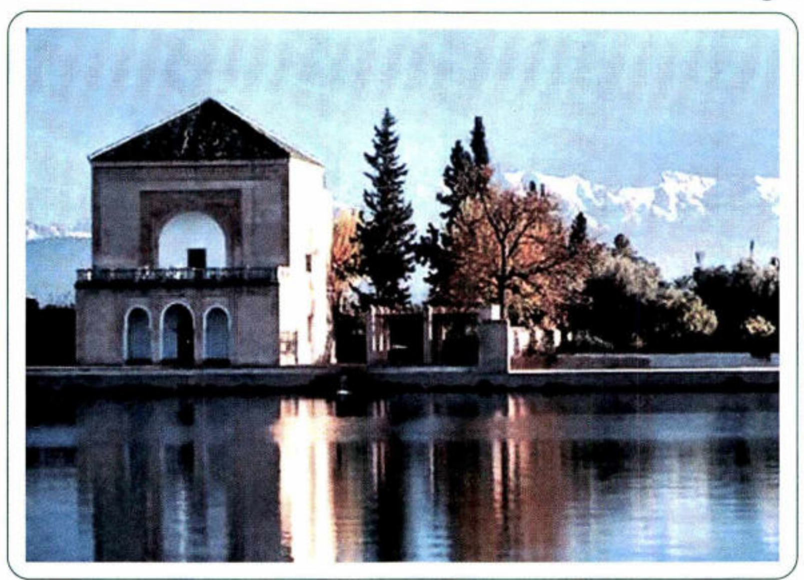
المرابطون دمجوا البربر في الأُمَّة الإسلاميَّة، صحيح أنَّ عبد الله بن ياسين قاد أتباعه في سنة ١٠٤٢م وهاجم القبائل المجاورة له في المغرب الأقصى، وأرغمهم على قبول الإسلام، و«أنَّ النَّجاح الَّذي حالف ابن ياسين في غاراته الحربيَّة، كان حجَّة أقوى على إقناعهم من جميع تعاليمه، وسرعان ما تقدَّموا طواعية إلى اعتقاد دين كفل لجيوش أتباعه مثل هذه الانتصارات الباهرة، ومات عبد الله بن ياسين في سنة ١٠٥٩م، ولكن الحركة الَّتي كان قد بدأها لم تمت بموته، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر الوثنيِّين لتزيد في جموع أبناء وطنهم المسلمين، واعتقدوا الإسلام على أنَّه القضيَّة الَّتي كافحوا من أجلها، وتدفَّقوا من الصَّحراء على إفريقية الشَّماليَّة، ثمَّ فرضوا سيادتهم آخر الأمر على إسبانية كذلك»[٣].

والمهدي بن تومرت مؤسِّس دولة الموحِّدين، قرَّب إلى العامة عقائد التَّوحيد - وهي الَّتي تمسَّكوا بها - عن طريق ما ألَّفه من كتب باللُّغة البربريَّة، شرح فيها قواعد الإسلام الأساسيَّة[٤].

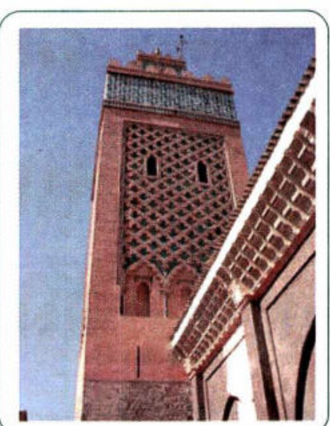
---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ٣٥٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٥١.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٣٥٣.
(٤) المرجع السَّابق، ص ٣٥٤.

وفي زمن المرابطين، خرجت جموع كبيرة من رُبُطهم جنوب مَرَّاكُش، ليقوموا بحملة إرشاديَّة سلميَّة في أَنحاء بلاد المغرب كافة، مجدِّدين عقيدة هؤلاء المسلمين الَّذين فَتُر إِيمانهم، ومحوِّلين إِلى الإسلام جيرانهم من الوثنيِّين.

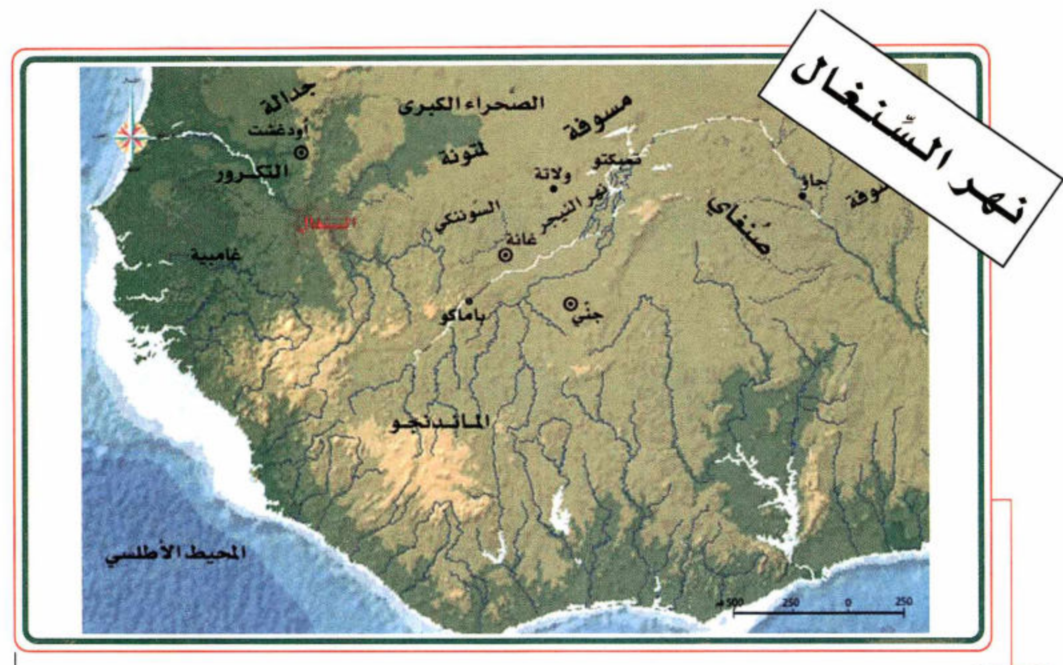


مراكش





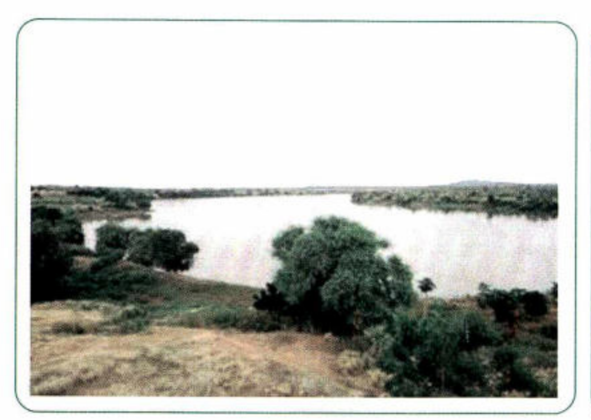
نهر السِّنغال

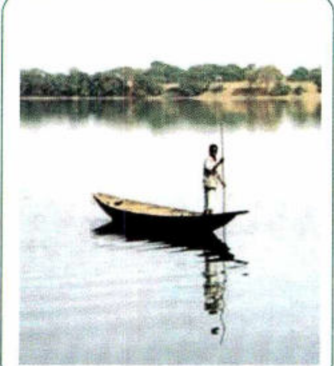


ومن الصَّحراء الكبرى، ذاعت معرفة النَّاس بالإِسلام أوَّل الأمر بين زنوج السُّودان، في البلاد الَّتي يرويها نهر السِّنغال والنِّيجر، حيث اتَّصلوا بممالك وثنيَّة كان بعضها - مثل غانة Ghana وصُنغاي Songhay - عريقاً في القِدَم، وكانت لمتونة وجدالة القبيلتان البربريتان اللَّتان تنتميان إلى عشيرة صنهاجة تتميَّزان بصفة خاصة بحماستهما الدِّينيَّة في تحويل النَّاس إلى الإِسلام، وبجهودهم أثَّرت حركة المرابطين في قبائل السُّودان الوثنيَّة، وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسِّس مَرَّاكُش ١٠٦٢م، وثاني أُمراء دولة المرابطين، حافلاً جدّاً بدخول النَّاس في الإِسلام، وأخذ كثيرون من الزُّنوج الَّذين كانوا تحت حكمه يتعلمون مبادئ محمد ﷺ، وفي سنة ١٠٧٦م طَرَد البربر الَّذين ظلوا وقتاً ما ينشرون الإِسلام في مملكة غانة، الأُسرةَ الحاكمة الَّتي يحتمل أنَّها كانت أُسرة فُلبي Fulbe، وأَسلمت هذه المملكة القديمة على بكرة أَبيها، وفي القرن الثَّالث عشر الميلادي فقدت استقلالها، واحتلها المندنجو Mandingos[1].

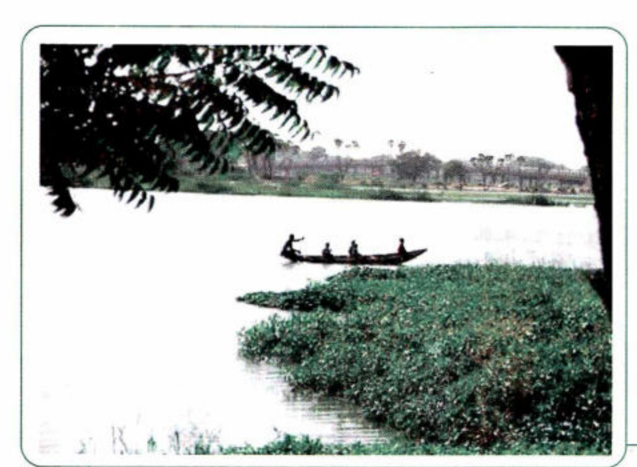
---

(١) المرجع السَّابق ٣٥٤.

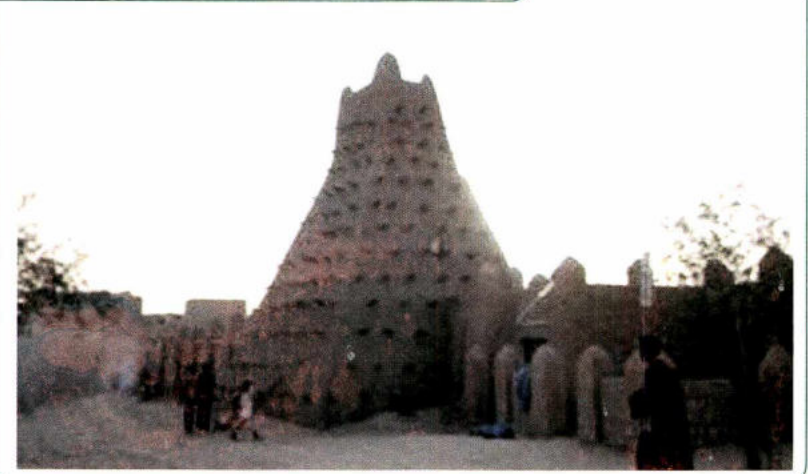




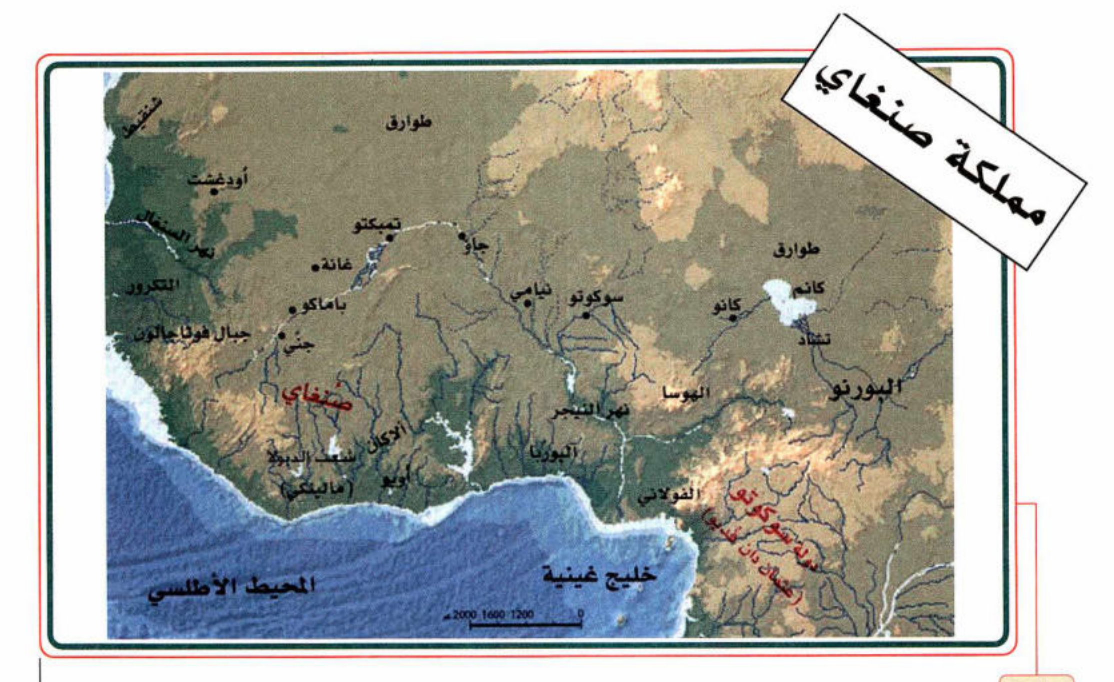
نهر السنغال



نهر النيجر



مسجد في صُنْغاي



السُّودان الغربي:

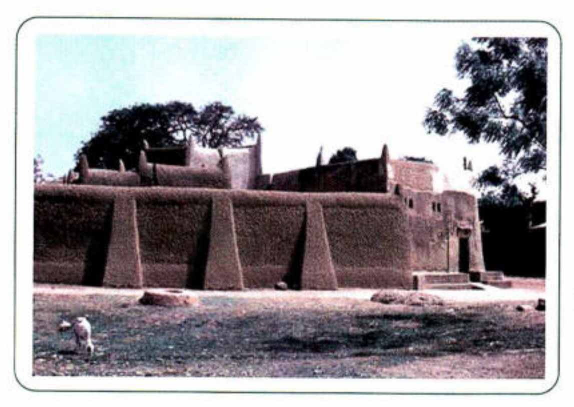
أَوَّل ملك مسلم في مملكة صُنغاي كان زاكاسي Za - Kassi، أَسلم سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩- ١٠١٠م)، دان بالإسلام بمحض إِرادته.

وفي حوض النّيجر تأَسَّست مدينة جنِّي Genne سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣ . ١٠٤٤م)، وتُمبكتو Tembuktu سنة ١١٠٠م تقريباً، وأَسلم كنبورو Kunburu ملك جنِّي سنة ١٢٠٠م تقريباً، فحذا حذوه سكان المدينة، وتُمبكتو (التِّجاريَّة) مدينة إِسلاميَّة منذ البداية، «ما دنَّستها عبادة الأَوثان، ولا سُجِد على أَديمها قط لغير الله»، وبعد سنين صارت مركزاً للتَّعليم الإِسلامي والتَّقوى، توافد عليها طلبة العلم والعلماء[١]، وذكر ابن بطوطة ما رآه قائلاً: يوم الجمعة، من لم يبكّر إِلى المسجد لم يجد أَين يصلِّي لكثرة الزِّحام[٢].

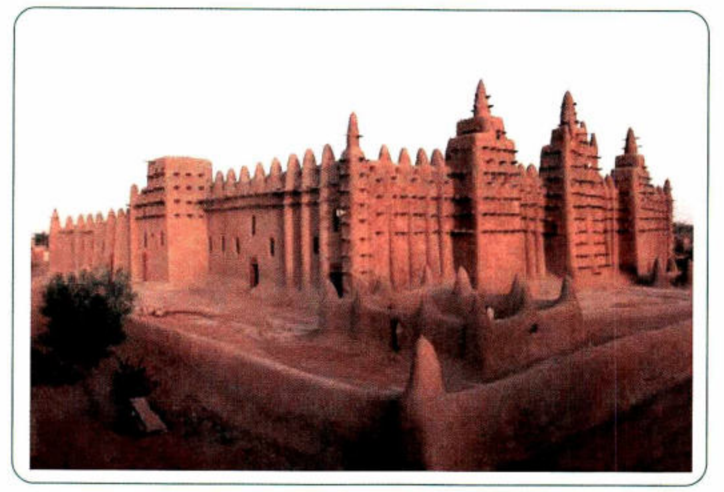
---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٥٥.

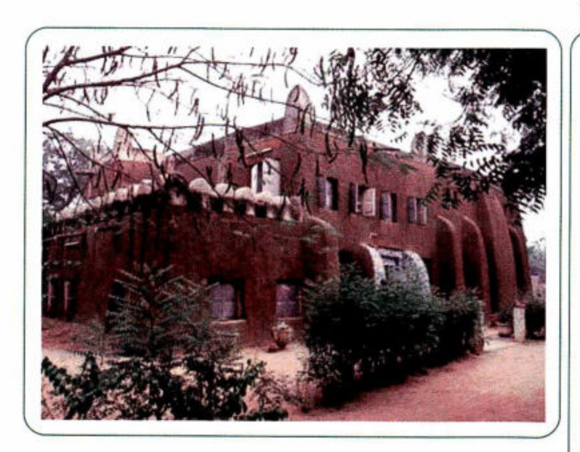
(٢) رحلة ابن بطوطة، أَدب الرِّحلات، دار التُّراث، بيروت ١٩٦٨م، ص٦٧٢.

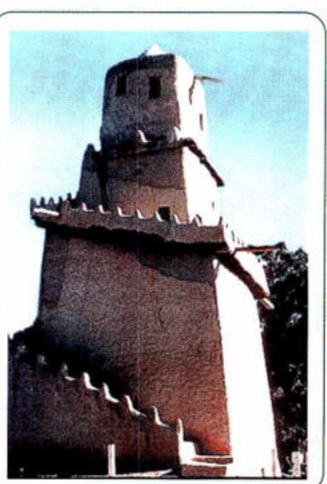


من مناطق الهوسا



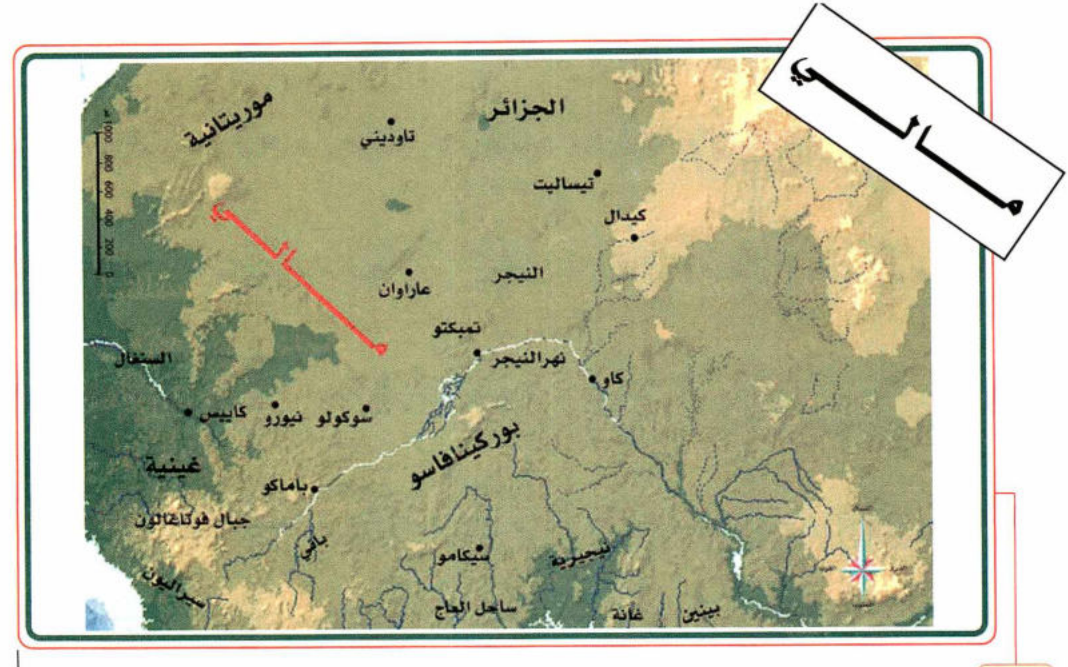
مسجد في تمبكتو



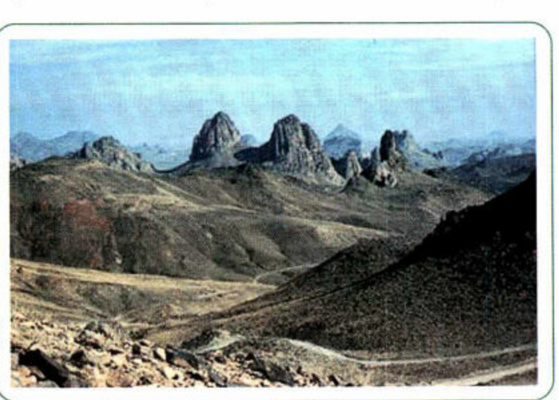


الهوسا

مالي



مالي، عَلَا قدرها بعد اعتناقها الإسلام على يد الماندنجو - أعظم أَجناس إِفريقية رقيّاً - ويذكر لِيُون الإِفريقي أَنَّهم أكثر جميع الزُّنوج مدنيَّة، وأَشدُّهم ذكاء، وأَجدرهم بالاحترام، ويمتدح الرَّحالون المحدثون صناعتهم ومهارتهم وأَمانتهم، وأثر الإِسلام في حياتهم ذكره ونوود ريد Winwood reode : «مسلمون متديِّنون.. يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة، ولكنَّهم أَيضاً يزرعون القطن والفول السُّوداني، وأَنواعاً مختلفة من الغلال، وقد سررت كثيراً بلطفهم وسجاياهم الكريمة، ومظهر نسائهم الجاد المحتشم، ونظافة قراهم وهدوئها»، وكان هؤلاء المندنجو من أَنشط الدُّعاة إِلى الإِسلام، الَّذي انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم[١].



البيئة في مالي

---

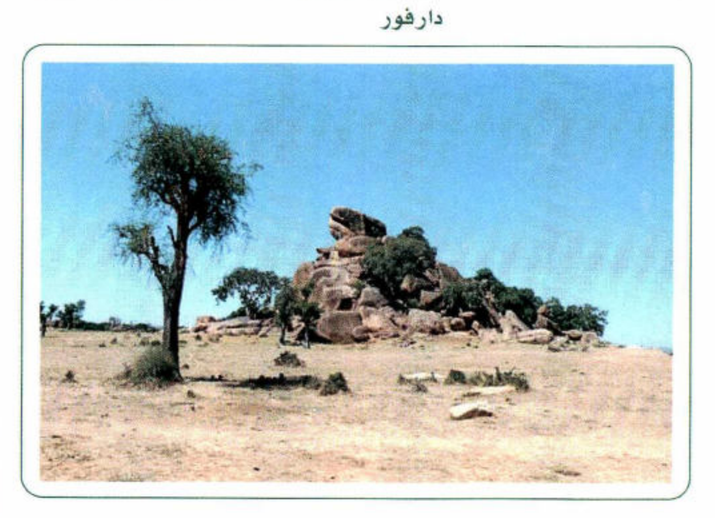
(١) الدَّعوة إِلى الإِسلام، ص ٣٥٦.

كردفان



ومن الممكن أَن تكون قبائل الهوسا Hausa قد تأَثَّرت بموجة كبيرة سرت من مصر صوب الجنوب في القرن الثَّاني عشر الميلادي، ويفتخر سكان كردفان بأَنَّهم ينحدرون من العرب الَّذين شقُّوا طريقهم إِلى وسط إِفريقية وغربها.

دارفور



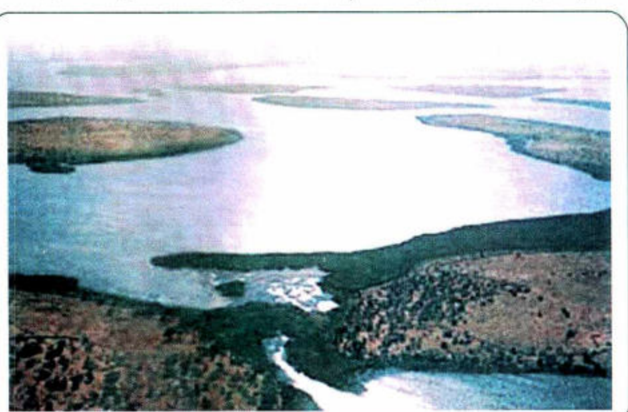
كردفان

وسط إفريقية وشمالها



ووصل وسط إِفريقية داعية من تِلِمْسَان قرابة سنة ١٥٠٠م اسمه: محمد بن عبد الكريم بن محمَّد المجيلي.

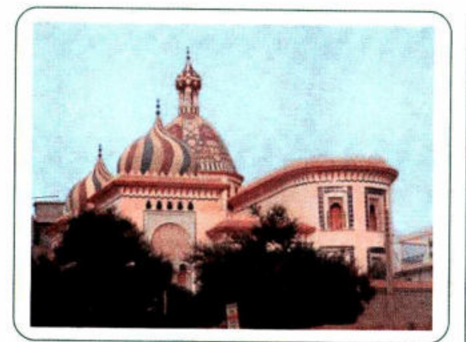
وانتشر الإِسلام في إِفريقية الوسطى حتَّى دخل كانم Kanem، وشمال، وشمال شرق بحيرة تشاد، وأَصبحت المنطقة دولة ذات أَهمِّيَّة كبرى، وبسطت سلطانها على قبائل السُّودان الشَّرقي إِلى حدود مصر وبلاد النُّوبة، وأَوَّل ملوك كانم من المسلمين حكم نهاية القرن الحادي عشر، أَو في النِّصف الأَوَّل من القرن الثَّاني عشر الميلادي[١].

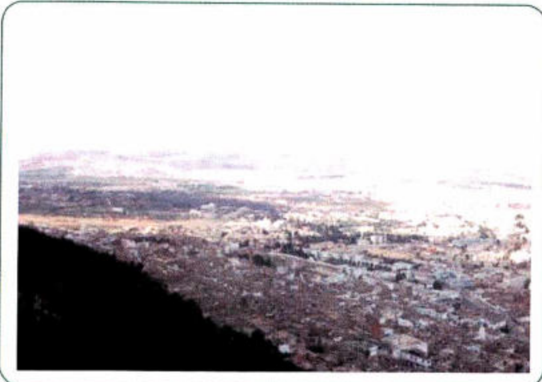


بحيرة تشاد

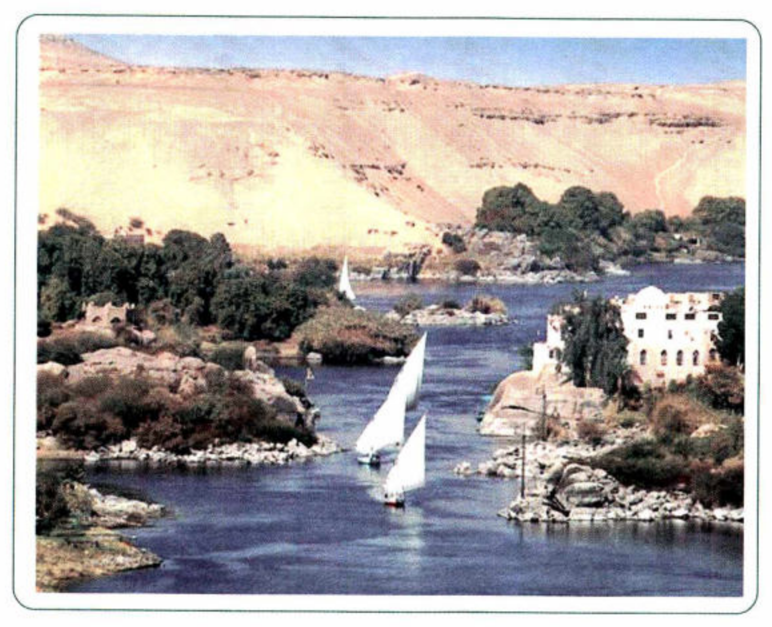
---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٥٧.

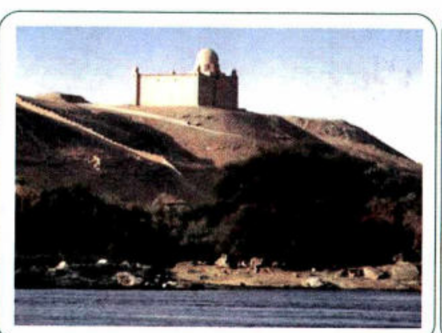


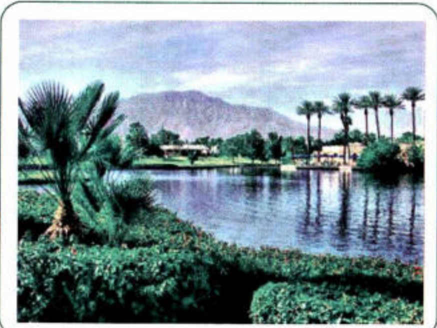


تلمسان



شمال السودان
(النوبة)



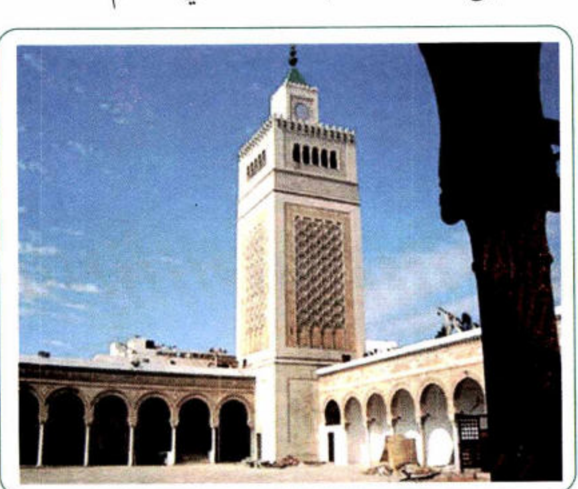


تونس والجنوب



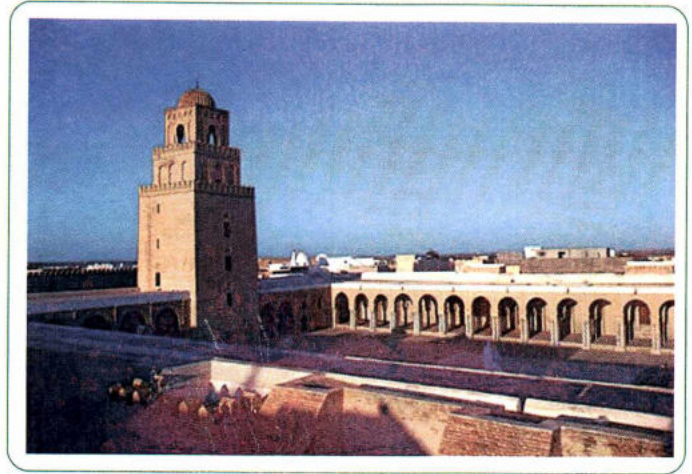
وفي القرن الرَّابع عشر الميلادي؛ هاجر عرب التَّنجور من تونس إلى الجنوب، واخترقوا البرنو Bornu، ووَدَاي Wadai، حتَّى وصلوا إلى دارفور، وأَسَّست أُسرة حاكمة رسَّخت الإِسلام سنة ١٥٩٦م بين كردفان وبحيرة تشاد كَوَدَاي وباغرمي.

أَوَّل ملوك باغرمي من المسلمين السُّلطان عبد الله، الَّذي حكم ١٥٦٨ - ١٦٠٨م، وتأَسَّست مملكة وَدَاي سنة ١٦١٢م تقريباً، ولم تعتنق الإِسلام عامَّة باغرمي إِلَّا في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّامن عشر الميلادي(١).



القيروان

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٥٩.



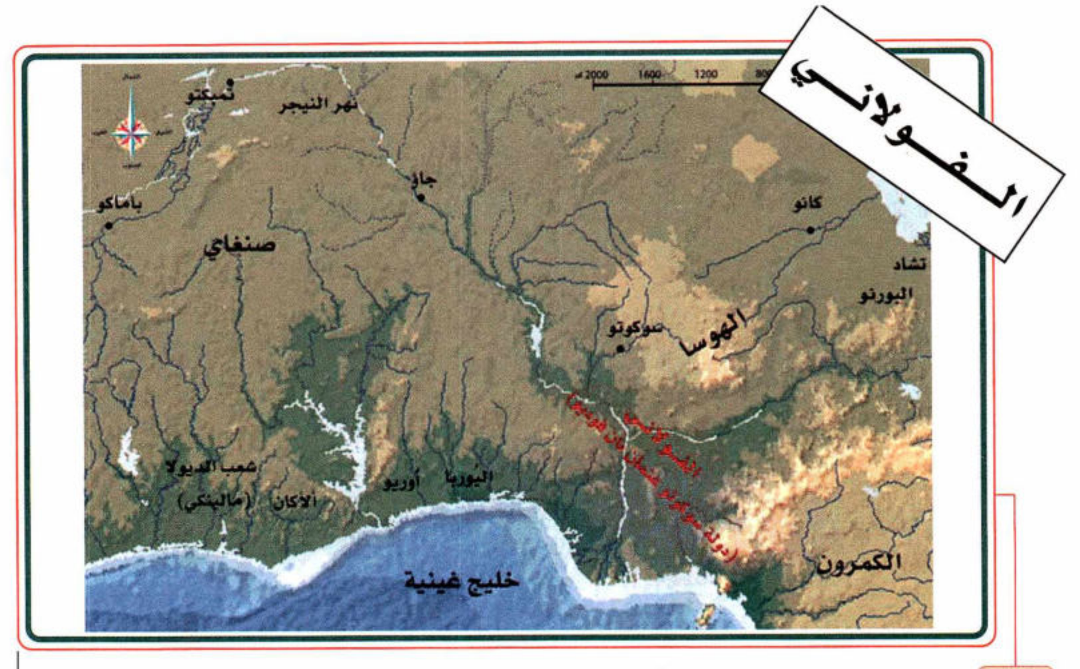
القيروان



واحة وَدَاي



بورنو (تشاد)



وفي نهاية القرن الثَّامن عشر؛ ظهر عثمان دَنْفُدْيو من قبيلة الفولاني، الَّذي عاد بعد حجِّه مصلحاً داعياً إلى الإسلام نقيّاً، وموطن الفولاني حول نهر الجمبيا، وتكلَّم النَّاس العربيَّة الَّتي يتعلَّمونها في المدارس، ودفعهم حبُّ القرآن الكريم لتعليم العربيَّة، وتعلَّموا «ما هو عدل، وما هو حقٌّ» الَّذي أكسبهم سلوكهم حدّاً من الشُّهرة، يجعل من العار أَن يعاملهم أَحدٌ معاملة غير كريمة، وعمَّت إنسانيتهم جميع النَّاس، وحرَّروا كلَّ العبيد، ولم يتركوا أَحداً يقاسي الحاجة، ويذكر السُّيَّاح أَنَّهم «لم أَسمع مطلقاً واحداً منهم يسب الآخر».

ضمَّ عثمان دنفديو كلَّ أَراضي الهوسا قبل وفاته عام ١٨١٦م، وقبره في سوكوتو Sokoto[١].

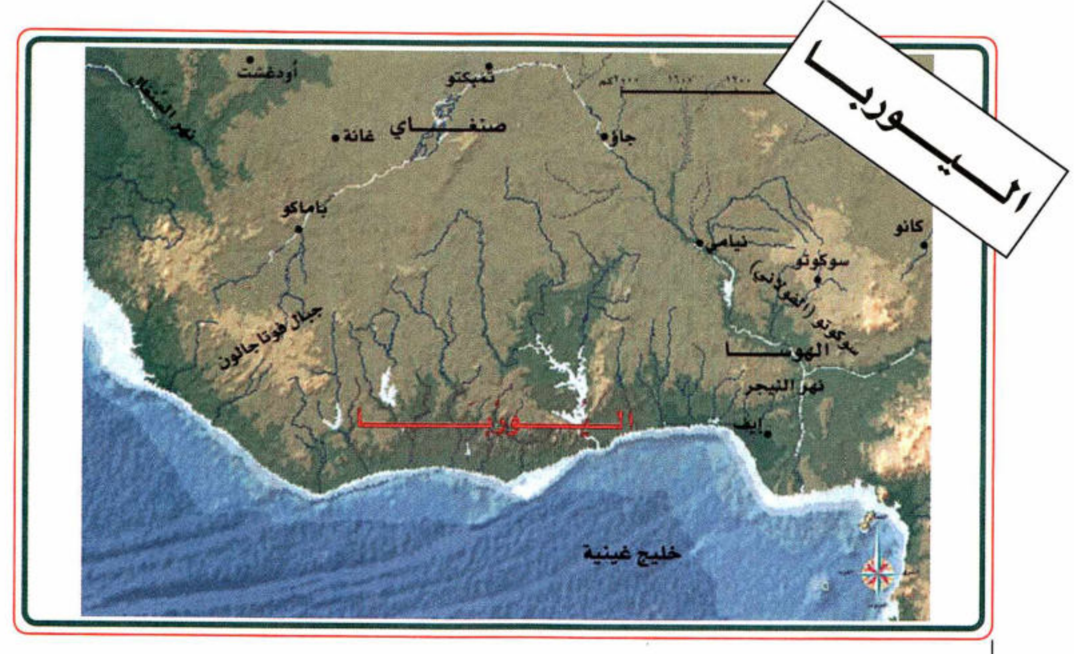
ساعد دخول القانون والنِّظام في نيجرية الجنوبيَّة على نشر الدعوة إلى الإسلام، فاستطاع مسلمو الهوسا إدخال الوثنيِّين في الإسلام، وترسَّخ الإسلام في مملكة اليوروبا - حاضرتها إِيف Ife - بسرعة[٢].

---

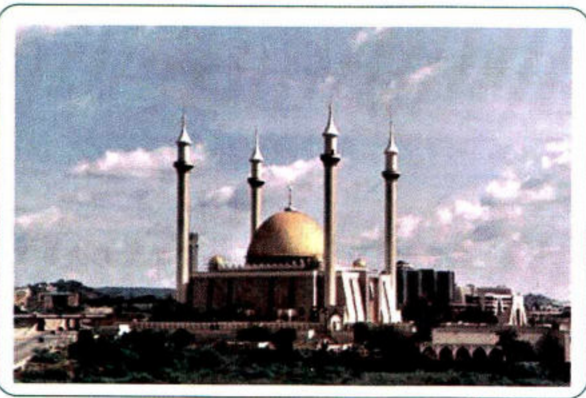
(١) المرجع السَّابق، ص ٣٦٠.

(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٦٢.

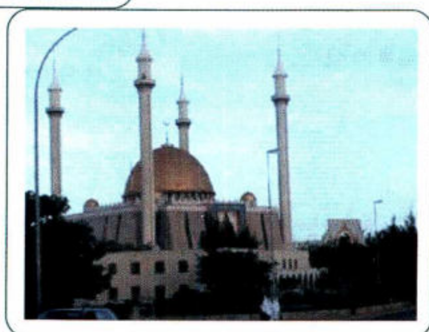
اليوروبا



وأَخذ نفوذ الإِسلام يزداد اتِّساعاً في إفريقية الغربيَّة، واعتناق الوثنيِّين للإِسلام كي يتجنَّبوا سخرية النَّاس من الوثنيَّة، وليظفروا باحترام المجتمع.

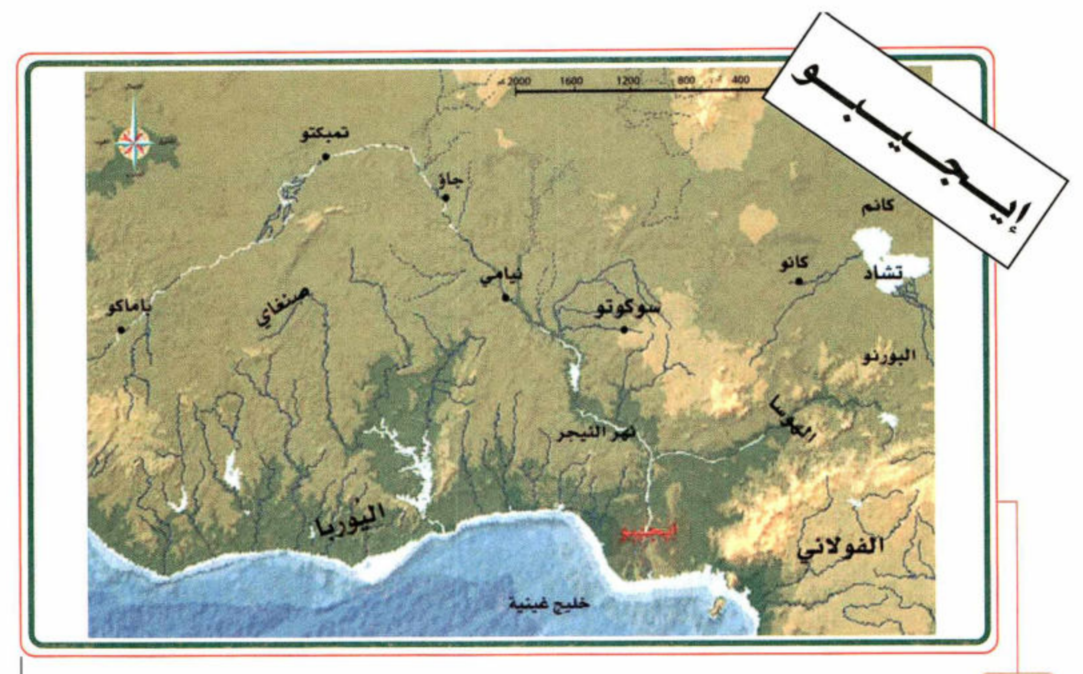


مسجد في سوكوتو



مسجد في أبوجا (نيجيرية)

إيجيبو



مملكة إِيجيبو Ijebu جنوب نيجرية، حركة نشطة للدَّعوة إِلى الإِسلام عام ١٨٩٣م، وفي سنة ١٩٠٨م كانت هناك بلدة بها عشرون مسجداً، وأُخرى بها اثنا عشر مسجداً، مع سرعة ملحوظة لانتشار الإِسلام على ضفَّتي نهر النِّيجر في نيجرية الجنوبيَّة. واعترف مبشِّر مسيحي: عندما غادرت هذه البلاد في سنة ١٨٩٨م؛ كان هناك قليل من المسلمين بأَسفل إِدَّه Iddah، ولكنهم الآن منتشرون في كلِّ مكان(١).

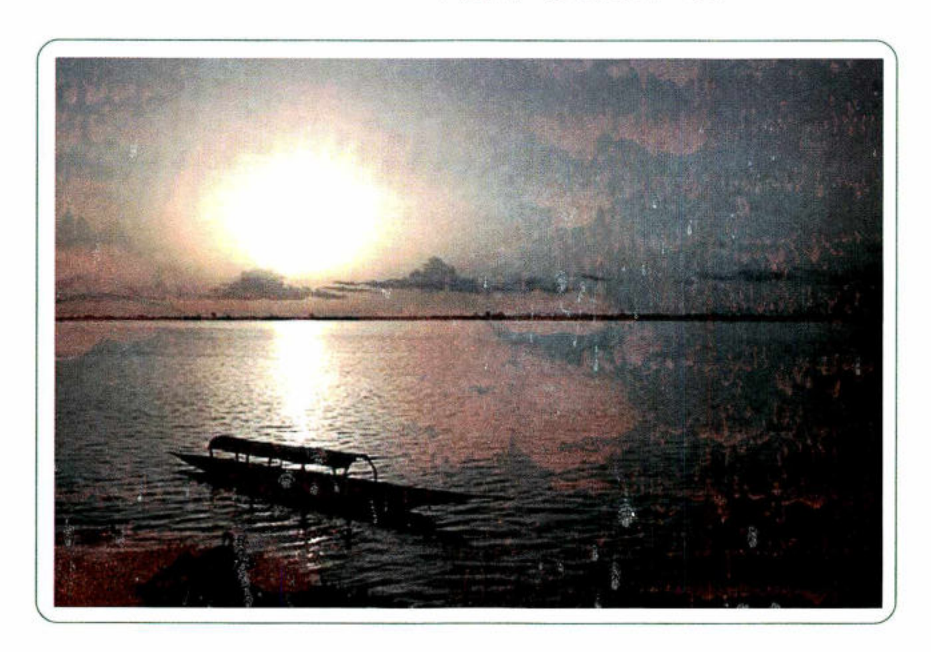


الطبيعة في إيجيبو

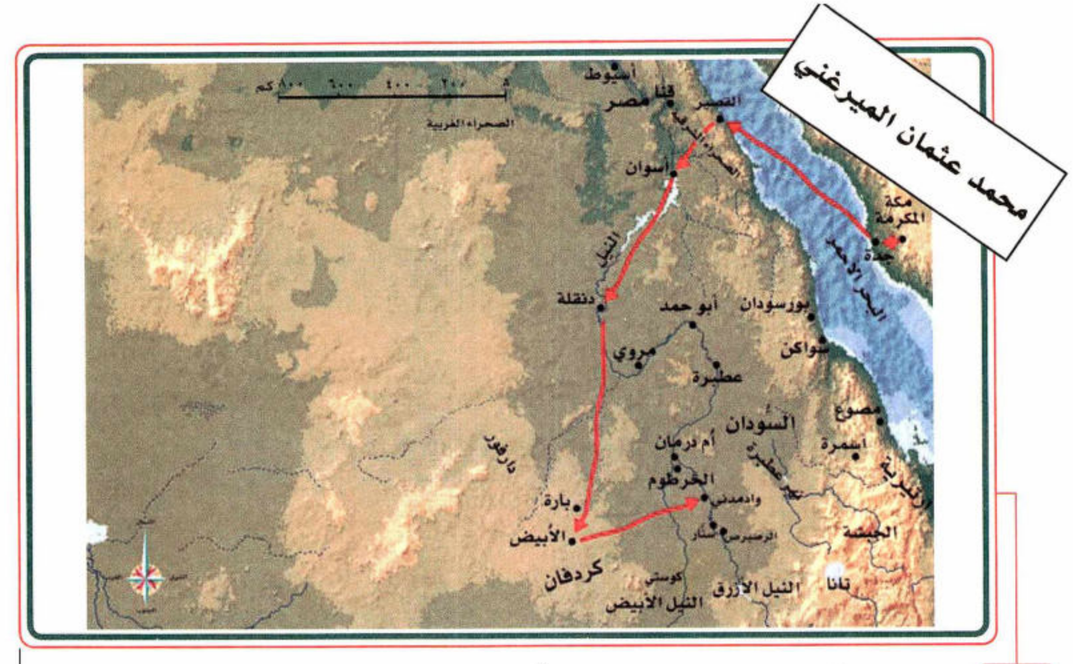
(١) المرجع السّابق، ص ٣٦٣.



نهر النيجر (جنوب نيجيرية)

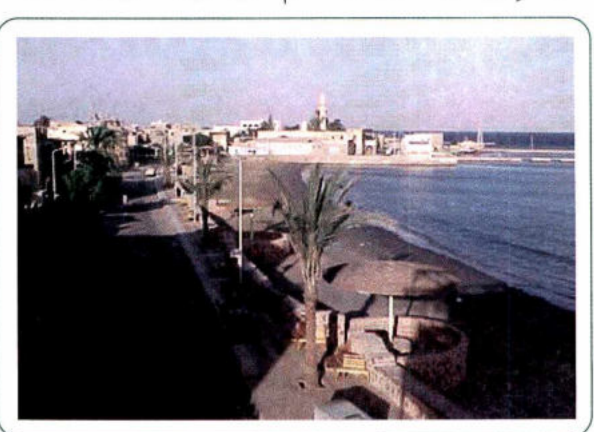


محمد عثمان الميرغني



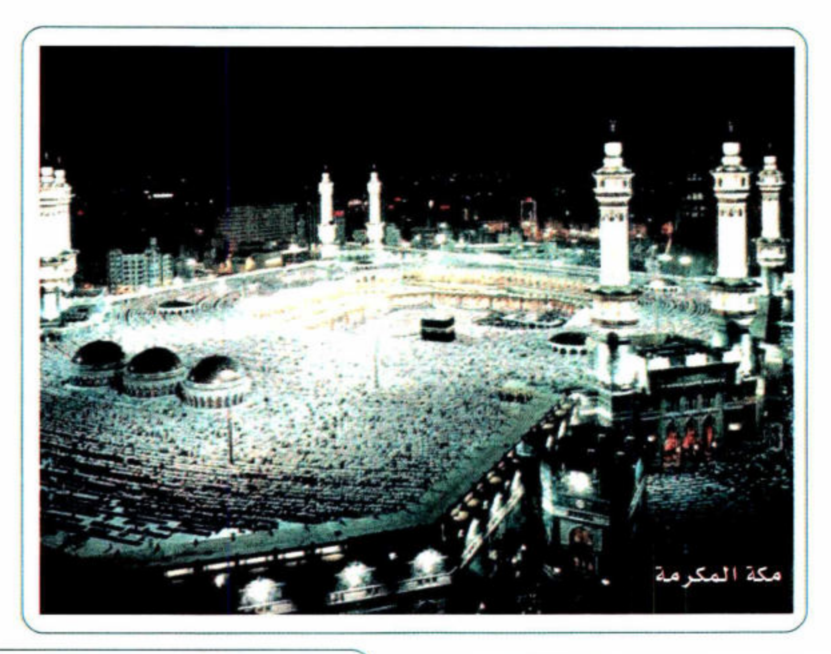
محمَّد عثمان الميرغني: إنَّ انتشار الإسلام على يد رجال دعاة لم يمتشقوا الحسام؛ أمر عجيب في غرب إفريقية ووسطها.

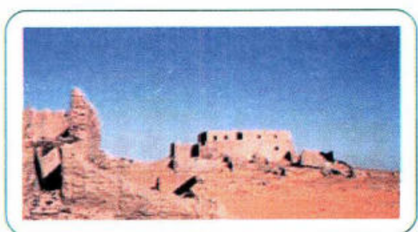
أَحمد بن إدريس، أرسل من مكة المكرَّمة أحدَ أتباعه قبل موته عام ١٨٣٥م، هو محمَّد عثمان (الأَمير غني) في رحلة إلى إفريقية لنشر الإسلام، فعبر البحر الأَحمر إلى القُصَيْر، وبلغ النِّيل، وفي بلدةَ دُنْقُلَة وجد نجاحاً كبيراً، ثمَّ اتَّجه إلى كردفان، وأَسلم الوثنيُّون حول سَنَّار، وتزوَّج منهم، فتولَّى نسله منهن بعد أَن مات سنة ١٨٥٣م نشاط الطَّائفة الدَّعوي، وتسمَّوا (أَمير غنيَّة) نسبة إليه[1].



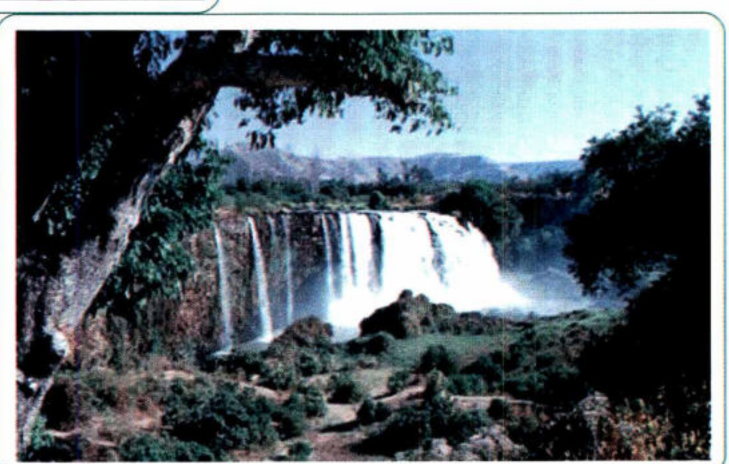
القصير

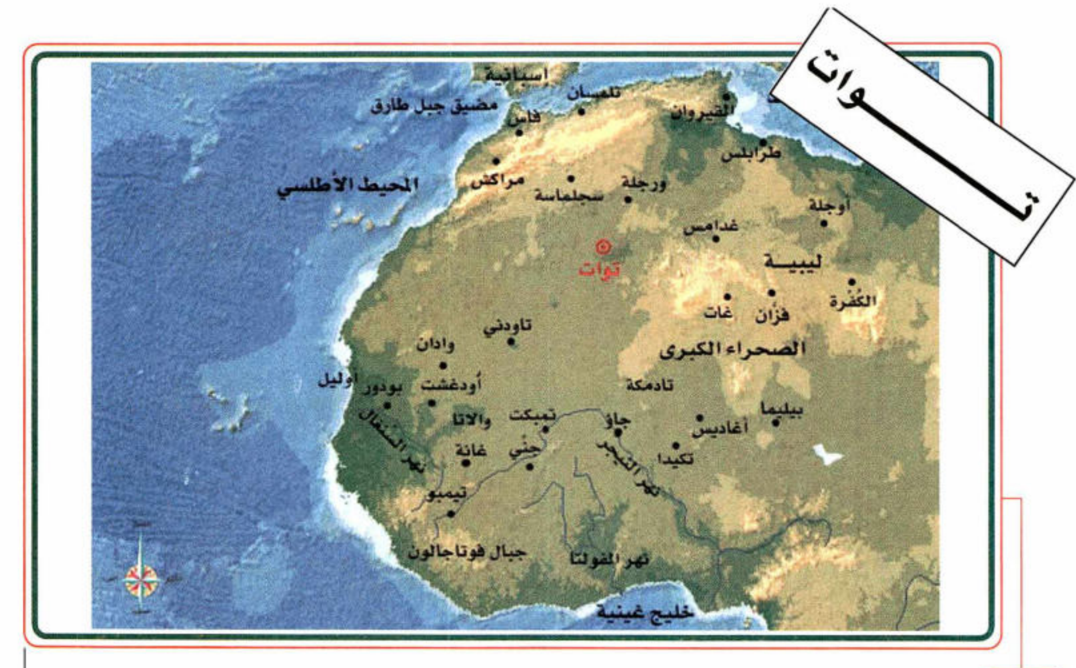
(١) المرجع السَّابق، ص ٣٦٤.


مكة المكرمة


من آثار دنقلة




منابع النيل الأزرق (الحبشة)

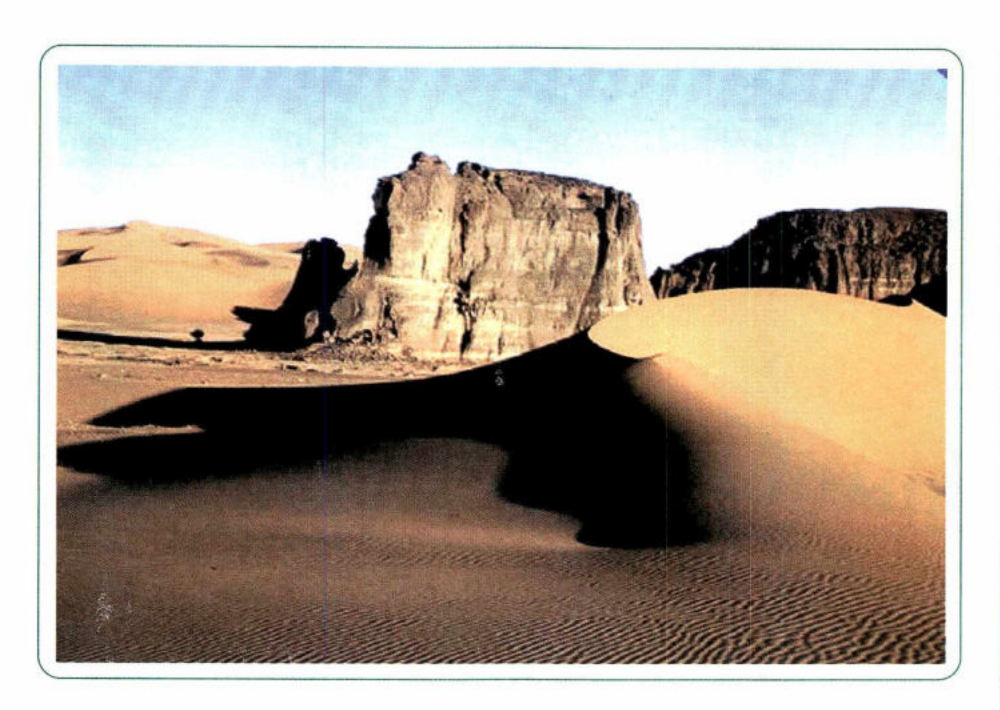


ودخلت القادرية إفريقية الغربيَّة في القرن الخامس عشر الميلادي على أَيدي مهاجرين من توات Tuat، وهي واحة في النِّصف الغربي من الصَّحراء، واتَّخذوا من ولاته Walata أَوَّل مركز لطريقتهم، ووصلوا تُمبكتو، وانتشروا من السِّنغال إِلى مصبِّ نهر النّيجر، ومراكزهم في دعوتهم في كنكا وتمبو Timbo بجبال فوتاجالون، ومسردو Musrdo، الواقعة في بلاد المـانـدنـجـو Mandingo[1].

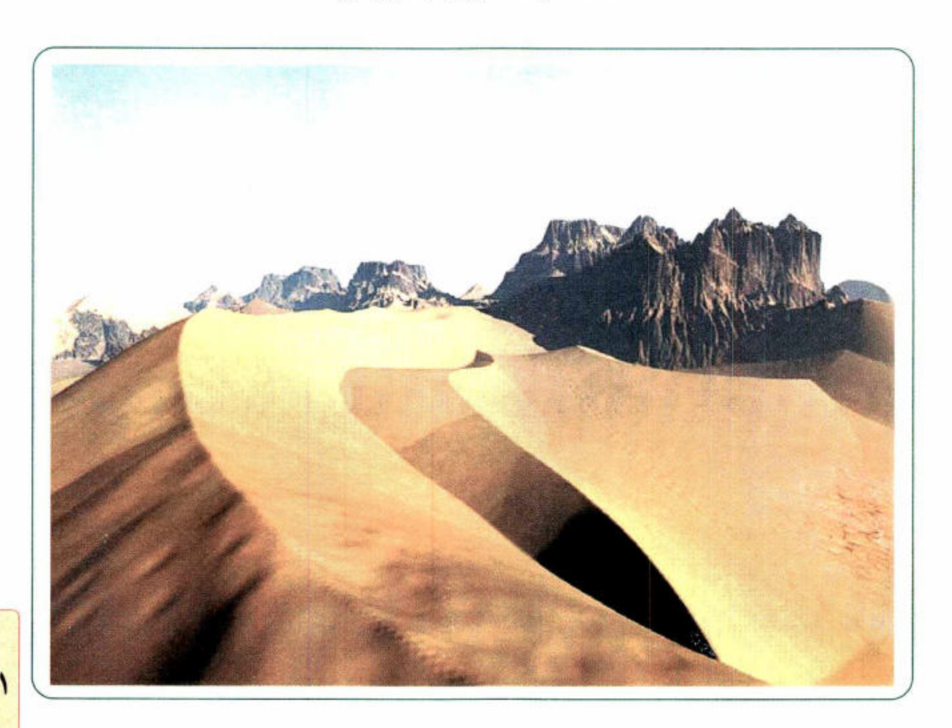


جبال فوتاجالون

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٦٥.



الصحراء الكبرى (الجزائر)



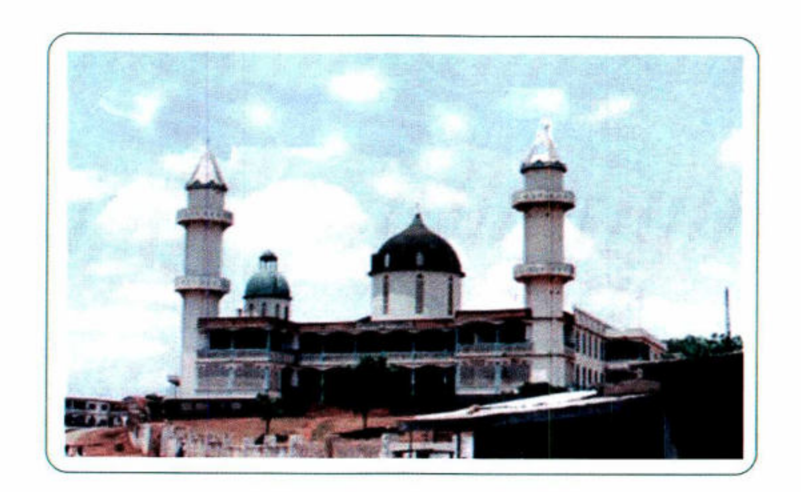


أَسلم الوثنيُّون، وأُرسل منهم من تعلَّم في مدارس القيروان وطرابلس والأَزهر (في القاهرة)، وربما قضوا في هذه المدن عدَّة سنوات حتَّى يتقنوا دراستهم الدِّينيَّة، ثمَّ يعودوا إِلى أَوطانهم مزوَّدين تزوُّداً تاماً للاشتغال بنشر العقيدة بين مواطنيهم، وعلى هذا النَّحو تسرَّبت نواة الإِسلام إِلى عبدة الأَوثان والأَصنام، وانتشرت العقيدة تدريجيّاً انتشاراً عظيماً بصفة مستمرة، «وكان نشاط هذه الجماعة في الدَّعوة ذا طابع سلمي للغاية، يعتمد كلَّ الاعتماد على الإرشاد، وعلى أَن يكون الواحد منهم قدوة لغيره»[1].

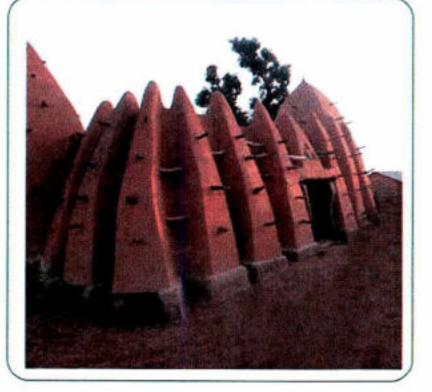
وكان المعلِّمون حتَّى منتصف القرن التاسع عشر يؤسِّسون المدارس في السُّودان ويشرفون عليها، لقد برهن دعاة القادريَّة في السُّودان على أَنَّهم أَوفياء لمبادئ مؤسِّس الجماعة، ولتقاليدها العامة، ذلك لأَنَّ أَهم المبادئ الَّتي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حبُّ الجار، والتَّسامح، والدُّعاء لغير المسلمين أن ينير الله لهم السَّبيل.

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٦٦.







مساجد في غانة
بين القديم والحديث

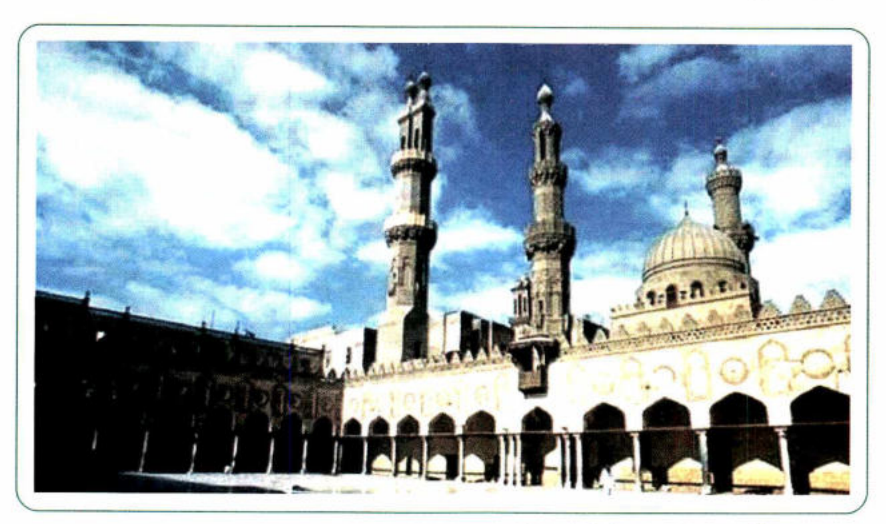


التِّيجانيَّة:

سارت منذ قامت في السُّودان في منتصف القرن التَّاسع عشر تقريباً، على أَساليب القادريَّة نفسها في نشر الدَّعوة، وإِن اعتمدت أَحياناً على العنف، ومن الحقائق التَّاريخيَّة؛ أَنَّ شهرة التِّيجانيَّة في الحروب لم تُجدِ كما أَجدى انتشار الإِسلام الدَّعوي التَّسامحي التَّعليمي. وأَشاع الغربيُّون أَعمال التِّيجانيَّة الحربيَّة، ولم يسترعِ انتباههم الأَعمال السِّلميَّة - وهي السَّائدة - الَّتي كان يقوم بها دعاة المسلمين ومعلموهم.

أَوَّل الحركات الحربيَّة التي قام بها أَفراد التِّيجانيَّة في نشر الدَّعوة تعزى نشأتها إِلى الحاج عمر، المولود عام ١٧٩٧م على مقربة من بودور Podor على نهر السّنغال الأَدنى، كان كريم السَّجايا، ذا مظهر يوحي بالسَّيطرة والقوَّة، تثقَّف ثقافة دينيَّة متينة، واشتهر بعلمه وورعه حين خرج إِلى الحجِّ عام ١٨٢٧م، ولم يعد من الحجِّ إِلى وطنه إِلَّا عام ١٨٣٣م حيث نشط في نشر تعاليم التِّيجانيَّة، وعبر السُّودان الأَوسط، فظفر بكثير من الأَتباع، وما إِن وافت سنة ١٨٤١م حتَّى كان قد بلغ جبال

فوتاجالون، وقُتِل سنة ١٨٦٥م في إِحدى حروبه، ولم ينجح ابنه أَحمدو شيخو في ضمِّ مختلف الولايات في مملكة أَبيه إِلَّا سنوات قليلة، لقد استعمرت فرنسة المنطقة[١].

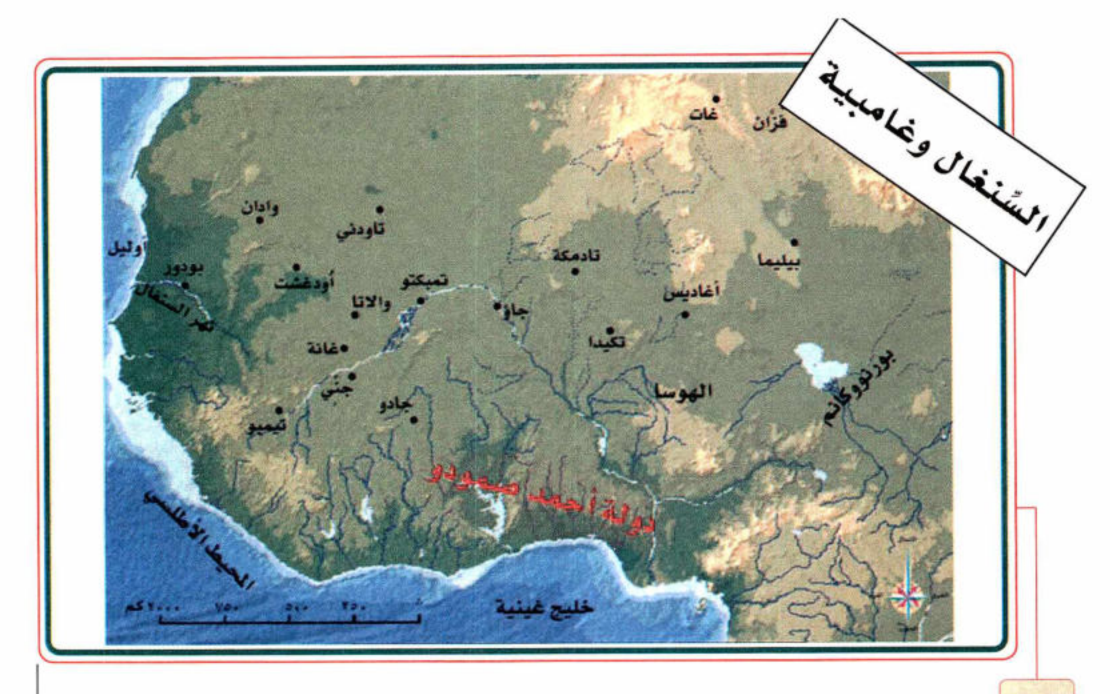


الأزهر الشريف (القاهرة)



طرابلس (ليبية)

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٦٧.



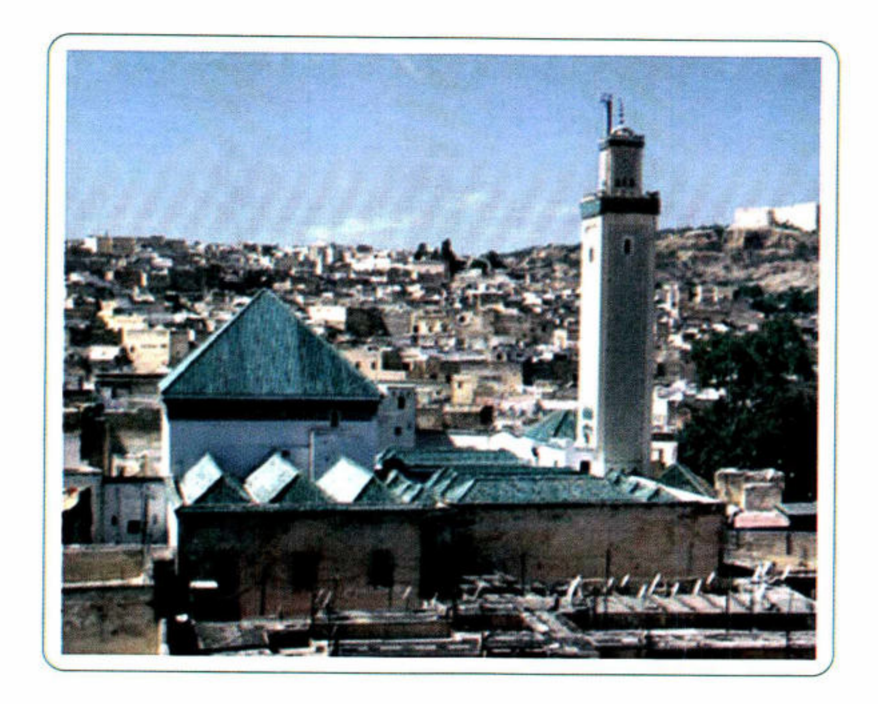
أحمد صمودو (صمدو):

أَحد أَفراد المانديجو، وثني موسر، وُلِد سنة ١٨٤٦م، وأَسلم وهو فتى، وأَسَّس إِمبراطوريَّة في جنوب سنغامبية، في البلاد الَّتي يرويها نهر النّيجر الأَعلى وروافده[١]، كان يزور الوثنيِّين لدعوتهم إِلى الإِسلام، واستطاع الوصول إِلى أَبناء الوثنيِّين وضمِّهم إِلى مدارس يتعلمون منها القرآن الكريم، ويلمُّون بأَطراف الدِّين مع التَّربية والتَّهذيب، وبلغ أَحمد صمودو أَوج قوَّته؛ نحو سنة ١٨٨١م، ولكن الفرنسيِّين دخلوا المنطقة مستعمرين، وأَسروه سنة ١٨٩٨م، ومات سنة ١٩٠٠م.

«من المهم أَن نلاحظ أَنَّ الانتصارات الحربيَّة، وفتح البلاد، لم يكن أَهم ما ساعد على تقدُّم الإِسلام في هذه المناطق»[٢]، إِنَّ انتشار الإِسلام سببه النَّشاط الَّذي كان ذا طابع سلمي خالص، واستمر انتشار الإِسلام بعد الاستعمار الأُوروبي التَّبشيري لإِفريقية الغربيَّة.

---

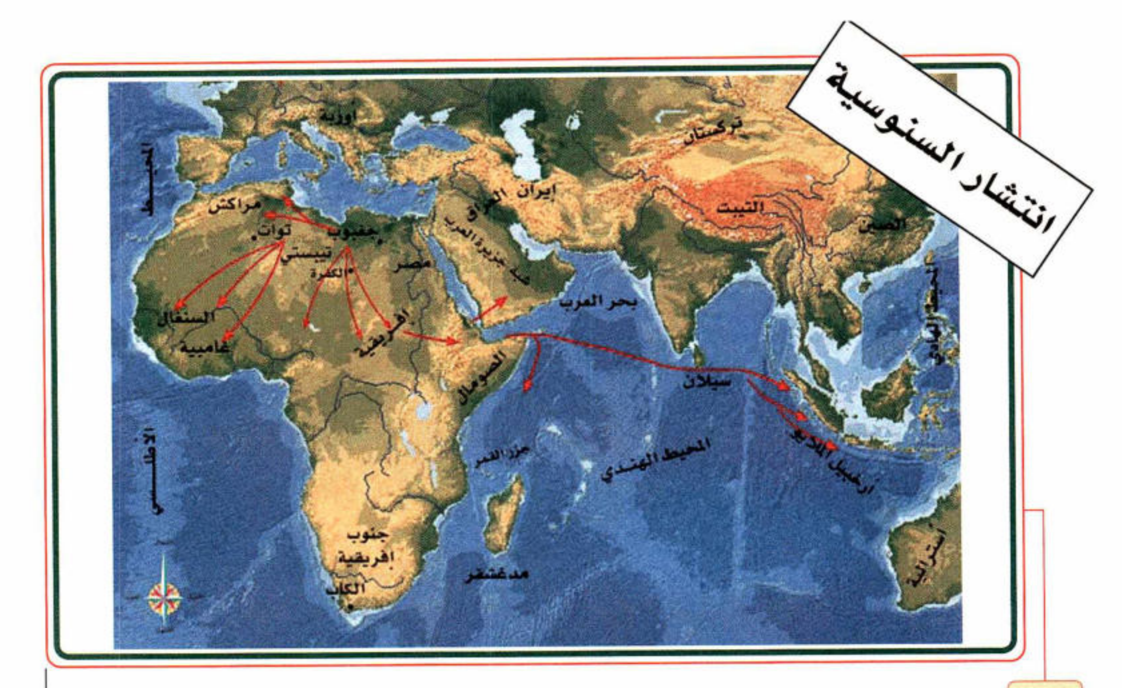
(١) المرجع السَّابق، ص ٣٦٨.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٦٩.



فاس (مدينة مقدسة عند التيجانيين)



شاطئ غامبية



السَّنوسيَّة:

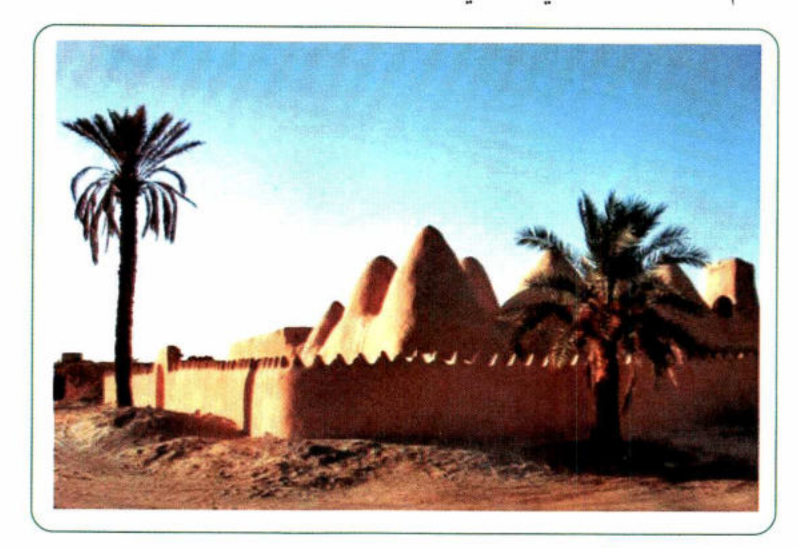
لم تستخدم العنف أو الحرب مطلقاً، لم تستخدم إِلَّا كلَّ وسائل السَّلام والتَّرغيب[١]، أَسَّسها محمَّد بن علي السَّنوسي، الفقيه الجزائري سنة ١٨٣٧م، ولم يمت سنة ١٨٥٩م حتَّى كان قد نجح هدفه في إِصلاح شأن الإِسلام، ونشر العقيدة الإِسلاميَّة، دون أَن يريق الدِّماء، انتشرت زواياه من مصر إِلى مَرَّاكُش، حتَّى واحات الصَّحراء، وفي السُّودان، مركزها واحة الجغبوب في شرق ليبية، يتعلَّم كلَّ عام مئات من الدُّعاة، ثمَّ يُرْسَلُون إِلى كلِّ أَرجاء إِفريقية الشَّماليَّة دعاة للإِسلام.

وفي عام ١٨٩٥م انتقل مركزها إِلى واحة الكُفْرَة، حيث انتقل إِليها المهدي بن محمد السَّنوسي لتوسُّطها، وتوغَّل جنوباً إِلى منطقة بوركو Borku، وتيبستي Tibesti، حيث توفِّي سنة ١٩٠٢م[٢]، بعد أن وصلت دعوتهم إِلى أَرجاء السُّودان وسنغامبية والصُّومال، والجزيرة والعراق، وجزائر أَرخبيل الملايو.

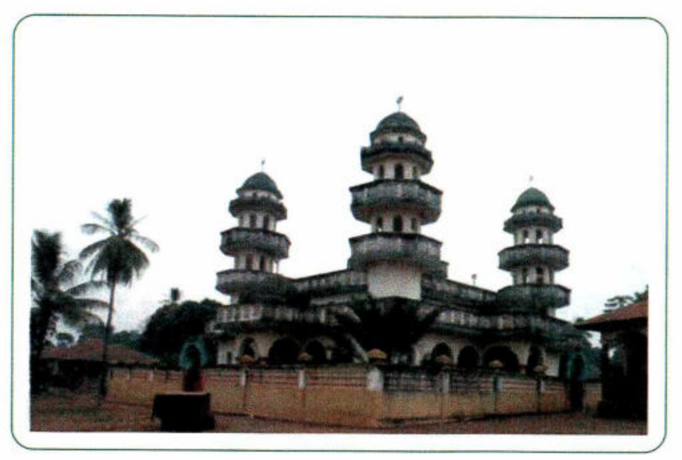
(١) المرجع السَّابق، ص ٣٧٠.

(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٧١.

المناطق الإِسلاميَّة في السُّودان الأَوسط تُعْرَف بملابسها المحتشمة، «وأَصبحت النَّظافة عندهم عادة، على حين دلَّ مظهرهم الخارجي على وقار وأَدب جمٍّ.. رقيٌّ أَثر تأثيراً عميقاً في طبيعة الزِّنجي، وجعل منه إِنساناً جديداً.. صناعة المنسوجات والنُّحاس والجِلد.. والواقع أَنَّهم شعب تقدَّم تقدُّماً عظيماً في مراقي الحضارة والمدنيَّة»[1].

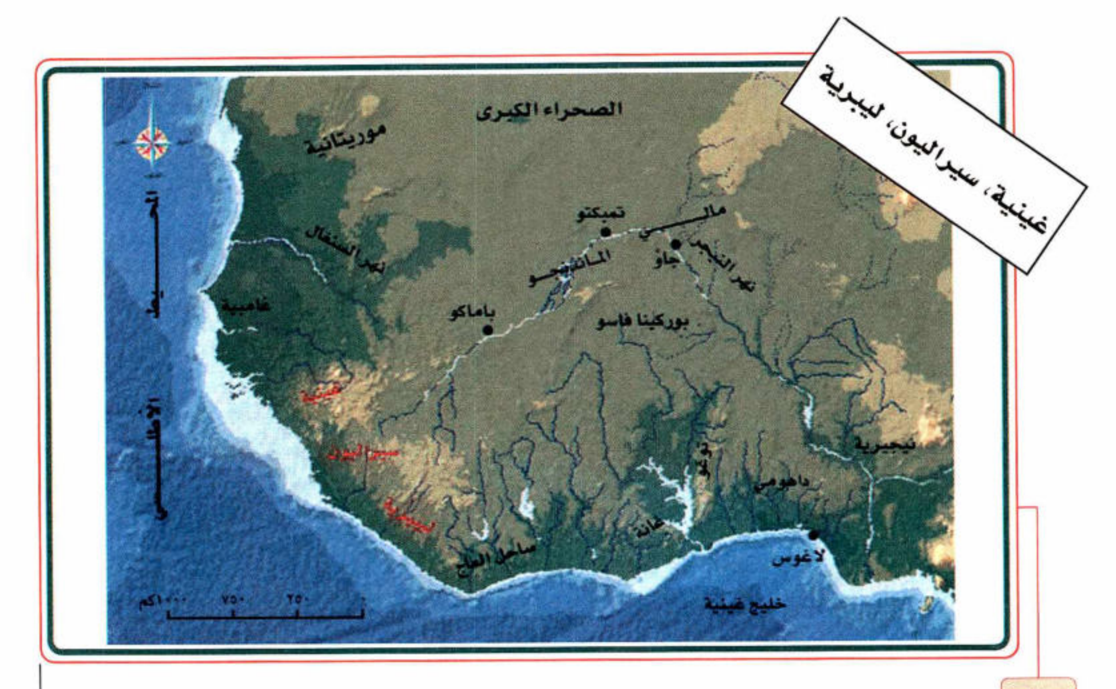


جزء من واحة الكُفرة



مسجد في سيراليون

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٧٣.



الإِسلام على السَّاحل الغربي من إِفريقية:

في أَمر لحلِّ شركة سيراليون في ٢٥/ ٥/ ١٨٠٢م، جاء ما نصُّه: «منذ مدَّة لا تزيد عن سبعين عاماً، استقرَّت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشَّمال بما يقرب من أَربعين ميلاً [٦٤كم]، وسمَّوها بلاد الماندنجو، وكما هي العادة عند فقهاء الإِسلام، فتحوا مدارس، تدرَّس فيها اللُّغة العربيَّة، والعقائد الَّتي جاء بها محمَّد ﷺ، جلبوا إِلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيّاً، كما جلبوا إِليها الاتِّحاد والطُّمأنينة، انتشر الإِسلام في أَمن وسلام انتشاراً سلميّاً في كلِّ المنطقة الَّتي تقع فيها مستعمرة الماندنجو، ومنها وجد الإِسلام منفذاً إِلى بلاد مندي Mandi، الَّتي تقع على بعد مئة ميل [١٦٠كم] تقريباً جنوب سيراليون، وتقدَّم تقدُّماً ثابتاً، ولا يقوم هناك بالدَّعوة أَيَّة جماعة خاصَّة من الدُّعاة تفرَّغت لهذا الغرض، بل كلُّ مسلم هناك داعية نشط»[1].

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٧٥.

إذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال من المسلمين، وأقل من ذلك أو أكثر وعزموا على أن يقيموا فيها فترة من الزَّمن، سارعوا إلى بناء مسجد بإذن من رئيس المدينة، وربما ظفروا بوعد منه أن يُسْلِم، ويعلِّمونه العربيَّة، ويحرِّمون عليه تناول الخمور.

وفي داهومي Dahomey، وساحل الذَّهب، ولاغوس Lagos نَشَر الإسلام فيها التُّجَّار من الفولاني والماندنجو والهوسا[1].

من مصب نهر السِّنغال حتَّى لاغوس، في مسافة تبلغ ألفي ميل (أكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر)، يندر أن نجد مدينة ذات أهميَّة على ساحل البحر ليس فيها مسجد واحد على الأقل، وفيها دعاة نشيطون[2].



لاغوس

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٧٦.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٧٧.

وجاء في كتاب: (دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية) ما يؤيد انتشار الإسلام الدَّعوي، وممَّا جاء:

«وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ الثَّقافة العربيَّة في المغرب الأقصى وغرب إفريقية، فقد أصبحت هذه المدينة منارة للعلم يقصدها العلماء والتُّجَّار من كلِّ حدبٍ وصوب، وأخذت معاهدها تتأثَّر بالمؤثِّرات الثَّقافية من معاهد القيروان، والأندلس، وتشيعها في البلاد، ووصل نفوذ فاس إلى درعة بالدَّعوة والكلمة الطيِّبة، وليس بالسَّيف»[1].

التَّكرور (وتعني أرض المسلمين السُّود) دخلها الإسلام في عهد الملك وارجابي بن رابيس سنة ٤٣٠هـ. وقبائل الفولاني، موطنهم السِّنغال الأوسط، تأثَّروا بالدُّعاة من البربر، اختلطوا وتزاوجوا، واستوعبت البربر لغاتهم، وقبائل الماندي (الماندنجو) انتشرت لبضعة قرون في المنطقة الممتدَّة بين نهر النِّيجر والمحيط الأطلنطي[2].

وأسلم أهل غانة وحَسُنَ إسلامهم عند خروج الأمير أبي يحيى بن الأمير أبي بكر بن عمر اللَّمتوني إليهم، واستقام له أمر الصَّحراء إلى جبل الذَّهب من بلاد السُّودان، فحمل الكثير من أهل هذه البلاد على الإسلام، فدانوا له، وأخلصوا في نشر الدَّعوة الإسلاميَّة[3].

وحين اغتيل الأمير أبو بكر زعيم المرابطين بسهم مسموم سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، لأنَّه سخر من السِّحر وعبادة قوى الطَّبيعة الَّتي كان الوثنيُّون يعبدونها، ثارت القبائل السُّودانيَّة المسلمة، وطالبت بدمه، حتَّى بعض القبائل الوثنيَّة اعتنقت الإسلام أمام هذه الجريمة البشعة، فكانت حادثة

(١) دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، الدكتورة عصمت عبد اللَّطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٤٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٤.
(٣) المرجع السَّابق، ص ١١٤.

مقتل الأَمير أَبي بكر بن عمر في حدِّ ذاتها قوَّة أُخرى أذكت تيَّار الإِسلام بين قبائل المنطقة[1].

لم تكن ثورات السُّودان ردَّة عن الإِسلام، وإِنّما يبدو أَنَّها رغبة في الاستقلال السِّياسي، بدليل أَنَّه بعد سقوط إمبراطورية غانة وإِضعافها سياسيّاً وعسكريّاً، ازداد عدد الدَّاخلين في الإِسلام، وقامت غانة بدور كبير في نشر العقيدة الإِسلاميَّة في منطقة السُّودان الغربي، حتّى اشتُهر عن أَهل غانة، وأَغلبهم من السُّوننكي، حماسهم للإِسلام، إذ كانت هذه العقيدة ذات أَثر عميق في حياتهم الاجتماعيَّة[2].

واستمرت هذه الحماسة الدِّينيَّة حتَّى بعد استقلالها عن سيادة المرابطين، فانتشر الإِسلام بين أَهل هذه البلاد، وكثرت المدارس[3].

والتَّكرور عملوا على متابعة الدَّعوة، وأَصبحوا دعاة للإِسلام في السُّودان الغربي. فاستوعبت هذه القبائل الإِسلام، وأَخذوا من حضارة المغرب، وتأَثَّروا بالشَّريعة الإِسلامية، واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة، حتَّى إِنَّهم قلَّدوهم في ملابسهم[4].

مملكة صنغاي، أَوَّل ملك اعتنق الإِسلام فيها يُسمَّى زاكاسي Zakassi (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ - ١٠١٠م)، وسُمِّي مسلم دام Muslim Dam، أَسلم بمحض إرادته، وليس عن طريق القوَّة[5].

وانتهزت بلاد السُّودان الخلاف بين القبائل الأَساسيَّة في بناء دولة

---

(١) المرجع السَّابق، ص ١١٦.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٢٥.
(٣) المرجع السَّابق، ص ١٢٦.
(٤) المرجع السَّابق، ص ١٢٦.
(٥) المرجع السَّابق، ص ١٢٧.

المرابطين في الصَّحراء، وأَعلنت استقلالها، فاستقلَّت مملكة غانة، وأَصبح ملكها يخطب لنفسه تحت طاعة أَمير المؤمنين في بغداد[1].

استمرَّ انتشار الإِسلام على يد قبائل السُّودان بعد المرابطين، وكانت فترة القرن الحادي عشر من أزهى فترات انتشار الإِسلام في السَّافانا السُّودانية، وكان عهد السِّيادة المتوالية للسوننكي، والصُّوصو، والماندنجو، والصُّنغاي[2].

ملك غانة: عُرف بقربه من النَّاس، وعدله فيهم، يركب يوميّاً مع طبول تقرع، ليمشي في أَزقَّة المدينة، فمن كانت له مظلمة، أَو نابه أَمر، تصدَّى له، فلا يزال حاضراً بين يديه حتَّى يقضي مظلمته، ثمَّ يرجع إِلى قصره، فإِذا كان بعد العصر، ركب مرَّة ثانية، فإِذا كان الملك يخرج لتفقُّد الرَّعيَّة مرَّتين في اليوم، فإِنَّ هذا يدلُّ على عدله، وخشيته من وقوع الظُّلم على أَحد، أَو عدم وصول شكوى مظلوم ضعيف له، فحيث ينتشر الإِسلام، لابدَّ من انتشار الطمأنينة والعدل في المجتمع كلِّه، مع فتح المدارس وانتشار العلم.

اعتنق ملك التَّكرور وارجابي بن رابيس الإِسلام على يد الدُّعاة، وطبَّق أَحكام العقيدة الإِسلاميَّة بنجاح في مملكته، فاعتنق أَهل المملكة الإِسلام، وأَرسل الدُّعاة لنشر الإِسلام[3].

وكان هؤلاء الدُّعاة يحظون بأَوفى نصيب من التَّقدير والاحترام، وفي بعض قبائل إِفريقية الغربيَّة كانت كلُّ قرية تضمُّ داراً لاستقبالهم وضيافتهم، ويعاملون بأَعظم مظاهر الاحترام والتَّقدير، ويحتلُّون بين الماندنجو مكاناً أَعظم شأناً، وينالون احتراماً يلي احترام الملك..

---

(١) المرجع السَّابق، ص ١٣٧.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٣٨.
(٣) المرجع السَّابق، ص ١٤٩ - ١٥٠.

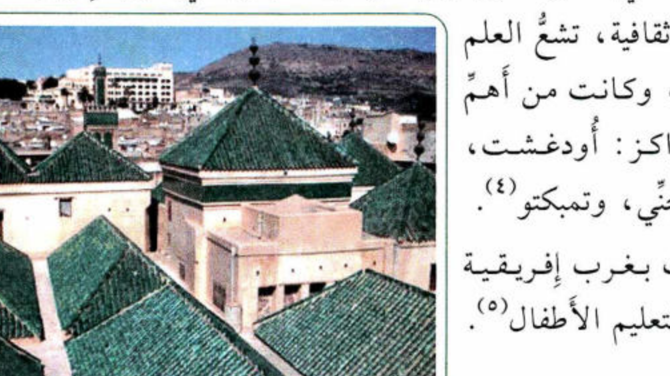
وبنموِّ المدارس الإِسلاميَّة، والمعاهد في السُّودان الغربي ظهرت طبقة متعلِّمة مثقَّفة، تضمُّ بعض العلماء، استطاعوا تنظيم إدارات الإمبراطوريَّة وتجارتها على أكمل وجه، وهذه الطَّائفة لم تستغل مركزها أو قرابتها، وإنَّما استطاعت أن تشيع الأَمن والنِّظام في إدارات الإمبراطوريَّة المختلفة[١].

ولعل أَبرز خصائص انتشار الإِسلام في بلاد السُّودان، أَنَّه ابتدأَ بالطبقات العليا، والأُسر الحاكمة، ثمَّ انتشر بعد ذلك بين الرَّعايا[٢].

وكان التُّجَّار سواء من البربر، أَو العرب، أَو البول Peul، أَو الماندنجو يجمعون بين بيع تجارتهم، وبين نشر الدَّعوة، وكانت مهنة التِّجارة وحدها تصل التَّاجر بصلة وثيقة مباشرة بأُولئك الذين يريد أَن يحوِّلهم إلى الإِسلام[٣].

ازدهرت في عصر المرابطين المراكز التِّجاريَّة في غرب إفريقية تحوَّلت إلى مراكز ثقافية، تشعُّ العلم والمعرفة، وكانت من أَهمِّ هذه المراكز: أُودغشت، وغانة، وجنِّي، وتمبكتو[٤].

وكثرت بغرب إفريقية المدارس لتعليم الأَطفال[٥].



فاس

(١) المرجع السَّابق، ص ١٥١.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٥٢.
(٣) المرجع السَّابق، ص ١٥٥.
(٤) المرجع السَّابق، ص ١٥٧.
(٥) المرجع السَّابق، ص ١٥٨.

مراكز تجاريَّة
تحولت إلى مراكز دعويَّة



أُودغشت:

عاصمة الملثَّمين في القرن الرَّابع الهجري، وكان لموقعها الممتاز كمحطَّة تجاريَّة هامَّة لقوافل الصَّحراء، أَثر في نشر الدَّعوة. وهي مدينة زاهرة، يتألَّف سكانها من العرب والبربر والسُّودانيِّين. تحيط بها البساتين والنَّخيل، وفيها مساجد كثيرة آهلة، فيها معلِّمون، كما كثرت بها المدارس لتعليم الأَطفال، وبها صناعات معدنيَّة بلغت درجة كبيرة من الرُّقيِّ والإتقان.

(دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، ص ١٥٧).

غانة:

عاصمة إمبراطوريَّة غانة. استقرَّ بها عدد من المسلمين التُّجَّار والدُّعاة، ضمَّت اثني عشر مسجداً، وحينما دخلها الأمير أَبو بكر بن عمر أمير المرابطين سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٧٦م، أَلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن، وقواعد الدِّين، واللُّغة العربيَّة، لغة العبادة، ولغة التَّبادل التِّجاري والمكاتبات، واستعان ملوك غانة بالمسلمين لرقيِّهم وزراء أَشرفوا على بيت المال. وعجَّت غانة بالتُّجار، والفقهاء، والطَّلبة.

(دور المرابطين في نشر الإِسلام في غرب إِفريقية، ص ١٥٨).

جِنِّي Djenné:

أُسِّست على نهر النِّيجر الأَعلى نحو سنة ٨٠٠م، أَسلم أَميرها كنبرو في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي في عهد المرابطين، وحذت الرَّعيَّة حذوه، وهدم قصره، وبنى مكانه مسجداً عظيماً. وانتشر الأمن فيها، فوفد إِليها طلاب العلم والفقهاء، وكانت الحلقات الدِّراسيَّة والمناقشات العلميَّة تبدأ من منتصف اللَّيل إِلى صلاة الصُّبح، وبعد الصَّلاة يجلسون حول العلماء إِلى الزَّوال، لتبدأَ فترة راحة إِلى الظهر، لقد كانت بحق، مدينة ميمونة مباركة.

(دور المرابطين في نشر الإِسلام في غرب إِفريقية، ص١٦٠).

تمبكت (تُمْبُكْتُو):

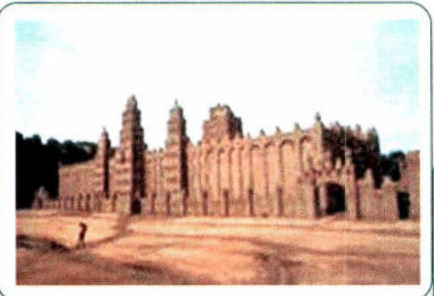
من أهمِّ المراكز التِّجاريَّة والثَّقافيَّة في غرب إِفريقية، أُنشئت سنة ٥٩٠هـ/ ١٠٩٦م في عهد يوسف بن تاشفين، لها مكانة كبيرة في الثَّقافة العربيَّة ضاهت القيروان، وفاس، وقرطبة، والقاهرة. إِنها مدينة إِسلاميَّة

ما دنَّستها عبادة الأَوثان، مأوى العلماء وطلاب العلم، مسجدها (سنكري) بنته سيِّدة ثريَّة. له أَوقاف تنفق من ريعها على طلبة العلم، الَّذين يمنحون إِجازة رسميَّة عند انتهاء دراستهم، لقد كانت تمبكت منارة العلم في السُّودان.

(دور المرابطين في نشر الإِسلام في غرب إِفريقية، ص١٦٣).



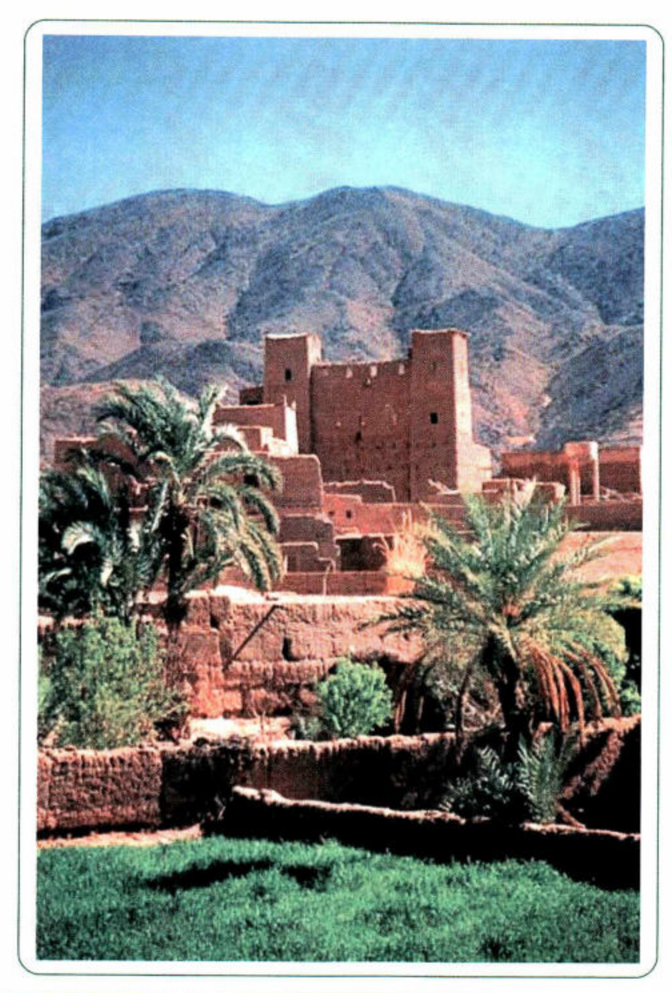
مسجد في تمبكتو



مسجد جنّي

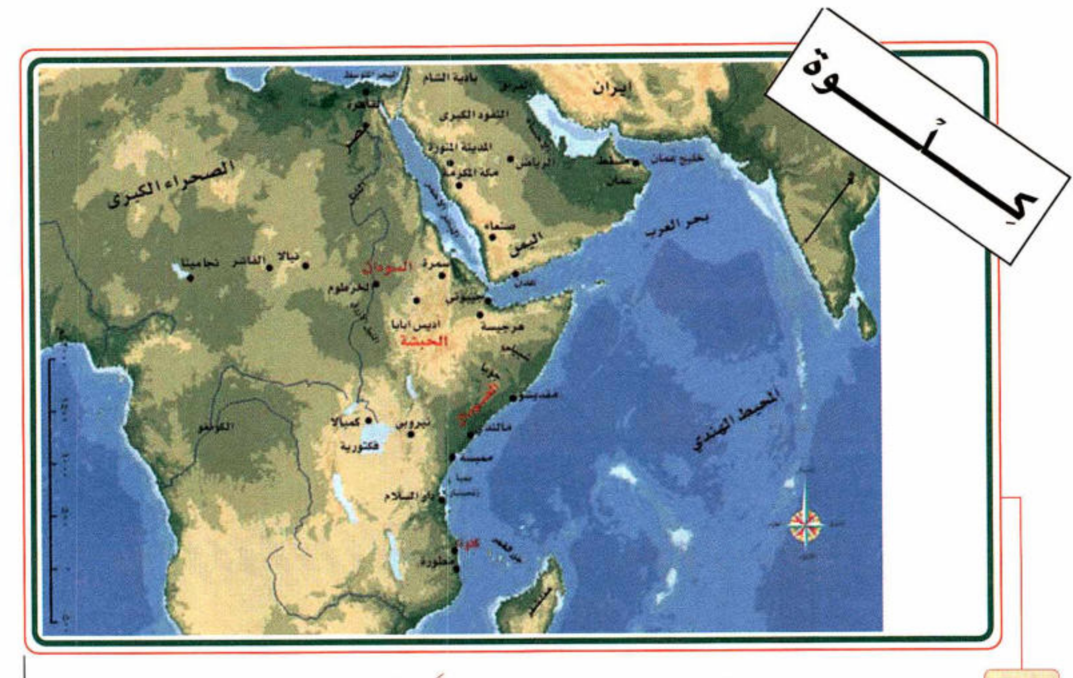


قوافل في الصحراء الكبرى





وادي درعة (المغرب)



الإسلام على السَّاحل الشَّرقي من إفريقية

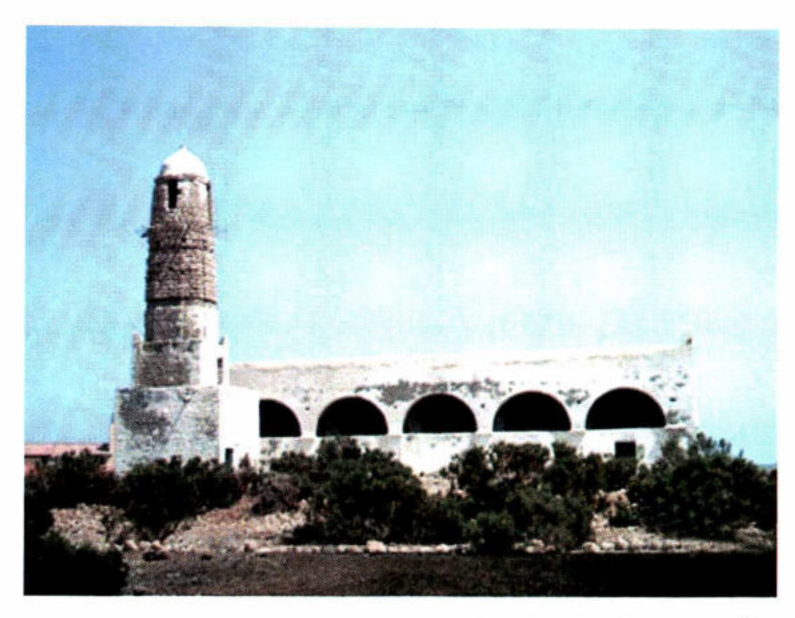
مصدر في مدينة كِلْوا Kiloa يذكر أن أَوَّل وجود للعرب على السَّاحل الشَّرقي الإفريقي منذ منتصف القرن العاشر الميلادي، قدموا من الإحساء وبنوا مقديشو، واندمجوا بالسُّكان الأَصليِّين، وتزاوجوا معهم، وهم الَّذين أَسَّسوا مدينة كِلْوا في ساحل زنجيبار.

النُّفوذ البرتغالي حال دون انتشار الإسلام بشكل واسع آنذاك في شرق القارَّة.

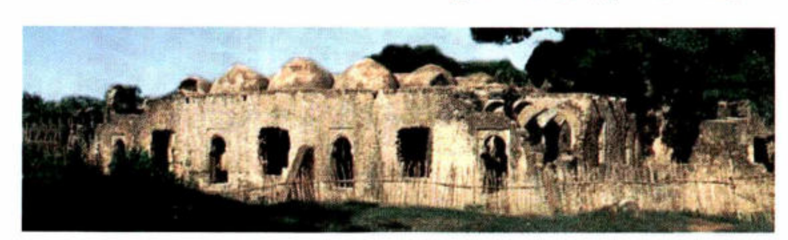
وعاد الحكم العربي أوائل القرن السَّابع عشر بعد تعقُّب البرتغاليِّين إلى ساحل إفريقية الشَّرقي الَّذي ضُمَّ إلى عُمان أَيَّام اليعاربة، ثم آلبوسعيد، وازدهرت ممبسَّة وبمبة وملوة ومطورة.

ومن السَّاحل الشَّرقي وصل الإسلام إلى أُوغندة على يد التُّجَّار العرب في النِّصف الأَوَّل من القرن التَّاسع عشر، فأَسلم كثيرون في بجندة في عهد الملك موتزا Mutesa، وعرقل انتشار الإسلام حماية الاستعمار الإنكليزي للمنصِّرين، ومع ذلك دخل الإسلام عام ١٩٠٦م بلاد بوسوجا Busoga[1].

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ٣٨١.



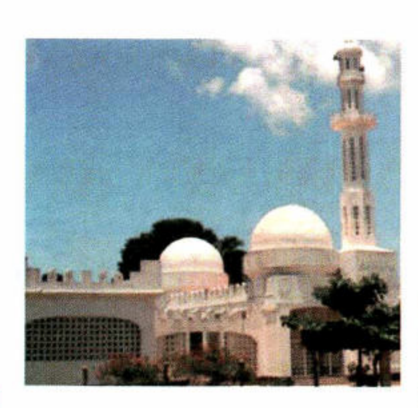
أول مسجد في إفريقية - زيلع



آثار في كلوة



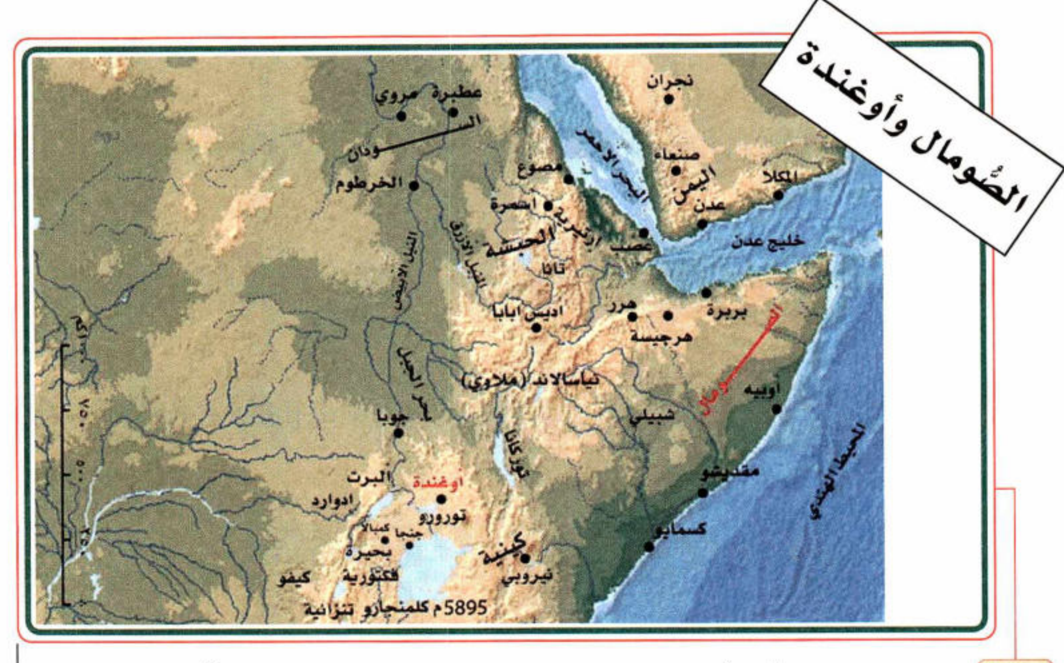
ساحل بمبة





زنجبار

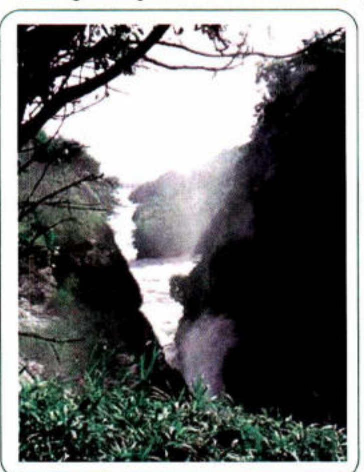
الصُّومال وأوغندة



وبعد شقِّ الطُّرق، قام المسلمون بنشاط دعوي بين أَهالي بندئي Bondei، ووديجو Wadigo[١]. وقبل الوثنيُّون الإِسلام على أَنَّه دليل على التَّرقِّي إِلى حضارة ومنزلة اجتماعيَّة أَرفع مما هم فيها.

بقيت سمبارا الغربيَّة حتَّى عام ١٨٩١م وثنيَّة، حيث دخول الزُّعماء وغيرهم من الشَّخصيَّات الهامَّة في الإِسلام، ووصل الإِسلام منطقة كلمنجارو، ونياسالاند (مالاوي حالياً).

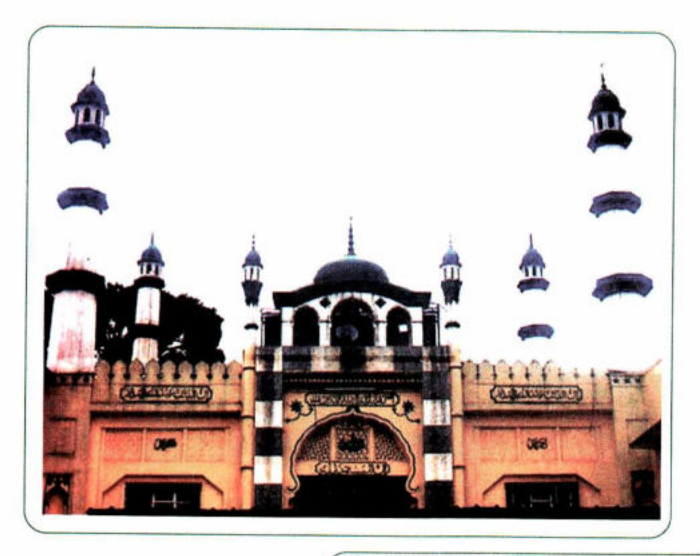
الياوس - القبيلة القويَّة الوطنيَّة - ينظرون إِلى الإِسلام على أَنَّه دينهم القومي، وانتشر الإِسلام بسرعة فائقة إِبَّان العقد الأَوَّل من القرن العشرين[٢].

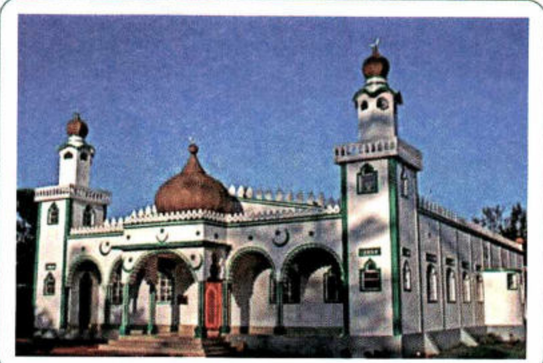


الطبيعة في أوغندة

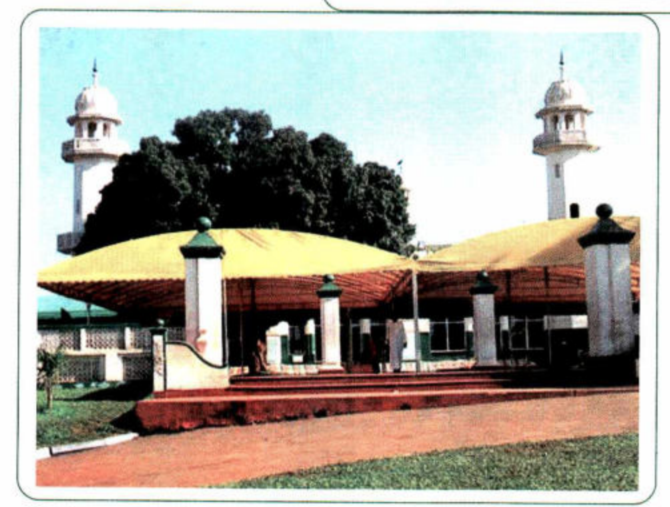
---

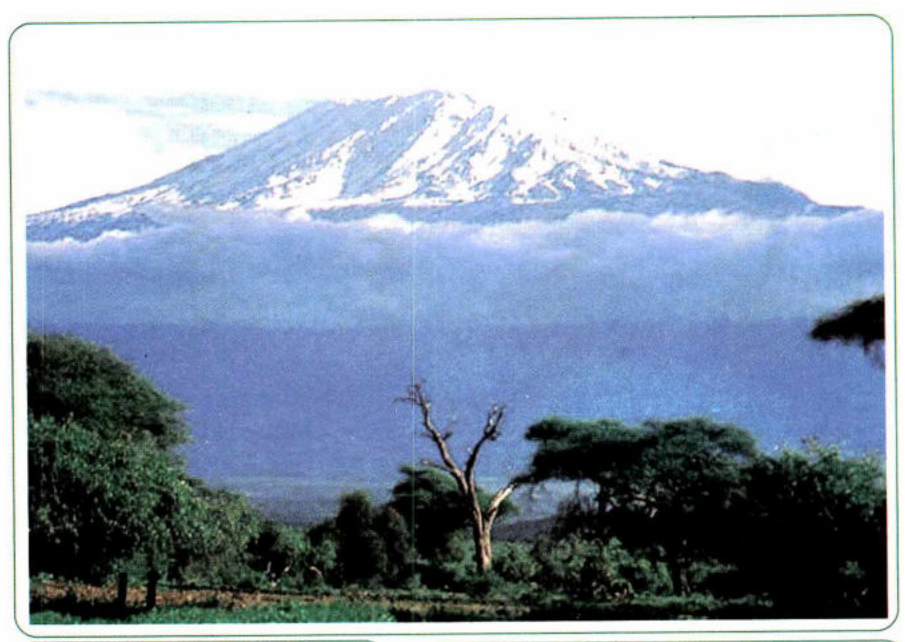
(١) المرجع السَّابق، ص ٣٨٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٨٣.

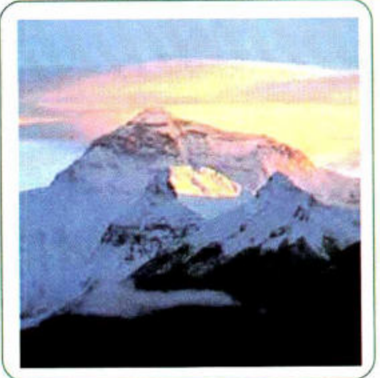


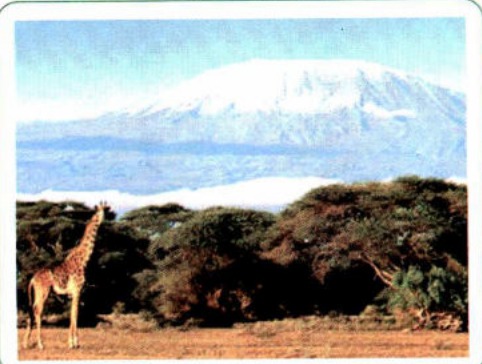


مساجد من أوغندة





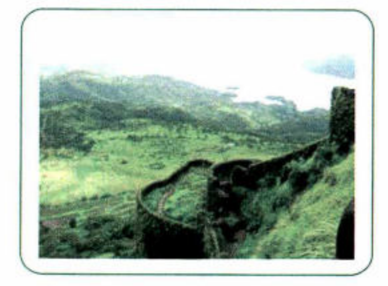






كلمنجارو
(كينية)

شلال فكتوريا (زامبية)

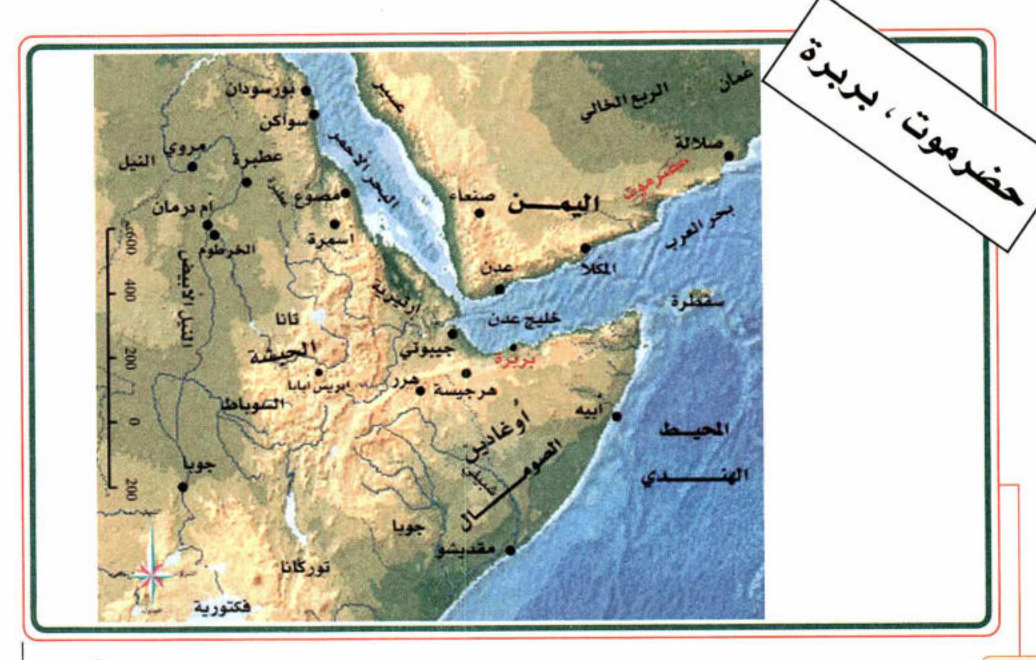


الصومال

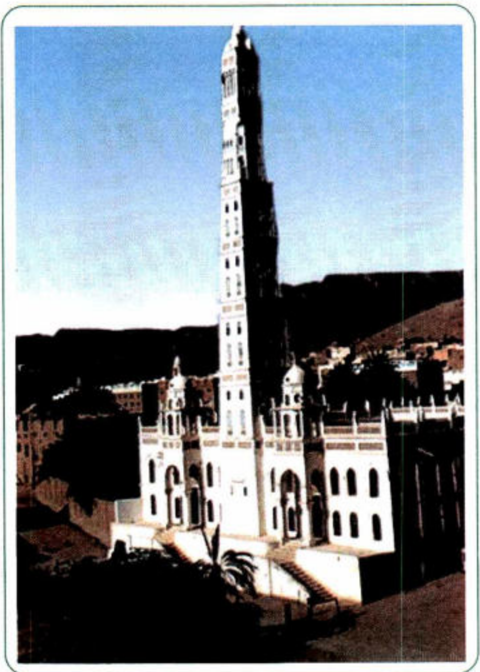


مقديشو

حضرموت، بربرة

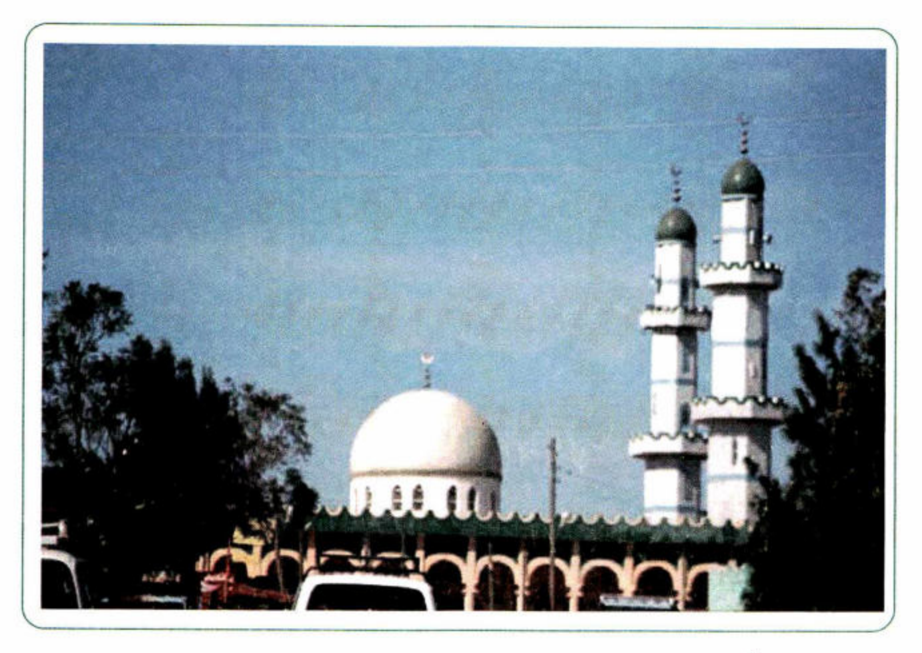


في القرن الخامس عشر الميلادي جاءت من حضرموت جماعة تتألَّف من أَربعة وأَربعين عربيّاً يدعون إِلى الإِسلام، فنزلوا بربرة، ومن هناك انتشروا في الصُّومال ليدعوا إِلى الإسلام، وقد شقَّ أَحدهم - وهو الشَّيخ إِبراهيم أَبو زرباي - طريقهُ إِلى مدينة هرر نحو سنة ١٤٣٠م، واكتسب هناك كثيرين من الَّذين تحوَّلوا إِلى الإِسلام[١].



مسجد في حضرموت

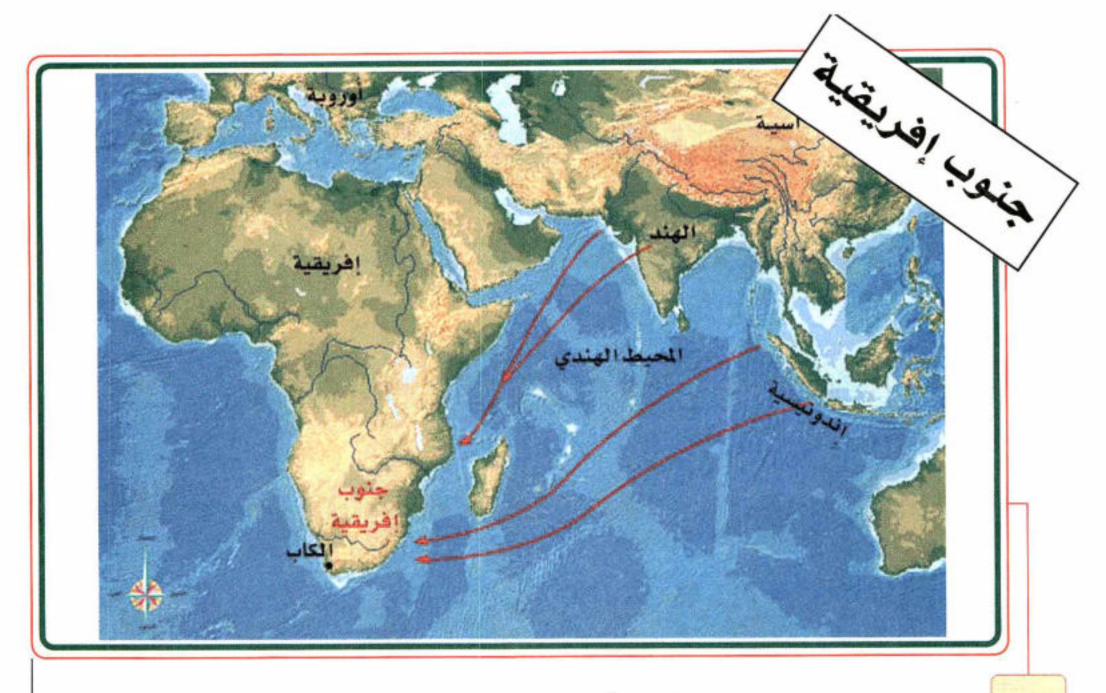
(١) المرجع السَّابق، ص ٣٨٧.



مسجد في هرر

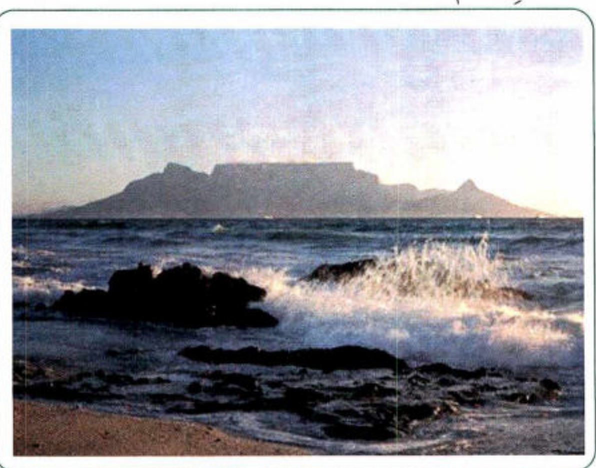


حضرموت



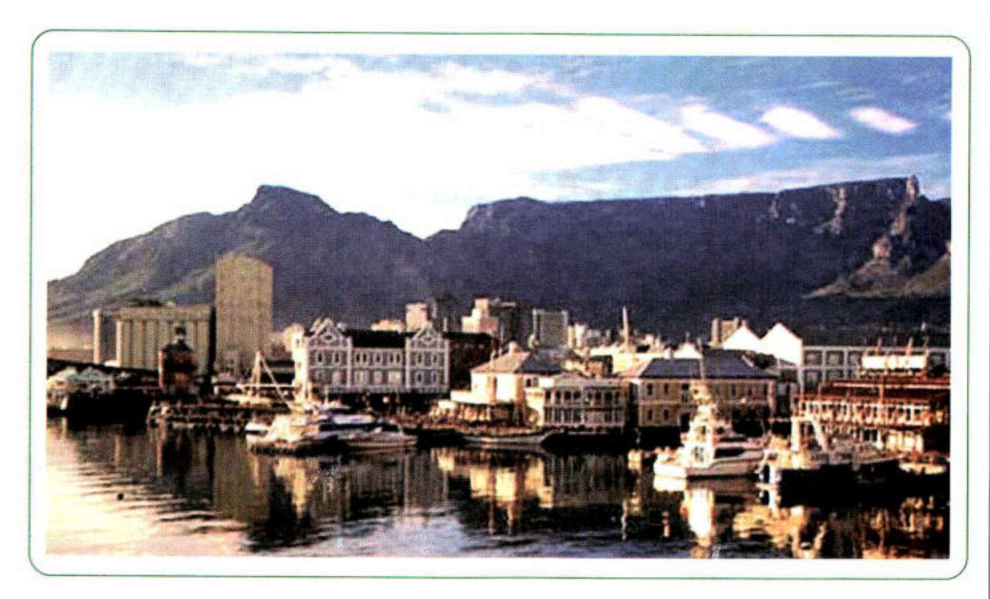
مستعمرة الكاب السَّاحليَّة (جنوب إفريقية):

جاءها مسلمون مهاجرون من الملايو، واستوطنوا أقصى الجنوب من القارة الإفريقيَّة، ومنذ عام ١٨١٩م تقدَّم الإسلام بين أهالي الكاب الوثنيِّين[1]، والعمال الهنود الَّذين يأتون للعمل في مناجم الماس في إفريقية الجنوبيَّة كانوا دعاة للإسلام.

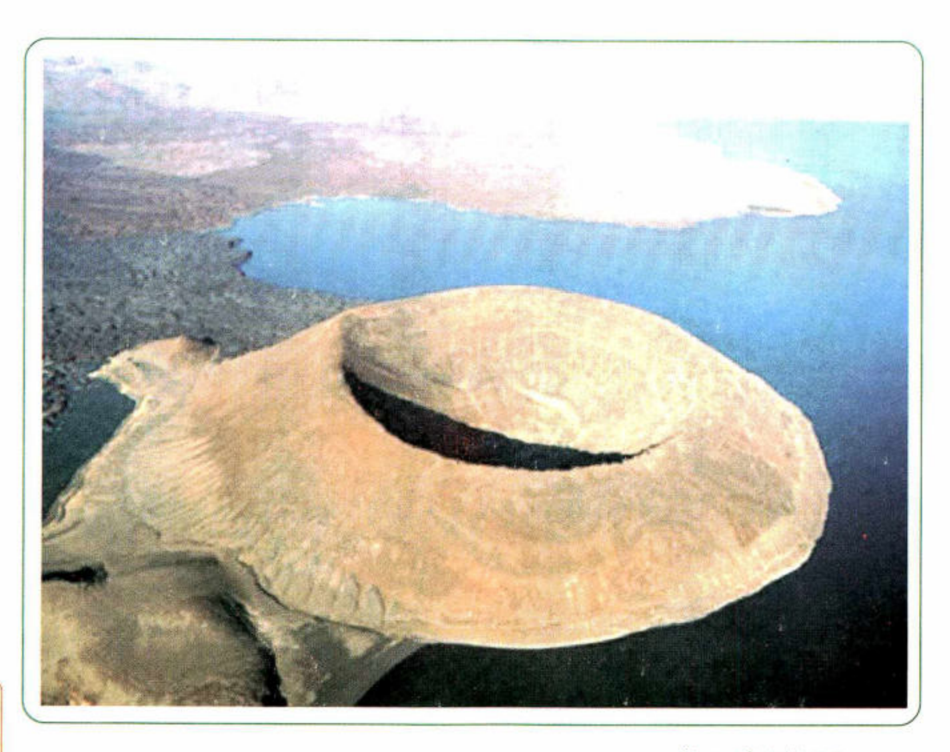


جبل المائدة
جنوب إفريقية

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٨٨.

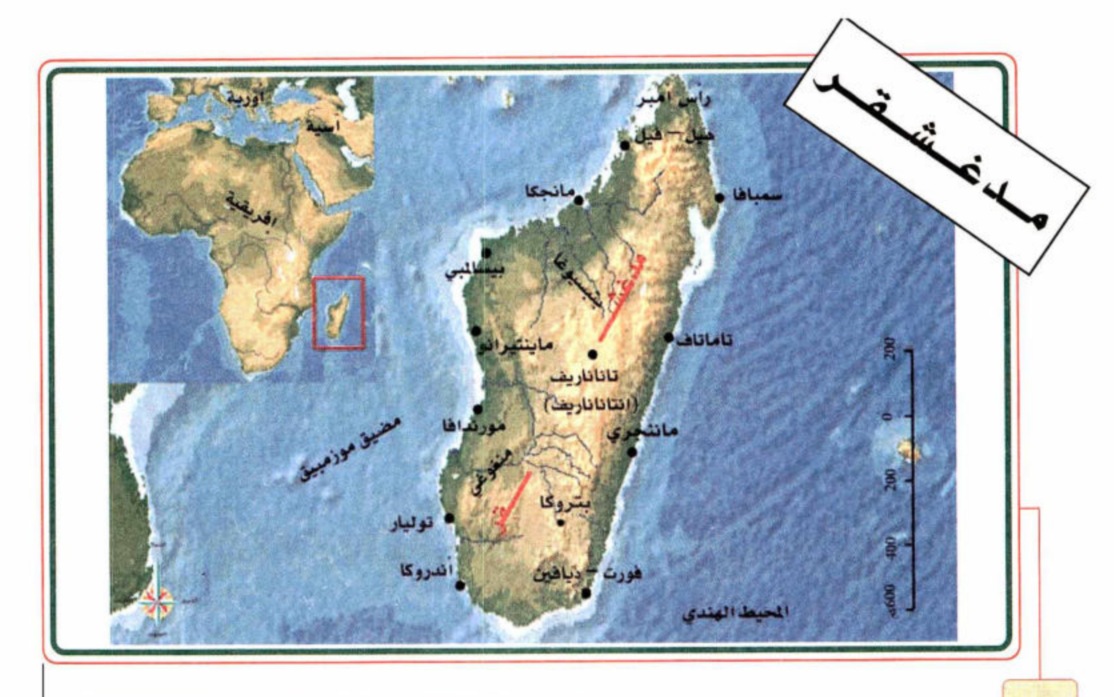


جنوب إفريقية



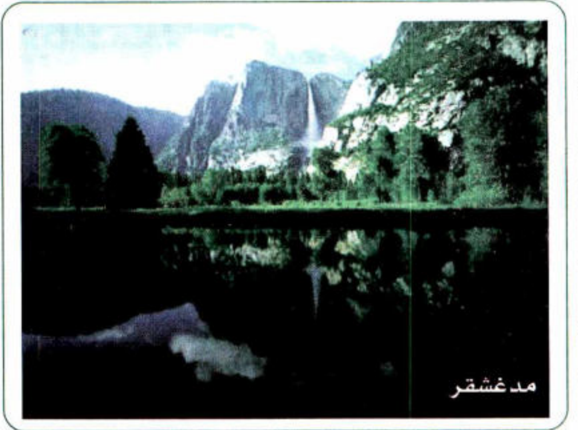
بحيرة تركانا (غينية)

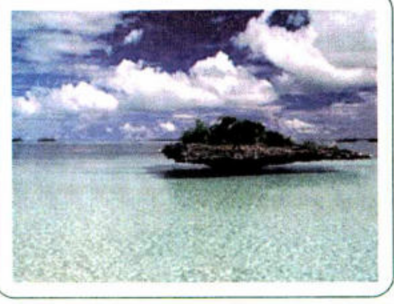
مدغشقر



وجزيرة مدغشقر:

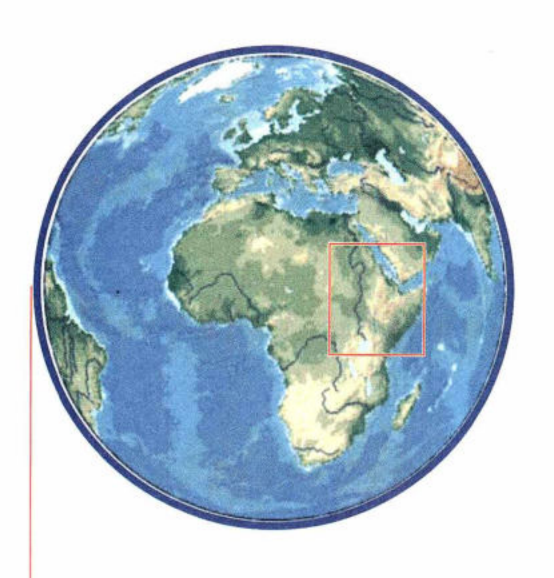
وصلها الدُّعاة المسلمون، وأسلمت قبيلة انتيمورونا Antaimorona الَّتي كانت تشغل السَّاحل الجنوبي الشَّرقي من الجزيرة[1].


مدغشقر


جزيرة مرجانية (سيشل)


مدغشقر

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٩٠.



انتشار الإسلام في السُّودان والحبشة

في القرن العاشر الميلادي بُني مسجد في سوبة الَّتي تبعد **٢٠** كم عن مدينة الخرطوم الحديثة (على النِّيل الأزرق)، وهي عاصمة مملكة مسيحيَّة آنذاك[١].

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ١٣١.

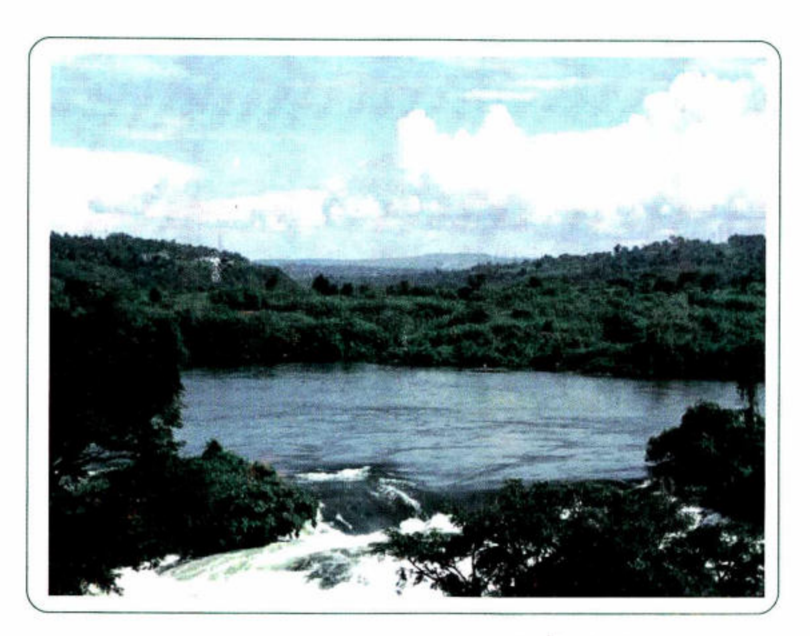


وجاءت هجرة قبائل عربيَّة إلى النُّوبة كقبيلة جهينة، واندمجت مع النُّوبيِّين بالتَّزاوج، ودخل الإسلام إلى دُنْقُلَة أَيَّام المماليك، ووصل إلى جنوب الشَّلال الأَوَّل على نهر النِّيل، كما وصلت قبائل الجالا إلى الحبشة منذ عام ١٥٠٠م[١]، واستوطنت قبائل بِلُّو Belloos المسلمة بين النُّوبة والحبشة، مع أنها كانت خاضعة لملك الحبشة المسيحي في القرن السَّادس عشر الميلادي.

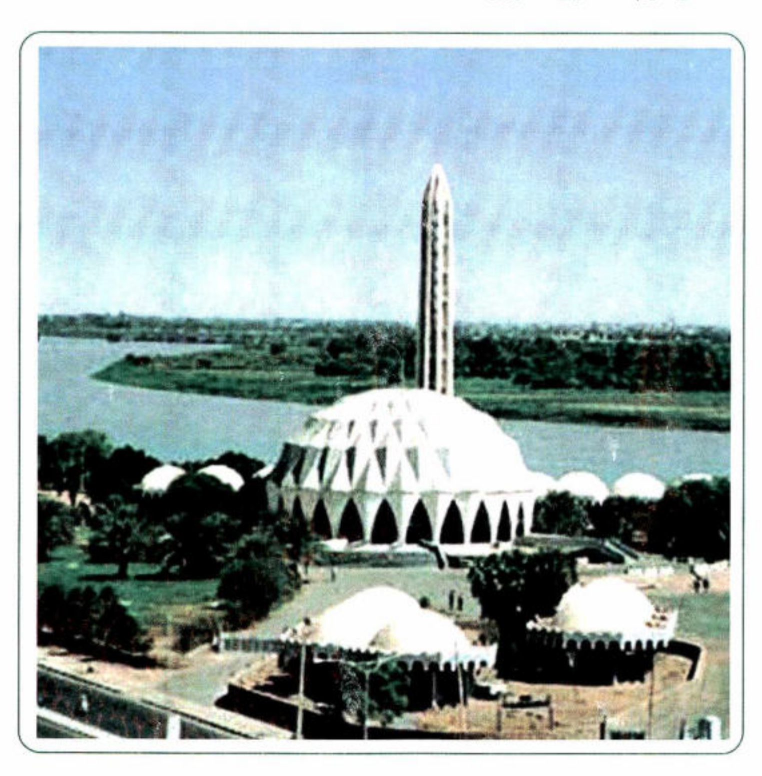
وأسلمت قبائل البجة الَّذين انضمُّوا إلى دولة الفونج الإسلاميَّة حين مدَّ هؤلاء فتوحهم بين سنتي ١٤٩٩ - ١٥٣٠م حتَّى حدود بلاد النُّوبة والحبشة، وأَسَّسوا ولاية سَنَّار القويَّة، وفي عام ١٥٣٤م شقَّ جيش أَحمد القرين بلاد الحبشة، وشقَّ طريقه من الجنوب إلى الشَّمال حتَّى وصل مزاجة Mazaga الواقعة بين الحبشة وسنَّار[٢].

---

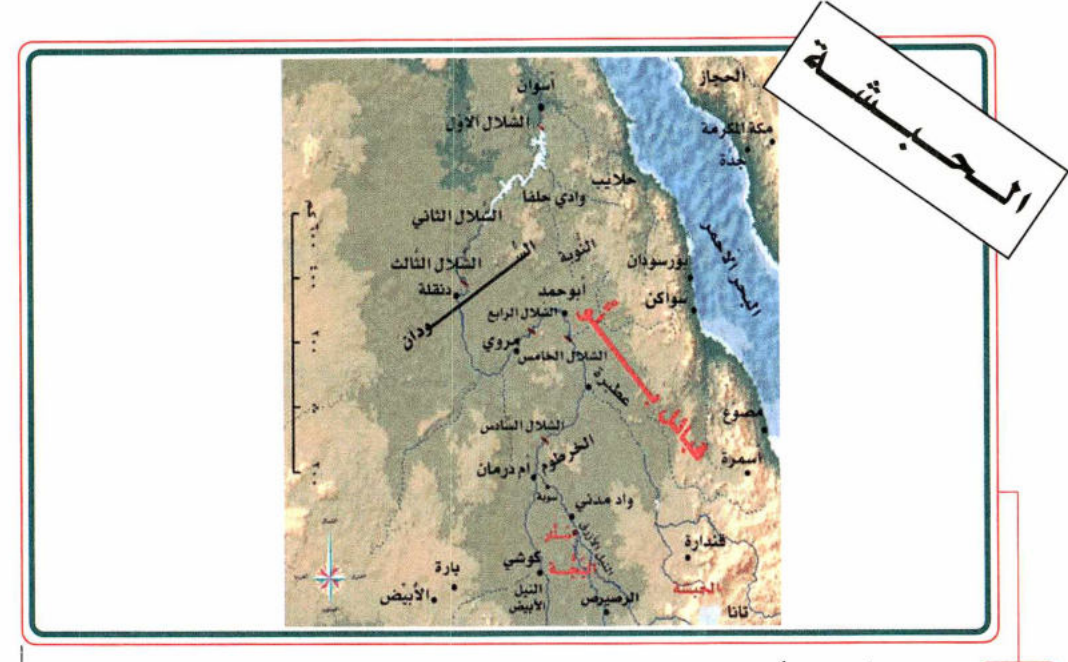
(١) المرجع السَّابق، ص ٣٨٤.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٣٥.



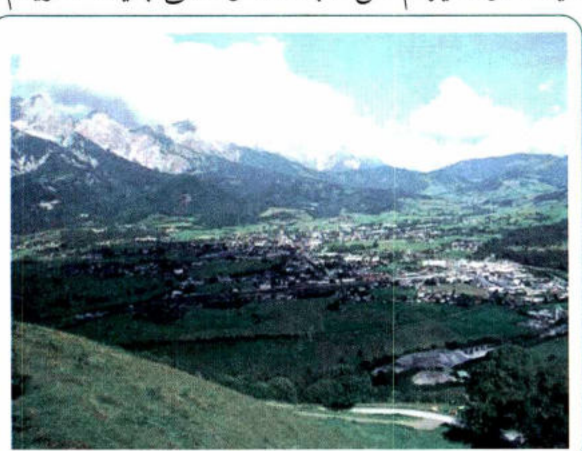
الخرطوم - النيل الأزرق



الحبشة

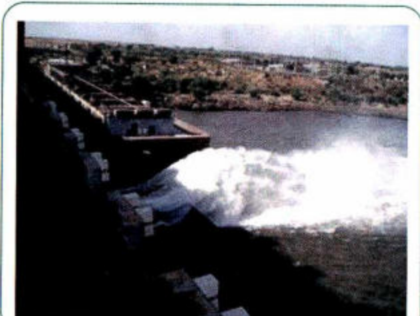


وأَقامت أُسرٌ إسلاميَّة منذ القرن العاشر الميلادي في مدن ساحل البحر الأَحمر الغربي الإِفريقي، وفي نهاية القرن الثَّاني عشر تأسَّست دولة عربيَّة على الأَراضي السَّاحليَّة الحبشيَّة. وفي عام ١٣٠٠م شقَّ الدَّاعية أبو عبد الله محمد طريقه إِلى الحبشة داعياً إِلى الإِسلام، فاتَّخذ سيف أرعد (١٣٤٢ - ١٣٧٠م) تدابير صارمة ضد المسلمين في مملكته، تقضي بإِعدام كلٍّ من أَبى الدُّخول في المسيحيَّة، أَو نفيهم من البلاد، وقضى بثيدا ماريام (١٤٦٨ - ١٤٧٨م) الجزء الأَكبر من حكمه في محاربة المسلمين الَّذين كانوا يقيمون على الحدود الغربيَّة من مملكته(١).

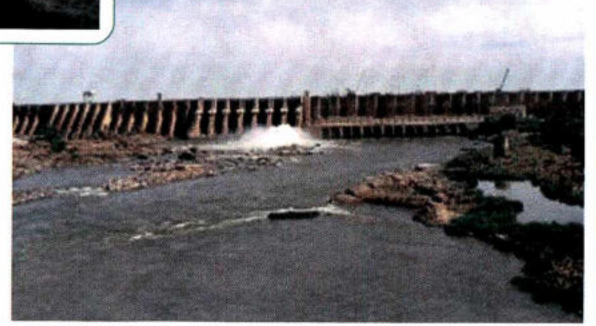


الطبيعة في الحبشة

(١) المرجع السَّابق، ص ١٣٦.



خزان سنّار





الطبيعة في الحبشة



وقامت مملكة (عدل) الإِسلاميَّة القويَّة بين الحبشة، والأَطراف الجنوبيَّة للبحر الأَحمر[١].

ودفع مسلمو (هدية) الجزية للأَحباش، وكانت على حدود الحبشة الشَّماليَّة غرباً حتَّى سنَّار، وفي الجهة الجنوبيَّة والجنوبيَّة الشَّرقيَّة من الحبشة؛ بقاع يقطنها مسلمون يدفعون جزية للأَحباش[٢].

وبمعونة البرتغاليِّين قتل الأَحباش أَحمد القرين عام **١٥٤٣**م، وبقي الإِسلام، حتَّى اختار المسيحيُّون الخضوع لحكم إِسلامي بدل الخضوع للبرتغاليِّين، فطُرِد البرتغاليُّون نحو سنة **١٦٣٢**م.

في القرن السَّابع عشر الميلادي، تحوَّل كثيرون إِلى الإِسلام، وتظاهر عدد من المسلمين بالمسيحيَّة تطلُّعاً إِلى عظمة الأَرستقراطيَّة الحبشيَّة، وتمكَّنوا من الانتظام في سلك الأَشراف، واستخدموا كلَّ ما لهم من نفوذ في نشر الإِسلام بصفتهم حكَّاماً على الولايات المسيحيَّة. ومن أَهمِّ

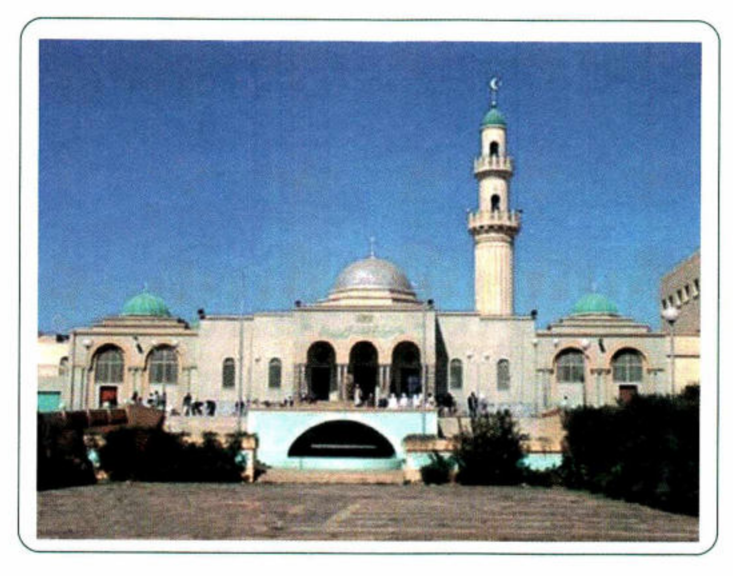
(١) المرجع السَّابق، ص ١٣٦.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٣٦.

أَسباب نجاح المسلمين في دعوتهم بين الأَحباش تفوُّقهم الأَدبي، إِذا ما قورنوا بسائر أَهالي الحبشة من المسيحيِّين.

وفي القرن التَّاسع عشر (١٨٤٤ - ١٨٦٠م) اعتنقت قبائل الحباب الَّتي تنتمي إِلى فروع التِّيجري Tigri الإِسلام، وموطنها إِلى الشَّمال الغربي من مُصَوَّع[١].

واعتنق نصف سكان أَهالي الولايات الوسطى الإِسلام أَوائل القرن التَّاسع عشر.

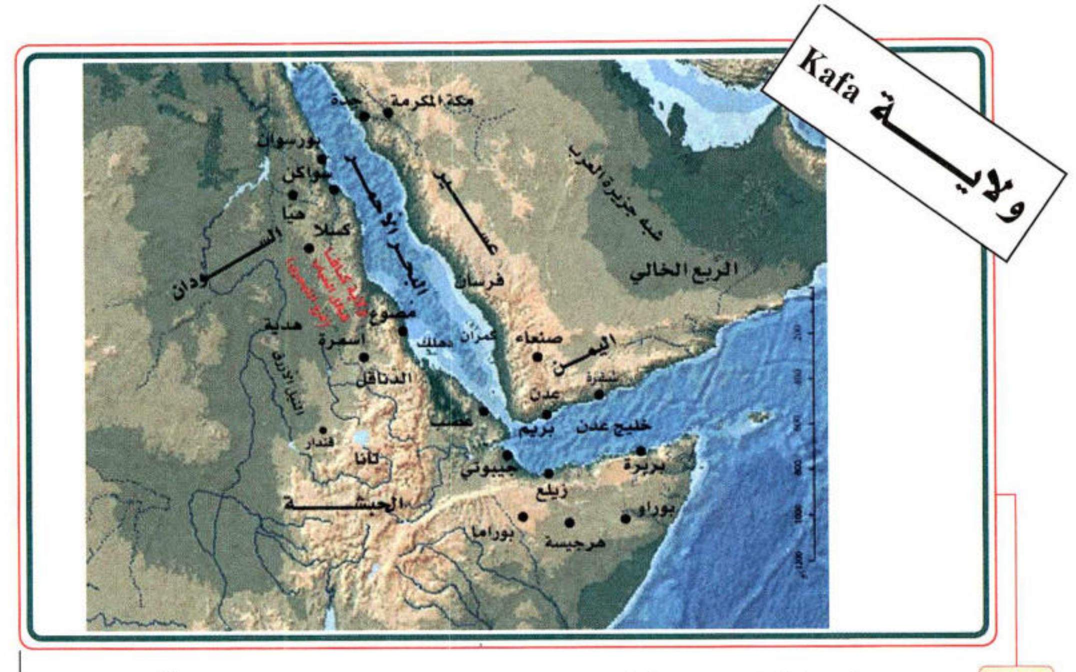
وأَنذر الملك الحبشي جون عام ١٨٧٨م الموظَّفين المسلمين بأَن يختاروا خلال ثلاثة أَشهر بين قبول التَّعميد أَو التَّخلِّي عن مناصبهم. تظاهر المسلمون بالقبول، وفي الخفاء يؤكِّدون ولاءهم لدينهم، وأَرغم جون عام ١٨٨٠م ما يقرب من خمسين أَلفاً من المسلمين على التَّعميد[٢].



جامع الخلفاء الراشدين (أسمرة)

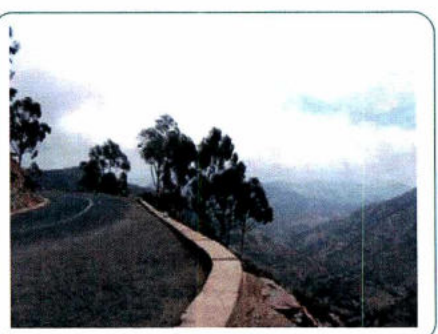
(١) المرجع السَّابق، ص ١٤٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٤٢.

ولايـة Kafa



والي ولاية Kafa الصَّغيرة واسمه Sawo - Teheno استقلَّ واعتنق الإِسلام، الإِمبراطور مِنليك الثاني ملك شوا Shoa عام ١٨٨٩م يستعيد Kafa، ومع تعصُّبه للمسيحيَّة، قبائل تعتنق الإِسلام، مثل قبائل Taklés، وهبتيه Hebtés، وتيماريام Temaryam، وكانت قبيلة منساع Mansa مسيحيَّة بأَسرها في مستهل القرن التَّاسع عشر، ثمَّ دان السَّواد الأَعظم منها بالإِسلام في مستهل القرن العشرين بجهود الدُّعاة[1].

سكان الحبشة (إثيوبية Aithiops وتعني الوجوه المحروقة) عام ٢٠١٠م أَكثر من سبعين مليون نسمة،
نسبة المسلمين فيهم ٦٥٪.



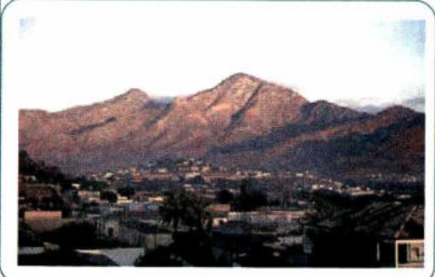
البيئة في إرتيرية

(١) المرجع السَّابق، ص ١٤٣.

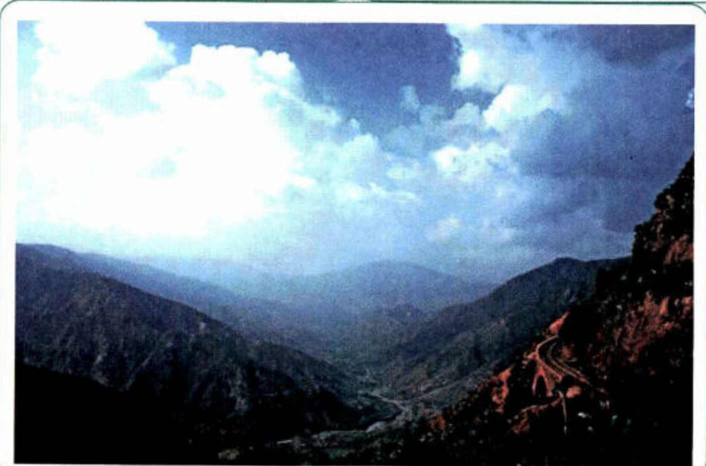


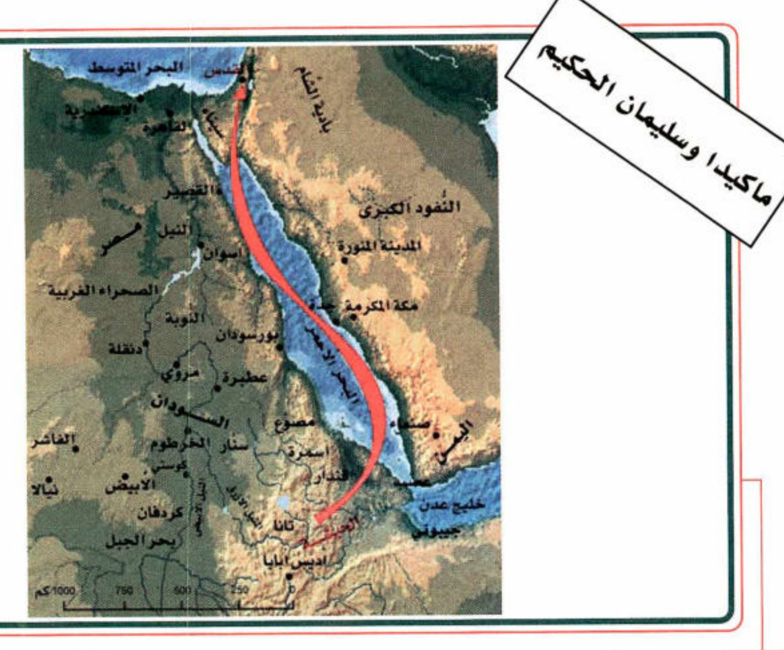
ميناء مصوّع





الطبيعة
في
إرتيرية



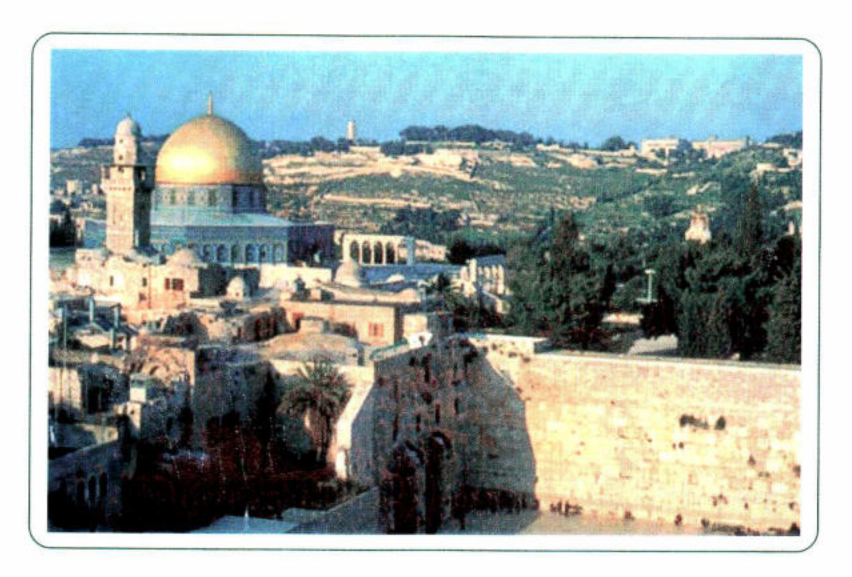


وأبرز ما في التَّاريخ الحبشي: إنَّ الملك مِنليك الأَوَّل رُزِق بمولود سماه أَبناهاكيم (أَو ديفيد في بعض الرِّوايات)، وكان مِنليك الأَوَّل قد وُلد من الملك سُليمان والملكة ماكيدا الإِثيوبيَّة الَّتي اشتهرت باسم ملكة سبأ، أَو ملكة الجنوب، تربَّعت على العرش نحو ١٠٠٠ق.م، وتقول الرِّواية الإِثيوبيَّة: إنَّ ماكيدا سمعت بسليمان الحكيم، فسارت إِلى القدس تحمل النَّفائس من الهدايا، لتنهل من حكمة سليمان، فتزوَّجته، وبعد عودتها إِلى الحبشة عام ٩٧٥ق.م وُلِد مِنليك الأَوَّل في (عدي شماجلي) بالقرب من أَسمرة، وعن طريقها دخلت اليهوديَّة الحبشة (يهود الفلاشا اليوم)[١].

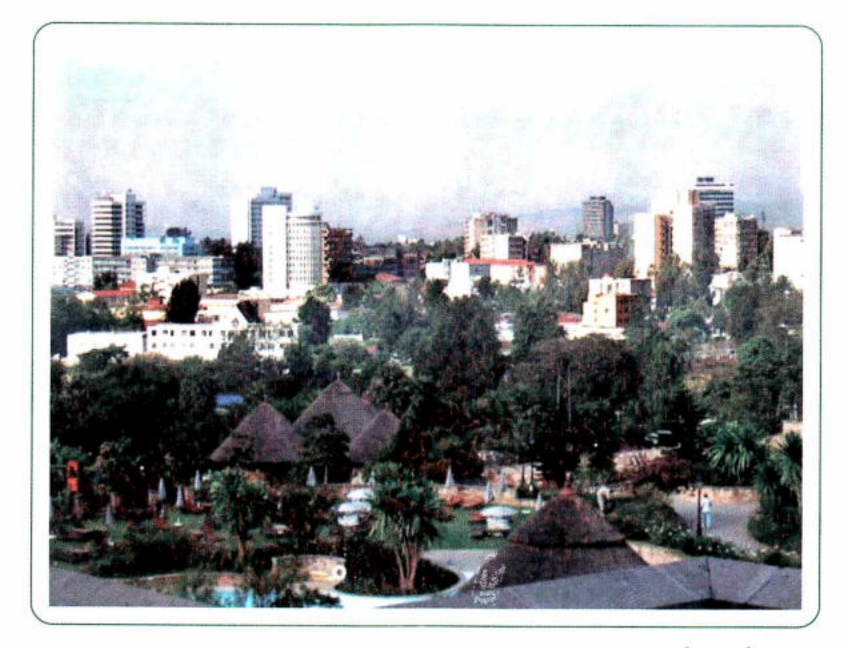
اعتنق الملك أَزنا المسيحيَّة على يد فرومتنوس من بلاد الشَّام، فجعل المسيحيَّة الدِّين الرَّسمي للبلاد[٢]، وذلك عام ٣٥٠م.

---

(١) الإِسلام في إِثيوبية، المبروك البهلول إِلطيف، جمعية الدَّعوة الإِسلاميَّة العالميَّة، طرابلس، ط١، ١٩٨٩م، ص٢٥.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٦.

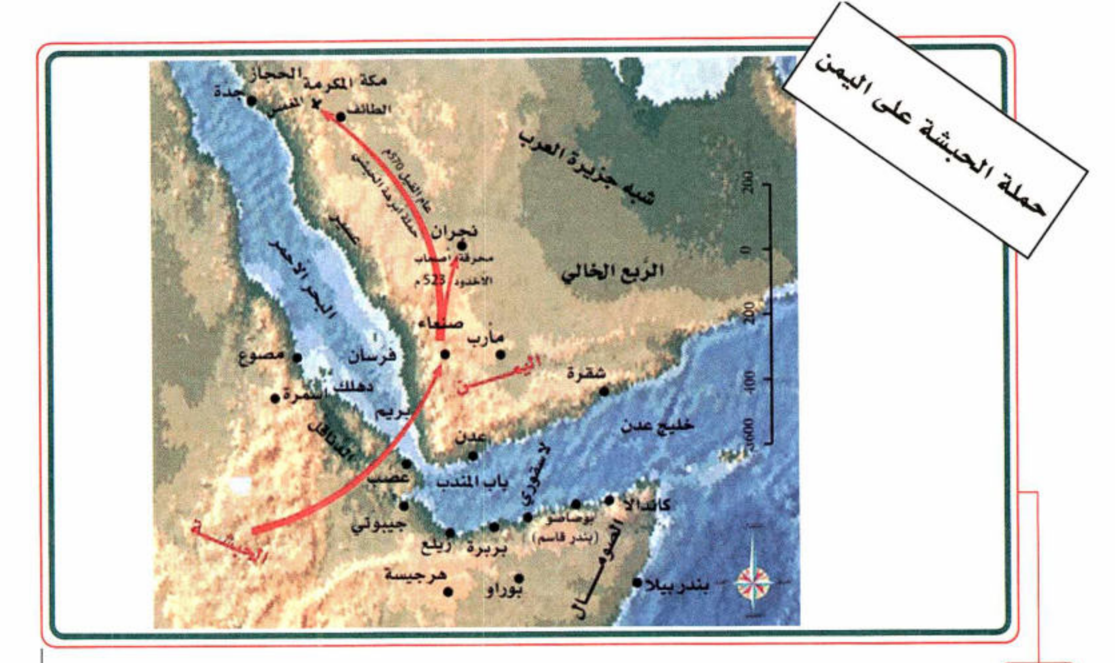


القدس الشريف



أديس أبابا

حملة الحبشة على اليمن

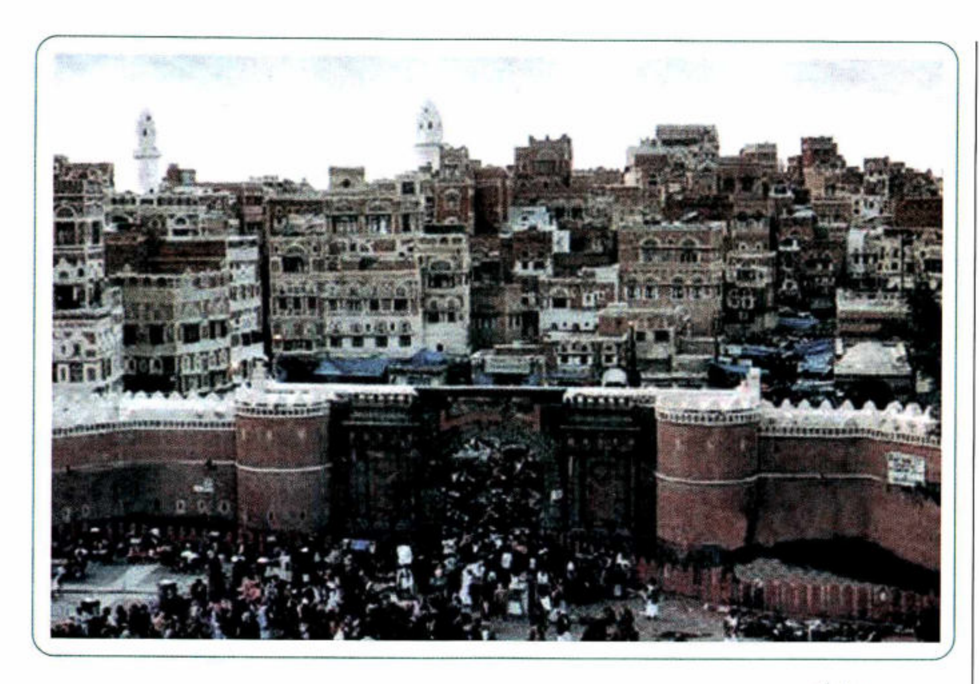


وفي القرن السَّادس الميلادي قيام حملة حبشيَّة على اليمن لردع ذي نواس اليهودي، الَّذي أَحرق نصارى نجران (أَصحاب الأُخدود)، وإِخفاق حملة الأَحباش على مكَّة المكرَّمة عام ٥٧٠م.

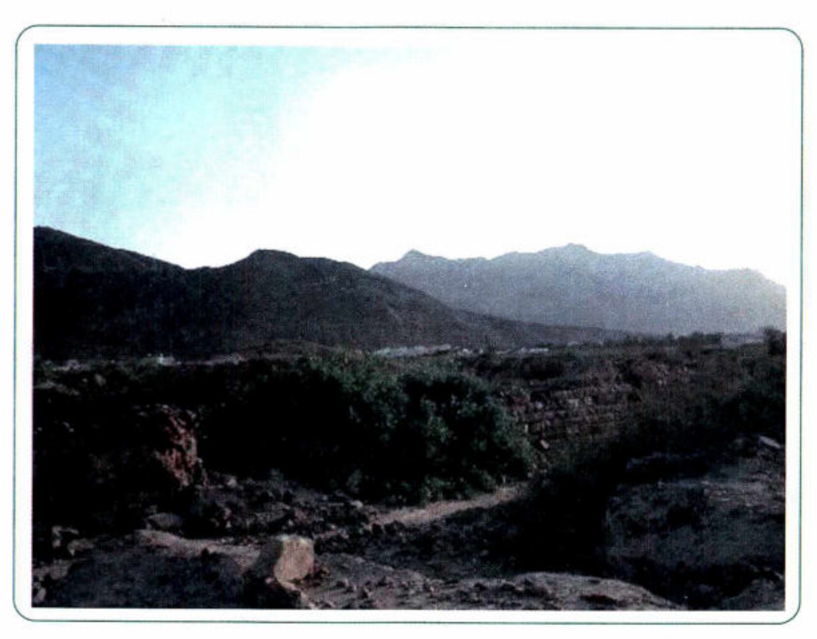
وكانت هجرة المسلمين إِلى الحبشة عام ٦١٥م، واحتلَّ المسلمون جزر دهلك ثمَّ مصوَّع عام ٧٠٢م لحماية شواطئ الجزيرة العربيَّة من قراصنة الحبشة، وفي عام ٨٩٦م قامت مملكة إِسلاميَّة في مقاطعة شوا قلب الهضبة الحبشيَّة، وانتشر الإِسلام على طول الشَّاطئ الإِفريقي، وخصوصاً في قبائل البجَّة في إِرتيرية، وشمال الحبشة، واستمرَّ انتشار الإِسلام الدَّعوي في القرن الحادي عشر الميلادي في قلب الهضبة الحبشيَّة، وعلى جميع الشَّواطئ الإِفريقيَّة الشَّرقيَّة.



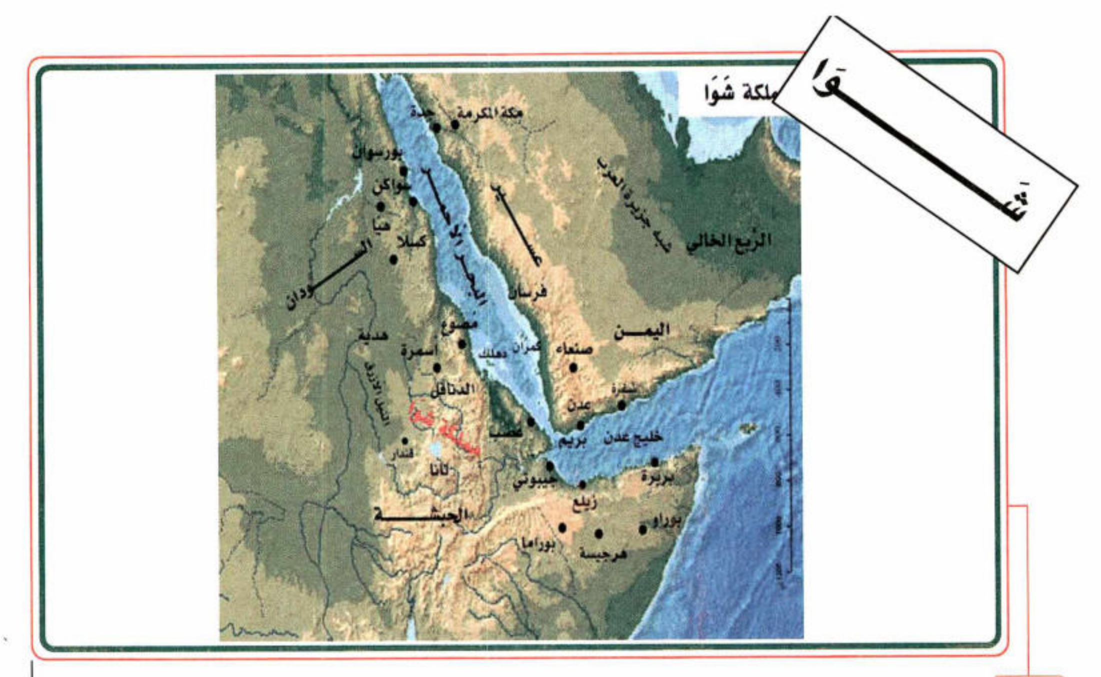
الطبيعة في نجران

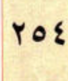


صنعاء



نجران الأخدود

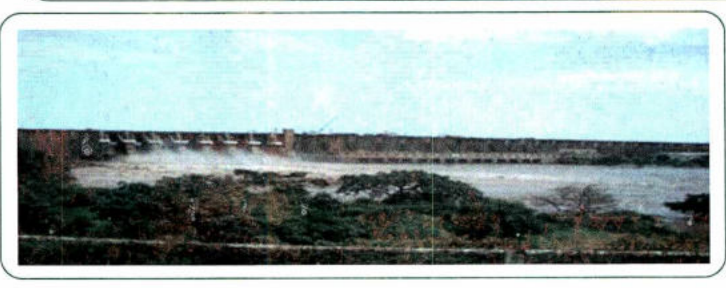




تعرّضت مملكة شوا الإسلاميَّة في القرن الثَّالث عشر لمتاعب أَدَّت إلى سقوطها، وزحفت قوات مملكة إيفات الإسلاميَّة النَّاشئة عليها ١٢٣١-١٢٨٩م.

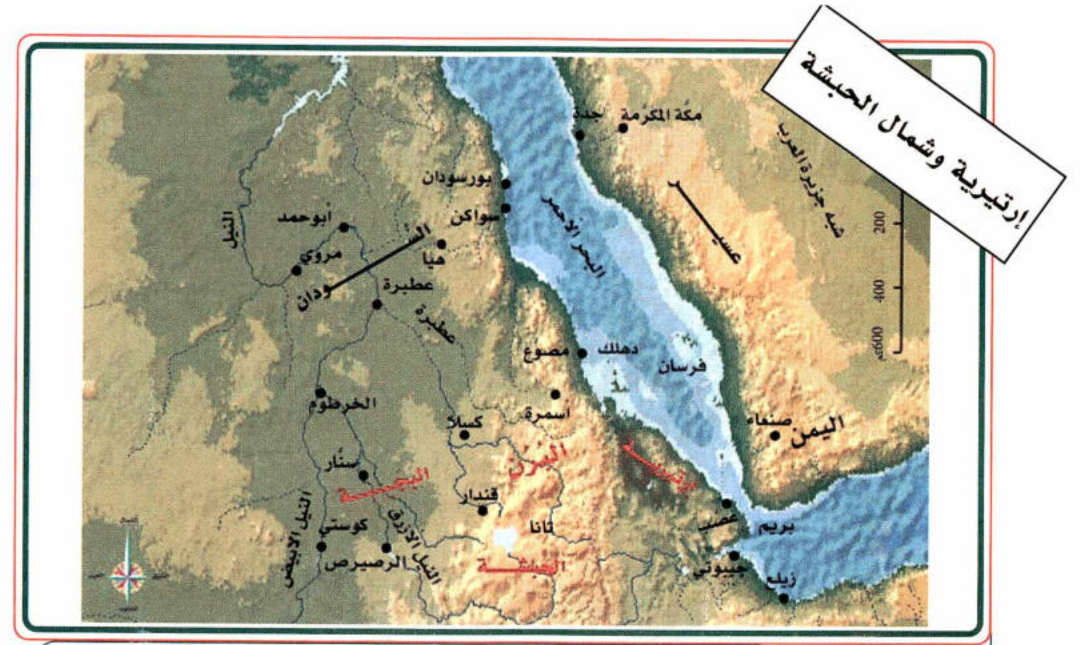


منابع النيل الأزرق (تانا)



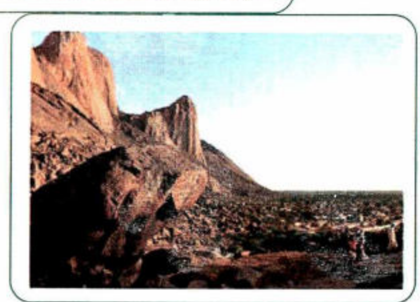
سد الرُّصيرص (الجزيرة - السودان)

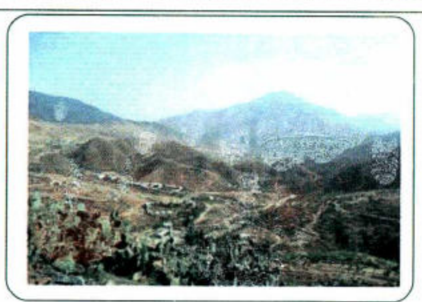
إرتيرية وشمال الحبشة





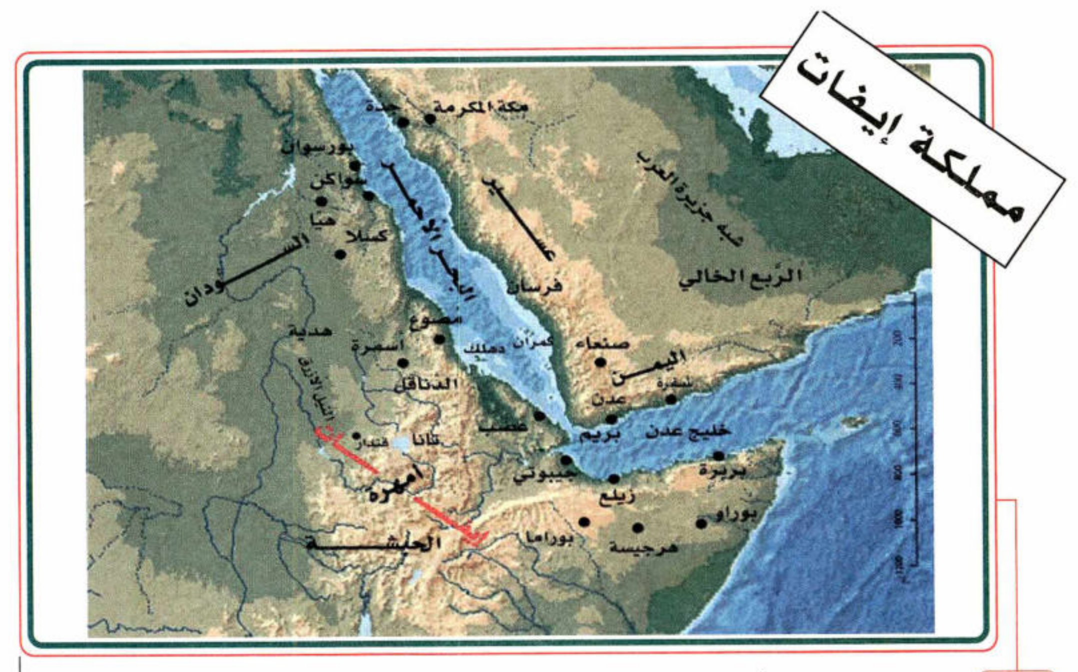
الطبيعة في هضبة الحبشة





إرتيرية

مملكة إيفات



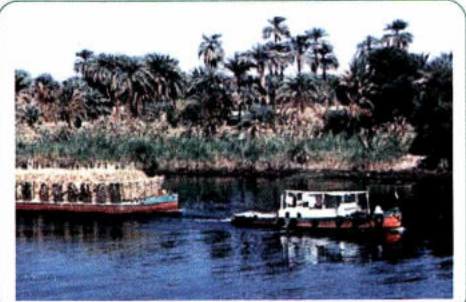
وفي عهد أَسيون (١٣١٤ - ١٣٤٤م) تمَّ اضطهاد المسلمين ومحاربتهم وقهرهم، وأَنهى سيف أَرعد سلطنة إِيفات الإِسلاميَّة، وظهرت سلطنة عدل محلَّها.

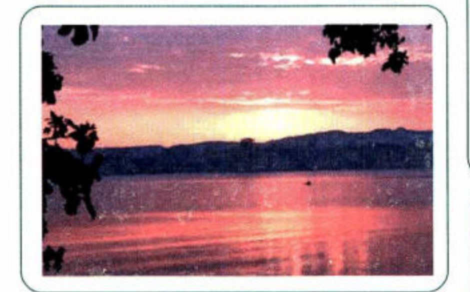
في القرن الخامس عشر الميلادي توحَّدت الممالك المسيحيَّة للمرَّة الأُولى، وفكَّرت بالهجوم على مصر عام **١٤٢٥**م بالتَّعاون مع الغرب الصَّليبي، وتعاونت الملكة هيلينا مع البرتغاليِّين على حرب المسلمين، بعد أَن ازداد انتشارهم عام **١٥٢٠**م، وفي هذا العام نزل البرتغاليُّون في ميناء مُصَوَّع، وحوَّلوا المسجد إِلى كنيسة، وظهر الإِمام أَحمد بن إِبراهيم الأشول، وأَوَّل نصر كبير له على الأَحباش عام **١٥٢٩**م، وسيطر على دوارو وشوا سنة **١٥٣١**م، وأَمهرة سنة **١٥٣٣**م، وعمَّت سيطرته على الحبشة عام **١٥٣٧**م، وانتشر الإسلام في جميع أَنحاء الدَّولة، فاستنجد إِمبراطور الحبشة بالبرتغاليِّين، ووصلت حملتهم عام **١٥٤٢**م، وتمكَّن العثمانيُّون وشريف مكَّة المكرَّمة من مساندة الإِمام الأشول ودعمه عسكريّاً، فانتصر الإِمام على البرتغاليِّين، وبعد عودة القوات العثمانيَّة إِلى الجزيرة العربيَّة، يعود البرتغاليون ويقتلون الإِمام الأَشول عام **١٥٤٢**م.



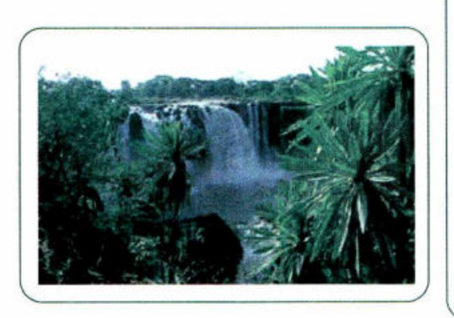
أمهرة

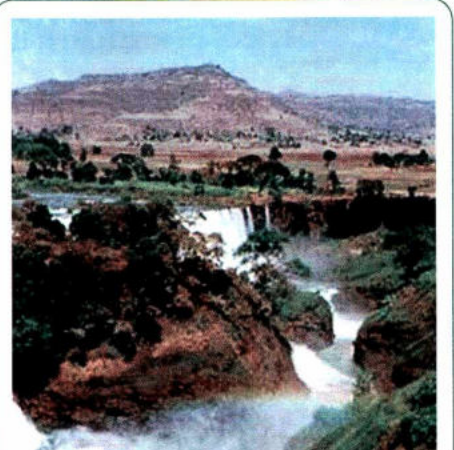
النيل الأبيض



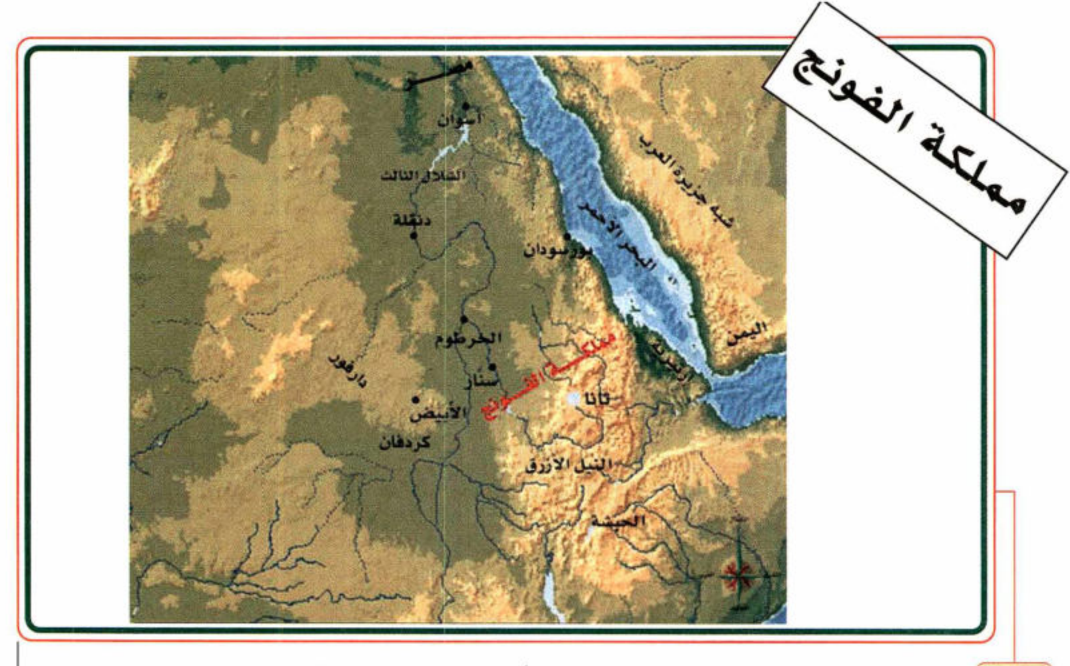


بحيرة تانا





النيل الأزرق



وفي عام ١٦٨٢م، يفرض يوحنَّا ملك الحبشة التَّنصير على المسلمين.

وفي عام ١٧٤٤م تمكَّنت مملكة الفونج السُّودانيَّة المسلمة من الانتصار على الأَحباش، فازداد انتشار الإِسلام في قلب الهضبة الحبشيَّة، واستمر انتشاره في القرن التَّاسع عشر بين قبائل الجالا والبانتو، وبين بعض قبائل التيجري في إِرتيرية. واضطهد الإِمبراطور تيودور عام ١٨٥٥م المسلمين، وضمن التَّنافس الاستعماري، تقدَّمت حملة بريطانيَّة بقيادة نابير وهزمت تيودور، الَّذي انتحر عام ١٨٦٨م.

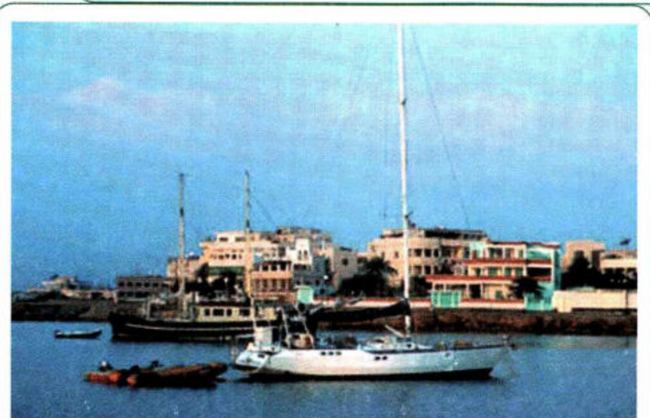
وفي زمن يوحنَّا الرَّابع الَّذي تعصَّب واضطهد المسلمين، اشتبك مع جيش المهدي السُّوداني وانتهت المعركة بهزيمة يوحنَّا الرَّابع وقتله، في موقعة المتمَّة ١٨٩٩م.

أَمَّا في القرن العشرين، فتولَّى العرش عام ١٩١٣م الإِمبراطور ليج ياسو الَّذي أَعلن إِسلامه، فتآمرت الدُّول الأُوربيَّة وعزلته عام ١٩١٦م، ونصَّبت زاوديتو على الحبشة، وتسلَّم ابنها هيلاسيلاسي عام ١٩٢١م الملك، الَّذي عُرِف بتعصُّبه المقيت، فاضطهد المسلمين، وحرمهم من الوظائف[١].

(١) المرجع السَّابق.

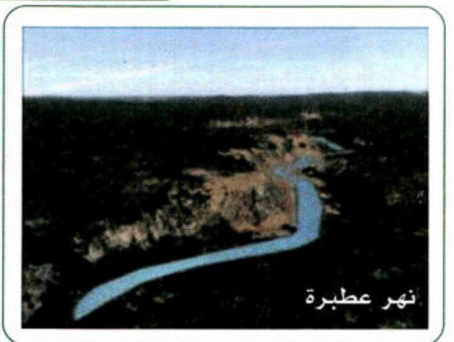


بحيرة فكتوريا

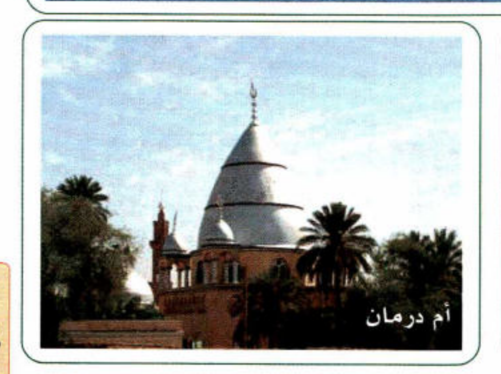


بورسودان

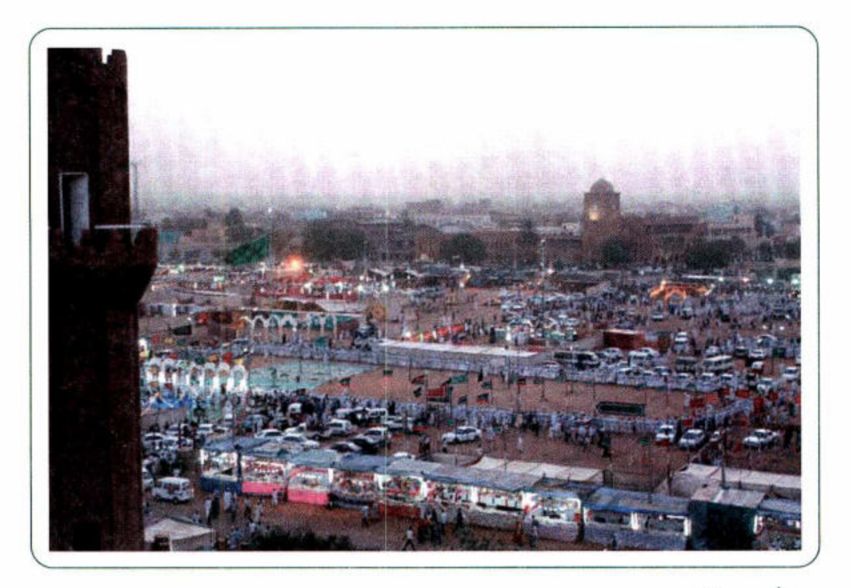




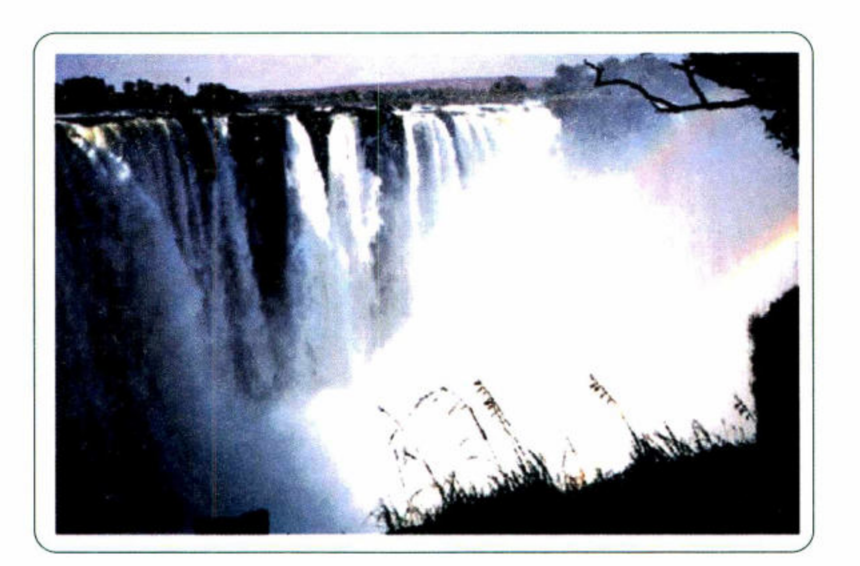
نهر عطبرة



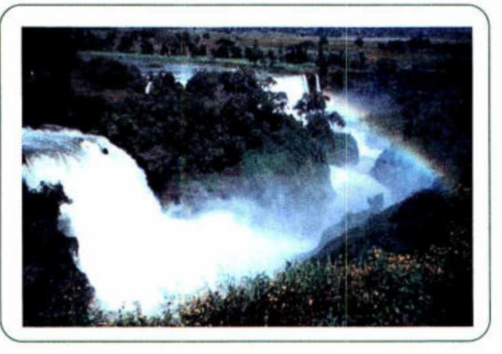
أم درمان



أم درمان



بحيرة فكتوريا



النيل الأزرق

أَساليب الدُّعاة المسلمين في نشر الدَّعوة

بعد العرض المفصَّل والموثَّق لانتشار الإسلام في القارَّة الإفريقيَّة، يجمل السِّير توماس أرنولد أساليب الدُّعاة في نشر الإسلام قائلاً: الأَساليب السِّلميَّة كانت الطَّابع الغالب على انتشار الإسلام في إفريقية، برفق الدَّاعية المسلم وأناته انتشر الإسلام سريعاً، وكانت «أَساليب العنف فاشلة»، التَّاجر المسلم من العرب أَو الماندنجو يجمع بين نشر دعوته وبيع سلعته، وإنَّ مهمَّته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأُولئك الَّذين يريد أَن يحوِّلهم إلى الإسلام، وإذا ما دخل مثل هذا الرَّجل قرية وثنيَّة؛ فسرعان ما يلفت الأَنظار بكثرة وضوئه، وانتظام أَوقات الصّلاة والعبادة، وبما يتحلَّى به من سموٍّ عقلي وخلقي، ليفرض احترامه والثِّقة به على الأَهالي الوثنيِّين[1].

في بعض قبائل إفريقية، تضمُّ كلُّ قرية داراً لاستقبالهم (دار ضيافة)، ويعاملون بأَعظم مظاهر الاحترام والتَّقدير، وعند القبائل الوثنيَّة

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ٣٩٠.

المتحاربة، يبجِّلهم الجميع دون استثناء، فيؤسِّس الدُّعاة مدارسهم حيث يحترمهم النَّاس باعتبارهم معلِّمي أبنائهم[1].

وترجع الاستجابة السَّريعة بين الوثنيِّين إلى مدِّ المستمع بحقائق تصل إلى القلب، وتنمِّي الإدراك، فيحكِّم الوثنيُّ عقله، مع محبَّة وإخاء وتساويهم أمام الله، ولون الزِّنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد في الدِّين على أن يتعصَّبوا عليه[2]، «وفي الحقِّ يظهر أَنَّ الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنَّه من طبقة منحطَّة، كما كانت الحال - لسوء الحظِّ - في كثير من الأحيان في العالم المسيحيِّ»[3].

قال الشَّاعر:

ليس يزري السَّواد بالرَّجل الشَّهم ولا بـالـفـتـى الأديـب الأريـب
إن يكـن لـلـسَّـواد فيـك نـصـيـب فبياض الأخلاق منك نصيبي[4]

«ومما يساعد في الوقت نفسه مساعدة كبيرة جدّاً على تفسير نجاح هذا الدِّين، أَنَّ مجرّد الدُّخول في الإسلام يدلُّ ضمناً على التَّرقِّي في الحضارة، وأَنَّه خطوة جِدُّ متميِّزة في تقدُّم القبيلة الزِّنجيَّة عقليّاً ومادِّيّاً»[5].

إنَّ أقبح الرَّذائل، وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قرباناً، ووأد الأَطفال أَحياء، رذائل اختفت فجأَة إلى الأَبد، ولَبِس العراة وتأنَّقوا في ملابسهم، والَّذين لم يغتسلوا قط من قبل، بدؤوا يغتسلون، بل يكثرون من الاغتسال، لأنَّ الشَّريعة المقدَّسة تأمر بالطَّهارة[6].

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٣٩٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٩٣.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٣٩٤.
(٤) المرجع السَّابق، ص ٣٩٦، عن ابن خَلِّكان ١/ ١٨.
(٥) المرجع السَّابق، ص ٣٩٦.
(٦) المرجع السَّابق، ص ٣٩٧.

رافق انتشار الإِسلام انتشار التَّعليم، حتَّى في اللُّغات القوميَّة، وبين الفقراء، على نفقة الخزانة العامَّة، فجاء توظيف المسلمين من قبل المستعمرين الأُوربيِّين ضرورة، فهم المتعلِّمون المثقَّفون[١].

وأَصبحت العربيَّة لغة تخاطب بين قبائل نصف القارَّة، مع تقدُّم صناعي «صناعات تنطوي على مهارة فائقة»[٢]، «فمن المسلَّم به من كلِّ الوجوه أَنَّ الإِسلام يمدُّ السُّود الَّذين أَسلموا حديثاً بالنَّشاط والعزَّة، والاعتماد على النَّفس، واحترام الذَّات، وهذه كلُّها صفات يندر جدّاً أَن نجدها في مواطنيهم الوثنيِّين أَو المسيحيِّين»[٣].



مسجد في شمال نيجيرية

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٠٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٩٨.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٣٩٩.

دعاة المسلمين
عدم وجود هيئة منظِّمة لهم

رافق ما يسمَّى الكشوف الجغرافية (الاستعمار حقيقة) تبشير منظَّم[١].

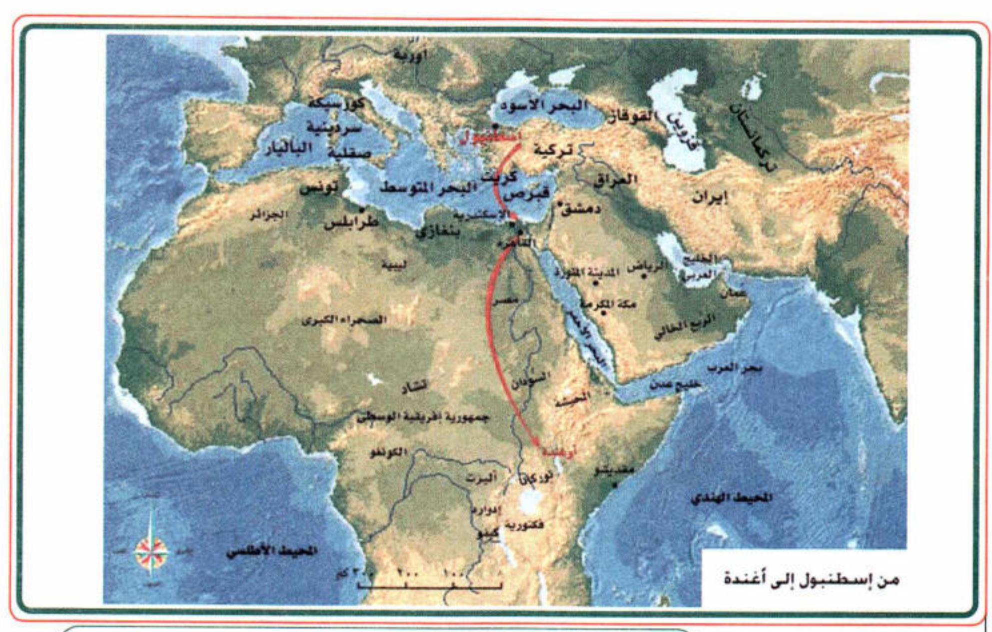
في العالم المسيحي الحديث تتمثّل مهمة التَّبشير في الجمعيَّات التَّبشيريَّة، الَّتي قدَّمت للمبشِّرين الَّذين رافقوا سفن المستعمِرين أُجوراً عالية، وتبرُّعات، وصحفاً ونشرات. ويبدو أَنَّ (مشروع التَّبشير) تسمية غير صحيحة متى كان مجرَّداً من هيئة مؤلفة تأليفاً منظّماً بصفة مستمرة، قساوسة ورهبان يعيَّنون لهذا الغرض بانتظام وتأهيل[٢].

أَمَّا في الإِسلام، فإِنَّ عدم وجود أَيِّ لون من أَلوان الكهنوت، أَو أَيَّة هيئة دينيَّة منظَّمة، أَياً كانت، حتَّى مطلع القرن العشرين، فقد تجلَّى نشاط الدَّعوة عند المسلمين في صورة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الَّتي تظهر في تاريخ البعوث التَّبشيريَّة المسيحيَّة.

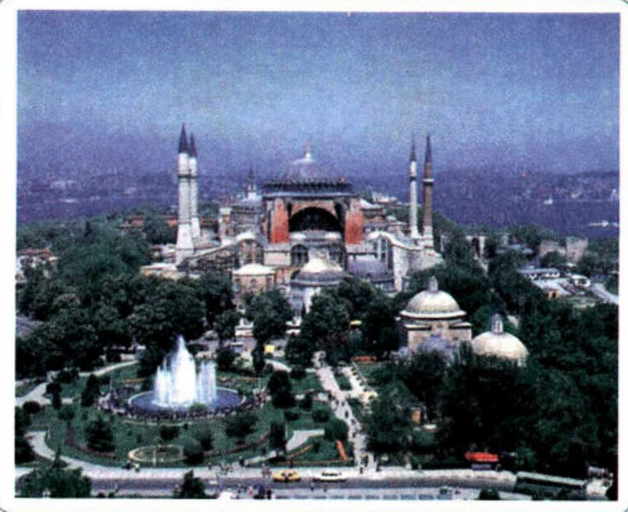
لم تكن جمعيَّات للدَّعوة الإِسلاميَّة قبل النِّصف الأَخير من القرن

(١) حاضر العالم الإِسلامي وقضاياه المعاصرة، د. جميل عبد الله محمد المصري، دار أُم القرى، عمَّان، الأُردن، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

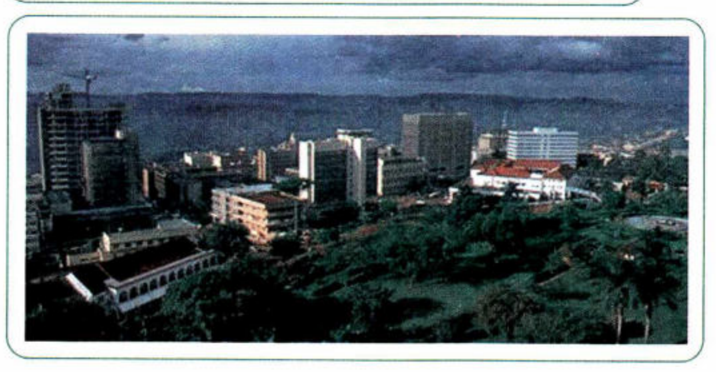
(٢) الدَّعوة إِلى الإِسلام، ص ٤٤٩.



من إسطنبول إلى أغندة



أياصوفيا (إسطنبول)



كمبالا (أوغندة)

التَّاسع عشر، لقد قامت جمعيَّة في إسطنبول لنشر الدَّعوة في أُوغندة، وأَسَّس الشَّيخ محمد رشيد رضا - صاحب مجلَّة المنار - جمعية في القاهرة عام ١٩١٠م، كانت تهدف إلى تأسيس كليَّة تسمَّى الدَّعوة والإرشاد، لتدريب دعاة وجدليِّين للدِّين الإسلامي. وفي الهند تعدُّ (أَنجومان حمايت إسلام) في لاهور؛ من أَحسن الهيئات المنظَّمة. وفي أَجمير تأسَّست (أَنجومان حامي إسلام) لتجيب عن الاعتراضات الَّتي وجَّهها للإسلام أَعضاء (أَريه سماج)، ومن أَغراضها، الدَّعوة إلى الإسلام. وقَصَرَت (أَنجومان وعظ إسلام) جهودها على الدَّعوة، كما فعلت (أَنجومان تبليغ إسلام) في حيدر أَباد (الدكن)، وجمعية (مدرسة إلاهيت) في كونبور لتدريب الدُّعاة ونشر الرَّسائل دفاعاً عن الإسلام، وردّاً على الحملات الَّتي توجَّه إليه، وقامت (أَنجومان إساعت وتعليم الإسلام) في البنجاب. و(أَنجومان هداية الإسلام) في دلهي، تعد أَعظم هذه الهيئات المنظَّمة، وينضم إليها عدد كبير من الجمعيات الأُخرى، يبلغ عددها أَربعاً وعشرين جمعيَّة في جهات مختلفة من الهند، وترسل هذه الجمعيات (الإنجامات) الدُّعاة للدَّعوة إلى الإسلام، ولعقد مناظرات مع غير المسلمين، كما تقوم بنشر الكتب الجدليَّة، وخاصة في الرَّدِّ على الهجمات الَّتي يوجِّهها أَعضاء (أَرية سماج)[١].

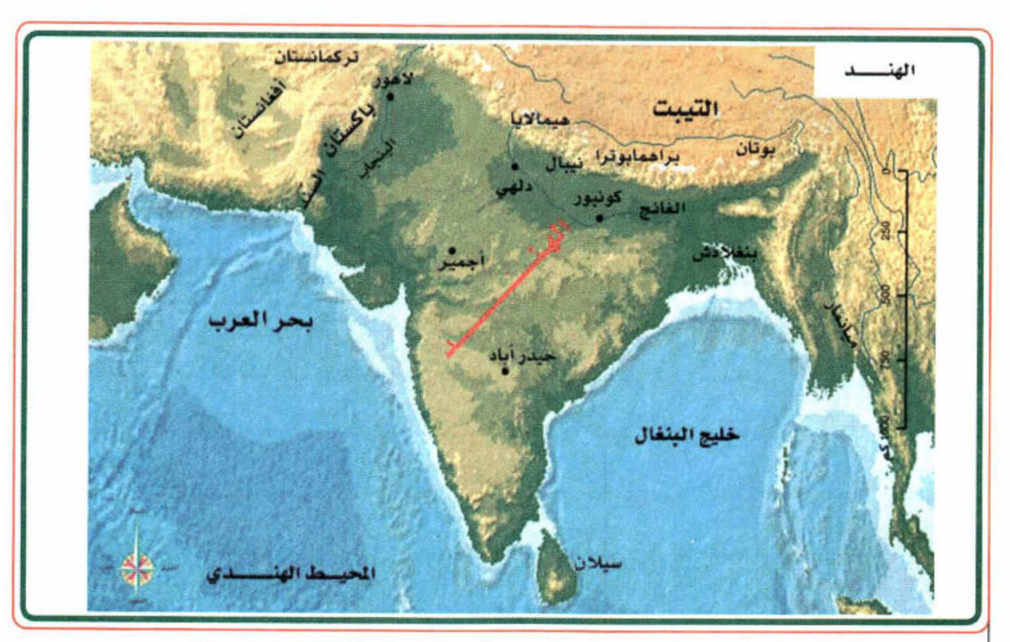
وتأَسَّست رابطة العالم الإسلامي في ١٤ ذي الحجة ١٣٨١هـ / ١٨ أَيَّار ١٩٦٢م، من أَهدافها تبليغ دعوة الإسلام، وشرح مبادئه وتعاليمه، ودحض الشّبهات عنه[٢].

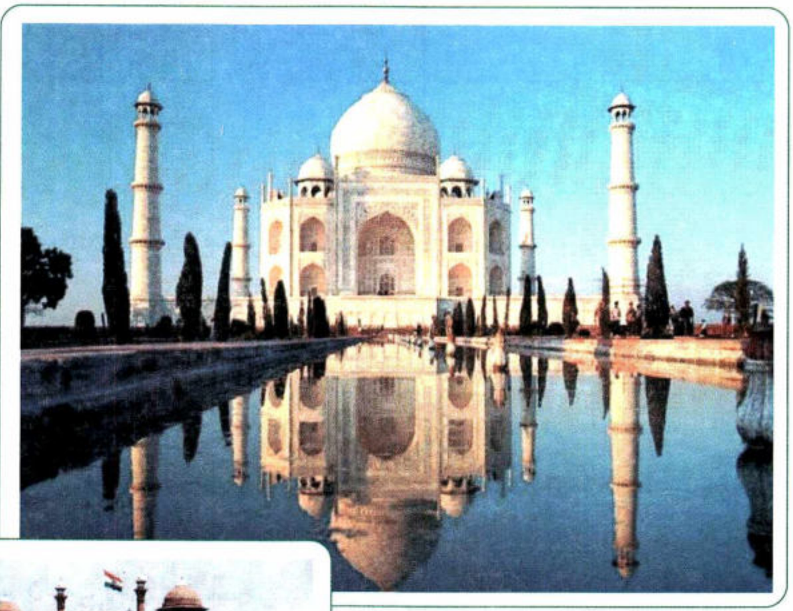
فالمهمَّة حتَّى أوائل القرن العشرين؛ كانت ملقاة على عاتق الأَفراد، من مبدأ الشُّعور بالمسؤوليَّة الشَّخصيَّة عند المسلم.

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٧٨.

(٢) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ص ٢٨١.


الهنـــد
تركمانستان
لاهور
أفغانستان
باكستان
هيمالايا
التيبت
براهمابوترا
نيبال
بوتان
دلهي
كونبور
الغانج
بنغلادش
أجمير
بحر العرب
حيدر أباد
خليج البنغال
المحيـط الهنـــدي
سيلان



تاج محل

دلهي

كلُّ مسلم داعية إلى دينه سلوكاً وقولاً، من الأمير إلى الفلّاح، فقد نشرت صحيفة إحدى جمعيّات لاهور الدِّينيَّة الخيريَّة أسماء معلِّمي مدارس، وكتّاب للحكومة، وتجّار، وصاحب عَرَبة نقل يجرُّها جَمَل، ومحرِّر إحدى الصُّحف، ومجلِّد كتب، وعامل في مطبعة.. خصَّص هؤلاء النَّاس ساعات فراغهم بعد إنجاز عملهم اليومي للدَّعوة إلى دينهم في الطُّرقات، وأسواق المدن الهنديَّة، بحوار لطيف دون تصادم.

وكان للنِّساء المسلمات نصيبهن في هذه المهمَّة الدِّينيَّة، فيرجع الفضل في إسلام كثير من أُمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة. وأنشأ دعاة السَّنوسيَّة شمال بحيرة تشاد مدارس للبنات، وكسبوا نفوذ المرأة القوي بين القبائل، فبذلوا جهودهم لجذبهنَّ إلى صفوف الإسلام، وتقدُّم الإسلام في الحبشة خلال النِّصف الأوَّل من القرن التَّاسع عشر، كان راجعاً إلى حدٍّ كبير إلى ما بذلته النِّساء المسلمات من الجهود، وخاصَّة نساء الأُمراء، ونساء السُّودان المسلمات، كنَّ سبب إسلام عدد من قبيلة وثنيَّة تسمَّى البُرُن Boruns على حدود الحبشة الغربيَّة[1].

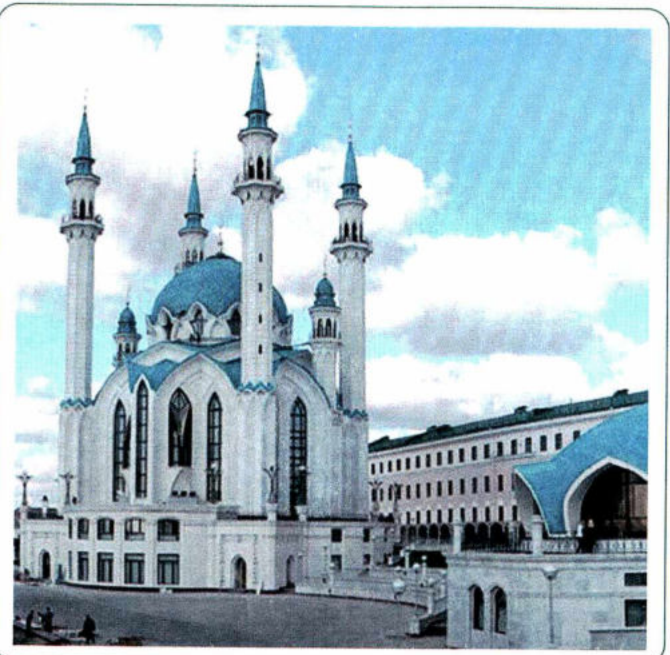
ونساء قازان التَّتريَّات ذوات غَيْرة على دينهن، فكنَّ داعيات إلى جانب الرِّجال[2].

حتَّى الأسير المسلم، كان يغتنم في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأَسْر إلى دينه، فأسير مسلم جيء به إلى بلاد بتشنج - Pechenege الواقعة بين الدَّانوب الأدنى ونهر الدُّون - في مستهل القرن الحادي عشر، نشر الإسلام بين نزلاء السِّجن، ثمَّ انتشر بين الشَّعب، ولم تأتِ نهاية القرن الحادي عشر حتَّى كان الشَّعب بأسره قد اعتنق الإسلام[3].

(١) الدَّعوة إلى الإسلام، ص ٤٥١.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٥٢.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٤٥٣.



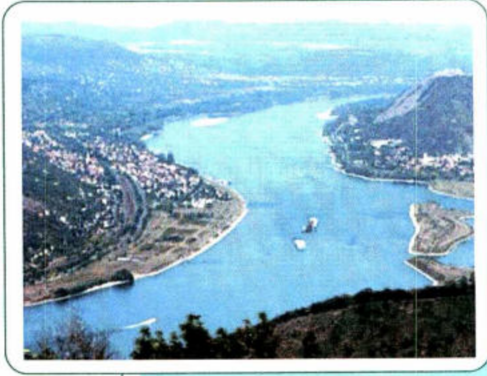
وفي إِفريقية الوسطى، حكم البلجيكيُّون على زعيم عربي بالإعدام، فقضى ساعاته الأَخيرة وهو يحاول أَن يدخل في الإِسلام ذلك المبشِّر المسيحي الَّذي كان قد أُرسل إِليه ليزجي إِليه التَّعزيات الدِّينيَّة[1].



قازان عاصمة تتارستان

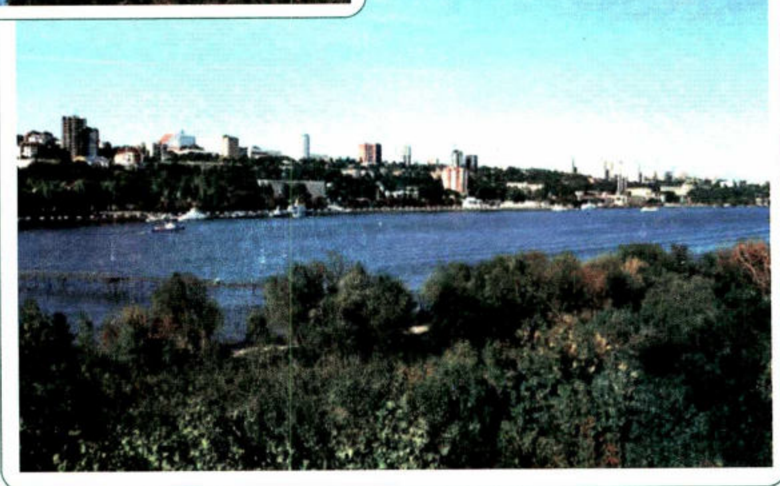
(١) المرجع السَّابق، ص ٤٥٤.





نهر الدانوب

نهر الدُّون



عوامل نجاح الدَّعوة
أَسباب انتشار الإِسلام الدَّعوي

إِنَّ بساطة العقيدة الإِسلاميَّة هي العامل الأَوَّل لنجاح الدَّعوة، لا تعقيد ولا تسليم بما لا يقبله العقل، عقيدة تدخل في نطاق الفهم والقبول للإِنسان العادي، خالية من الحيل النَّظريَّة اللَّاهوتيَّة، يشرحها أَيُّ فرد حتَّى أَقلُّ النَّاس خبرة بالعبارات الدِّينيَّة[1].

الطَّابع العقلي للعقيدة الإِسلاميَّة يبعث على الإِعجاب، إِنَّها تمتلك قوَّة عجيبة لاكتساب طريقها إِلى ضمائر النَّاس، أَمدَّت هذه العقيدة جحافل المسلمين بوسائل الفتح الَّتي لا تُقْهر.

روح الصَّداقة فعَّالة بين المسلمين، ذلك العمود الفقري لأَخلاقهم.

ثبات في العزيمة والقوَّة في الإِرادة.

وصبر لا يعرف سبيلاً إِلى الشَّكوى.

في الحجِّ، اجتماع المؤمنين كلَّ سنة على اختلاف الشُّعوب واللُّغات، من أَنحاء العالم كافة[2]، «ولم تستطع أَيَّة محاولة يقوم بها عباقرة أَيّ دين

(١) الدَّعوة إِلى الإِسلام، ص ٤٥٤.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٥٥.

أن تتصوَّر وسيلة أحسن من هذه الوسيلة، تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، وأُخوَّتهم الَّتي ارتبطت بروابط الدِّين، وفي ذلك المكان، حيث نجد عملاً سامياً من أعمال العبادة المشتركة، ترى زنجي ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصِّيني من أقصى الشَّرق، ويتعرَّف التُّركي الرَّقيق المهذَّب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الَّذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو..»[1].

إنَّ منظر التَّاجر المسلم في صلاته، في سكينته واستغراقه، إجلال وخشوع، يؤثِّر في الإفريقي الوثني[2].

ولم يجذب الإسلام النَّاس عن طريق مراودتهم في ملذَّاتهم الشَّخصيَّة، وكما يقول توماس كارليل: «إنَّ دينه [صلى الله عليه وسلم] ليس بالدِّين السَّهل، فإنَّه بما فيه من صوم قاسٍ، وطهارة، وصيغ معقَّدة صارمة، وصلوات خمس كلَّ يوم، وإمساك عن شرب الخمر، لم يفلح في أن يكون ديناً سهلاً».

هذا التَّناسق بين النِّظامَيْن العقلي والتَّعبُّدي سرُّ السَّيطرة الَّتي أحدثها الإسلام على عقول النَّاس، «فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من النَّاس، لقِّنهم الحقيقة في صورة حاسمة دقيقة واضحة، وفي أُسلوب مرئي مُحَسّ»[3].

التَّاجر المسلم خبرته بالنَّاس والأخلاق، وحنكته التِّجاريَّة تنيلانه قبولاً حسناً، يتحمَّل أخطار السَّفر الطَّويل، ويطرح جانباً كلَّ المشاغل الدُّنيويَّة لغرض واحد، هو أن يظفر بقوم يدخلهم في دعوته.

وعقيدته تلتزم بالتَّسامح، وحرِّيَّة الحياة الدِّينيَّة لجميع أتباع الدِّيانات

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٥٧.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٥٩.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٤٦٠.

الأُخرى، «ينعمون في ظلِّ الحكم الإِسلامي بدرجة من التَّسامح، لم نكن نجد لها مثيلاً في أُوربة حتَّى عصور حديثة جدّاً»[1]، وإِنَّ التَّحويل إِلى الإِسلام عن طريق الإِكراه محرَّم، طبقاً لتعاليم القرآن:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠/٩٩-١٠٠].

وإِنَّ مجرَّد وجود كثير من الفِرَق والجماعات المسيحيَّة في الأَقطار الَّتي ظلَّت قروناً في ظلِّ الحكم الإِسلامي، لدليل ثابت على ذلك التَّسامح الَّذي نَعِم به هؤلاء المسيحيُّون[2].

«وإِن وقع الاضطهاد يوماً؛ فلظروف سياسيَّة، كانتقام المسلمين من سلوك الغطرسة والإِهانة الَّذي ظهر به المسيحيُّون في ساعة تقدُّمهم ونفوذهم في ظلِّ المغول الأَوَّلين.

القاضي الفاضل عبد الرَّحيم بن علي، وهو من أَشهر قضاة المسلمين، وكبير وزراء صلاح الدِّين الأَيوبي يقول: «إِنَّ رجلاً قد أُرغم على الدُّخول في الإِسلام، لا يصحُّ شرعاً أَن يسمَّى مسلماً»[3].

تأْثير حياة الورع والتَّقوى الَّتي يحياها المسلمون؛ تمثِّل تفوُّقاً خلقيّاً[4].

الأُسوة الحسنة؛ الجانب الخلقي محورها، من أَجل ذلك ركَّز الإِسلام على الخلق الحسن، وفي الحديث الشَّريف: «أَكمل المؤمنين إِيماناً، أَحسنهم خُلُقاً»[5].

---

(١) المرجع السَّابق، ص ٤٦١.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٦٢.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٤٦٣.
(٤) المرجع السَّابق، ص ٤٦٧.
(٥) أخرجه أبو داود.

فقدان السُّلطة السِّياسيَّة لا تعني توقُّف انتشار الإسلام، النَّشاط الرُّوحي للإسلام مستمر مبرزاً أَصدق البواعث الَّتي تحفز إلى القيام بأعمال الدَّعوة، وقد تعلَّم الإسلام منافع الشَّدائد[1].

الحوار مع الآخر بالَّتي هي أَحسن أمر قرآني، واستمرَّ الحوار أَيَّام الأُمويِّين والعبَّاسيِّين، وأَقدر مفكِّري المسلمين؛ وقفوا أَقلامهم في كتابة حوارات وردود، مثل: أَبو يوسف بن إِسحاق الكندي (٨٧٣م)، والمسعودي (٩٥٨م)، وابن حزم (١٠٦٤م)، وحجَّة الإِسلام الغزالي (١١١١م).

ومن الطَّريف، أَنَّ ممَّن اعتنق الإِسلام؛ كتب دفاعاً عن الإِسلام، وهذا يدلُّ على وعي وفهم وقناعة، مثل: ابن حزلة في القرن الحادي عشر، ويوسف اللُّبناني، والشَّيخ زيادة بن يحيى في القرن الثَّالث عشر، وعبد الله بن عبد الله في القرن الخامس عشر، ودرويش علي في القرن السَّادس عشر[2]..



الفيحاء
دمشق الشام

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٦٩.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٤٧٧.

خَاتِمَةٌ

وبَعْدُ. .

فالكنيسة في أُوربة لا تريد حواراً، ولا تؤمن به، لأَنَّ هذا الحوار، إذا كان ميزانه العقل والعلم فلن يكون - يقيناً - إلى جانبها، أَو لمصلحتها، فالكنيسة الأُوربيَّة الَّتي تبيع الكثير من أَماكن العبادة، تنفق في الوقت نفسه مليارات الدُّولارات لتنصير المسلمين في أَرجاء العالم الإسلامي، وخصوصاً في إفريقية وجنوب شرق آسية، وكان الأَولى بها ترميم بيتها الإيماني الخَرِب، وستر عورتها، قبل التَّبشير في الخارج.

وطريقتهم في التَّبشير، الكذب واتِّباع الأَساليب غير الأَخلاقيَّة مكشوفة.

رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الكيرنوي العثماني، صاحب كتاب (إظهار الحقِّ)، وُلِد في قرية كَيْرانة التَّابعة لمدينة دلهي في ٩ آذار (مارس) سنة ١٨١٨م، نشأ في كنف أُسرة واسعة الثَّراء والجاه، وبدأ تعلُّمه في بلدته على يد والده، وكبار أَفراد أُسرته المشهورين بالعلم والفضل والدِّين، وكان قد أَتمَّ حفظ القرآن الكريم في الثَّانية عشرة من عمره، وأَتقن اللُّغات الثَّلاث: العربيَّة والفارسيَّة والأُوردية، ثمَّ ارتحل إلى دلهي لطلب التَّعليم العالي، ثمَّ سافر إلى لكناو ودرس الطِّب والرِّياضيات والهندسة، ولمَّا رجع إلى كَيْرانة؛ تصدَّر مجالس العلوم الشَّرعيَّة والإفتاء،

وأَسَّس مدرسة شرعيَّة، تخرَّج فيها كبار المدرِّسين والمؤلِّفين ومؤسِّسي المدارس في أرجاء الهند.

تنبَّه الشَّيخ رحمة الله لأَخطار التَّنصير المحدقة بمسلمي الهند، ولضخامة الجهود الَّتي يبذلها المنصِّرون بمساعدة الاستعمار الإِنكليزي، ترك وظيفته في التَّدريس، وتفرَّغ لمقارعة المنصِّرين والرَّدِّ عليهم بالقلم واللِّسان، فدَرَس النَّصرانيَّة في مصادرها الأَصليَّة، حتَّى فاق علماءَها المتخصِّصين فيها، ثمَّ بدأ يؤلِّف كتبه للرَّدِّ على المنصِّرين، ولذلك تركَّزت معظم مؤلَّفاته في هذا المجال، ولما تمتاز به مؤلَّفاته من تحقيق علمي وتدقيق لم يُسْبَق إِليه، كان الشَّيخ رحمة الله في عصره أُستاذ الهند بلا منازع في علم مقارنة الأَديان، والرَّدِّ على النَّصارى.

ومن مناظراته الكثيرة، مناظرته في نيسان (إبريل) عام ١٨٥٤م مع القسِّيسَيْن فندر وفرنج في أكرا، وكانت المناظرة في يومين متتاليين في موضوعَيْ النَّسخ والتَّحريف، ولقد اعترف فندر وفرنج بتحريف كتب أَهل الكتاب في سبعة مواضع أَصليَّة أَو ثمانية، وبوجود أَربعين أَلف اختلاف عبارة.

واشترك الشَّيخ رحمة الله في الثَّورة على الاستعمار الإِنكليزي في الهند سنة ١٨٥٧م، ولمَّا فشلت الثَّورة، وأَخمدها الإِنكليز بوحشيَّة بالغة، نصبوا أَعواد المشانق للعلماء، وجعلوا مكافأة أَلف روبِّيَّة لمن يدلُّهم على الشَّيخ رحمة الله، وصادروا أَملاكه وباعوها بـ (١٤٢٠) روبيَّة، وحظروا بيع كتبه أَو طبعها، فاضطر إلى الهجرة من الهند متخفِّياً، حتَّى وصل إِلى مكَّة المكرَّمة سنة ١٨٦٢م.

وفي مكَّة المكرَّمة حصل على إِجازة التَّدريس في المسجد الحرام، وسجَّل اسمه في السِّجل الرَّسمي لعلماء الحَرَم، وأَسَّس أَوَّل مدرسة في مكَّة المكرَّمة والحجاز، والَّتي سُمِّيَت المدرسة الصَّولتيَّة، نسبة إِلى المرأة

الهنديَّة المتبرِّعة ببنائها، واسمها (صولت النِّساء)، وبقي الشَّيخ مديراً ومدرِّساً فيها إِلى وفاته في ٢٢ رمضان ١٣٠٨هـ، الموافق ١/ ٥/ ١٨٩١م.

بعد هزيمة فندر في المناظرة وتعرية كتاباته، واعترافه العلني بوقوع النَّسخ والتَّحريف في كتب العهدَيْن القديم والجديد، (وهذا يوصل إِلى العجب أَن يقع التَّحريف في الكتاب، ولا يقع نقصٌ ما)، أَغلق فندر باب المناظرة في مسائل باقية، فلامه الإِنكليز وعنَّفوه، ونظروا إِليه نظرتهم إِلى من جَرَّ على الكنيسة خزياً وعاراً كبيرين، فلم يستطع البقاء في الهند، فسافر إِلى أَلمانية وسويسرة وبريطانية، ثمَّ اختارته الإِرساليَّة الكنسيَّة في لندن منصِّراً في مقرِّ الخلافة الإِسلاميَّة في إِسطنبول، فسافر إِليها سنة ١٨٥٨م.

واتَّصل فندر بالسُّلطان عبد العزيز خان، وزوَّر أَخبار المناظرة، وزعم أَنَّ الغلبة فيها كانت له، ثمَّ دعا مسلمي آسية الصُّغرى (تركية) إِلى الاقتداء بإِخوانهم مسلمي الهند، حيث زعم أَنَّهم تحوَّلوا إِلى النَّصرانيَّة، وأَنَّ المساجد أَصبحت كنائس، وأخذ يتجوَّل في أَرجاء آسية الصُّغرى يشيع أَخبار هذه المناظرة بطريقته الخاصَّة، معتمداً على الكذب وتزوير الحقائق، لرفع مكانته، وستر فضائحه.

ولكنَّ السُّلطان عبد العزيز خان أُصيب بغمٍّ شديد لسماعه أَخبار فندر، وخشي أَن تؤثِّر هذه الإِشاعات في أَبناء المسلمين، وقد علم من الحجَّاج الأَتراك أَنَّ الشَّيخ رحمة الله موجود في مكَّة المكرَّمة، فعجَّل بالأَمر إِلى أَمير مكَّة الشَّريف عبد الله بن عون لإِرسال الشَّيخ رحمة الله إِلى دار الخلافة، ليناظر فندر في إِسطنبول.

ولمَّا حلَّ الشَّيخ ضيفاً رسميّاً في قصر الخلافة، وسمع فندر بذلك، فرَّ هارباً من آسية الصُّغرى، ولم يتريَّث لمقابلة الشَّيخ رحمة الله، فأَوعز السُّلطان العثماني بترحيل المنصِّرين عن آسية الصُّغرى، وحظر نشاطهم، ومصادرة كتبهم، ومنع انتشارها.

وقد حاول القس بركة الله صاحب كتاب (لواء الصَّليب) تزوير الحقائق، فزعم أَنَّ السُّلطان عبد العزيز خان طلب الشَّيخ رحمة الله ليناظر فندر في إسطنبول، لكنَّ فندر توفي قبل وصول الشَّيخ إلى إسطنبول.

وردَّ على هذا الزَّعم إمداد صبري، فبيَّن أَنَّ وصول الشَّيخ رحمة الله إلى إسطنبول كان في أَواخر كانون الأَوَّل (ديسمبر) عام ١٨٦٣م، وأَنَّ فندر توفِّي في أوائل كانون الأَوَّل (ديسمبر) عام ١٨٦٥م، وهذا يدل على أَنَّه غادر إسطنبول حيّاً في كانون الثَّاني (يناير) عام ١٩٦٤م، بعد وصول الشَّيخ إليها بقليل، خوفاً من مقابلته وانكشاف كذبه وفضائحه، وكانت وفاته بعد نحو سنتين من فراره من إسطنبول.

وبعد وصول الشَّيخ رحمة الله إلى إسطنبول استضافه السُّلطان في القصر، ودعا العلماء والوزراء وكبار رجال الدَّولة، وطلب من الشَّيخ أن يقصَّ خبر المناظرة، فلمَّا استبان للسُّلطان طول باع الشَّيخ في هذه الموضوعات، وتمكُّنه منها، طلب منه تأليف كتاب باللُّغة العربيَّة يضمُّ مسائل المناظرة، فعقد الشَّيخ العزم على تأليف كتاب يكون سدّاً منيعاً في وجه المنصِّرين وافتراءاتهم على الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلَّم، وليكون مرجعاً لطلاب العِلْم والباحثين عن الحقِّ، والمتخصِّصين في هذا الفن.

بدأ الشَّيخ وهو في إسطنبول تأليف كتاب (إظهار الحقِّ) بتاريخ ١٦رجب ١٢٨٠هـ، أَواخر كانون الأَوَّل (ديسمبر) ١٨٦٣م، وانتهى منه أَواخر ذي الحجَّة ١٢٨٠هـ، حزيران (يونيو) ١٨٦٤م.

طُبع (إظهار الحقِّ) في عهد السُّلطان عبد العزيز خان في إسطنبول، وذلك في أَوائل المحرَّم سنة ١٢٨٤هـ/ أَيَّار (مايو) ١٨٦٧م، ثمَّ توالت الطَّبعات، وأَمر السُّلطان عبد الحميد خان بترجمته وطباعته وتوزيعه في العالم الإسلامي، وفعلاً تُرجم إلى تسع لغات أَجنبيَّة، منها: الأَلمانيَّة

والفرنسيَّة والإنكليزيَّة، وأصبحت لا تكاد تخلو مكتبة في الشَّرق والغرب من نسخة لهذا الكتاب[١].

ظهر كتاب (إظهار الحقِّ) في وقت كانت الحاجة إليه ماسَّة، حيث كان سلطان النَّصارى غالباً على معظم أنحاء العالم، وكان المنصِّرون يؤلِّفون الكتب الَّتي يتهجَّمون فيها على الإسلام وكتابه ونبيِّه صلى الله عليه وسلَّم، ويشوِّهون جميع العقائد الإسلاميَّة والحقائق التَّاريخيَّة، وكانت هذه الكتب تُطبع بجميع اللُّغات العالميَّة.

وكتاب (إظهار الحقِّ) يُعَدُّ من خير ما أُلِّف للرَّدِّ على المبشِّرين وكشف زيف مزاعمهم ومطاعنهم، مع خلوِّه من الشَّتائم واللَّغو، وتقريره الحقائق الدِّينيَّة والتَّاريخيَّة بأسهل الطُّرق وأقربها، معتمداً التَّوثيق من كتبهم المسلَّم بها، ولذلك لا عجب أن يُحدِث ظهور هذا الكتاب بعدَّة لغات أُوربيَّة صدى عجيباً في الأَوساط النَّصرانيَّة والإسلاميَّة، أَمَّا النَّصارى فقد غاظهم صدور هذا الكتاب وترجمة الحكومة العثمانيَّة له ونشره، فأخذوا يشترون هذا الكتاب من الأَسواق بجميع ترجماته وطبعاته، ويجمعونها ثمَّ يتلفونها بالحرق قاصدين إعدام وجوده من الأَسواق العالميَّة، ومنع وصوله إلى أَيدي القرَّاء عامَّة، والنَّصارى خاصَّة، وقد علَّقت صحيفة التَّايمز اللَّندنيَّة على هذه العمليَّة الحاقدة بقولها: «لو دام النَّاس يقرؤون هذا الكتاب؛ لوقف تقدُّم المسيحيَّة في العالم»، ولكنَّ وقوف الحكومة العثمانيّة آنذاك وراء ترجمة هذا الكتاب وطباعته؛ ساعد على ظهوره وانتشاره، مع كل تلك الجهود المبذولة لطمسه.

وأَمَّا في الأَوساط الإسلاميَّة، فقد أَخذ الطُّلاب والعلماء الباحثون عن

---

(١) انظر: مقدِّمة الدكتور محمد أَحمد ملكاوي لكتاب إظهار الحقِّ، وهي أَوَّل طبعة حديثة قوبلت على نسخة المؤلف المخطوطة، المحفوظة بالمدرسة الصَّولتيَّة بمكَّة المكرَّمة.

الحقِّ يتلقَّفون طبعات هذا الكتاب للدِّراسة والاستفادة منه، وأَقبل النَّاس على شراء طبعاته وترجماته المختلفة إِقبالاً منقطع النَّظير، وقد أَثنى عليه عدد كبير من العلماء ونقلوا منه، وعدُّوه من المراجع الهامَّة في علم مقارنة الأَديان، وأَوصوا باقتنائه، وإِعادة طباعته.

سقت ما سبق للاطلاع على أَساليبهم غير الأَخلاقيَّة، ولذلك فإِن المنسنيور كوجيبر يعترف: «وراء مثاليَّة المسيح قَدِمَ اللُّصوص»[1]. لقد نشروا الحانات والبغاء، وتقدَّر الحانات في كلِّ أَنحاء المستعمرات الإِفريقيَّة بحانة لكلِّ خمس مئة من السُّكَّان، علماً أَنَّ هذا العدد لا يشمل النَّوادي غير المرخّصة. في حين أنه في كلِّ بلدة وصل إِليها الفتح الإِسلامي، بنيت المدارس والبيمارستانات، وخرج منها عدد من العلماء، ويمكننا العودة إلى (معجم البلدان)، فبعد ذكره البلد وموقعها وبماذا تشتهر، يذكر علماءها في مختلف العلوم، وآثارنا في الأَندلس وما وراء النَّهر الباقية تدل علينا.

والحقيقة تقول: ما وصلت فتوح الإِسلام إِلى بلد، ثمَّ انحسر الإِسلام عنها، مع أنه قد انحسرت السُّلطة السِّياسيَّة أَو العسكريَّة، من كاشغر في تركستان الشَّرقيَّة (سينكيانغ)، إِلى السِّنغال، حتَّى الأَندلس... محاكم التَّفتيش هي الَّتي أَبادت من بقي على إِسلامه فيها، وهي الَّتي أَجلت كلَّ من هو غير مسيحي إِلى المغرب والدَّولة العثمانيَّة، ولو تركوا النَّاس أَحراراً في اختيارهم لعقيدتهم كما تعهَّدوا في شروط التَّسليم، لبقوا على إِسلامهم.

ما وصلت فتوح الإِسلام إِلى بلد وانحسر عنها، لماذا؟ لأَنه ما فُرِض بسيف، واعتنقته الشُّعوب عن قناعة، وبعد محاكمة، لا من أَجل حفنة أَرز!.

---

(١) مع الله، ص ١٤٨.

لم يجبر الإسلام أحداً من أبناء الشَّرائع الأُخرى على اعتناقه بالسَّيف قهراً وعنوة، لقد كان هدف الإسلام الأوَّل والأخير في فتوحاته، الحرِّيَّة الكاملة في قبوله، أو عدم قبوله.

ولم يعرف في تاريخه صوراً مثل:

أرسل المشير (لوردابرتس) إلى والدته رسالة في ٢١/٦/١٨٥٧م، يقول فيها: «إنَّ عقوبة القتل المؤثِّرة، هي نَصْبُ الجاني على فم المدفع وإطلاقه، إنّه لمنظر رهيب جدّاً، ولكننا لا نستطيع التَّجنُّب عنه حاليّاً، إنَّ هدفنا الوحيد هو أن نبرهن إلى هؤلاء (المسلمين الأشرار) بأنَّ الإنكليز سيبقون حكام الهند ومالكيها بنصر الله»[(١)].

لسان حالهم وواقعهم يقول: هذا الشَّعب المسلم شرير، فإنَّه إذا ما هوجم يدافع عن نفسه.

العقائد تُعرض ولا تُفْرض

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

[**يونس: ١٠/١٠**].



(١) من كتاب: الأمير سيد صديق حسن خان، حياته وآثاره، للدكتور محمد اجتباء النَّدوي، ص٩٧.

المصادر والمراجع

- أسرار الفاتيكان (قضيَّة ليدل)، ليوبولد ليدل، ترجمة تحسين حجازي، دار التَّضامن، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- الإسلام في إثيوبية: المبروك البهلول إلطيف، جمعيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة، طرابلس، ط١، ١٩٨٩م.
- الإسلام والغرب: الأمير شارلز ولي عهد بريطانية، مركز أُوكسفورد للدِّراسات الإسلاميَّة، ط١، ١٩٩٣م، حقوق الطَّبع محفوظة لسمو الأمير تشارلز، طبع شركة يونيسكيل، بريطانية.
- الإسلام كبديل: د. مراد هوفمان، مؤسَّسة بافارية ومجلَّة النُّور الكويتيَّة، ط١، ١٩٩٣م.
- الإسلام وكفى: د. شوقي أَبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط١/٢٠٠٨م.
- الإسلام نهر يبحث عن مجرى: د. شوقي أَبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- أُصول علم النَّفس: د. أَحمد عزَّت راجح، المكتب المصري الحديث، الإسكندريَّة، ط٨، ١٩٧٠م.
- إظهار الحق: رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الكيرنوي العثماني، تحقيق الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

- الأعلام: خير الدِّين الزُّركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.
- ألف اختراع واختراع (التُّراث الإسلامي في عالمنا)، مؤسَّسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة FSTC، بريطانية، ١٩٩٩م.
- ابن بطوطة (أدب الرِّحلات): دار التُّراث، بيروت، طبعة عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٧٨م.
- تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة: كارل بروكلمان، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٦٥م.
- تاريخ الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب ٣٠، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م.
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين، يوسف أشباخ. ترجمه عن الألمانيَّة: محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر، القاهرة، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.
- تاريخ أُوربة في العصور الوسطى: هـ.أ.ل.فيشر، دار المعارف بمصر، ط٣ (د.ت).
- تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أَبي يعقوب بن جعفر، دار صادر، بيروت، (دون طبعة أو تاريخ).
- تبدُّد أَوهام قسِّيس (الحقيقة العلميَّة فوق الدِّين النَّصراني): د. فرانز غريس، مطبعة دار الطِّباعة (الضِّياء) بوينس آيرس، الأَرجنتين، ترجمه عن الإسبانيَّة خليل سعد ذو الغنى.
- التَّبشير والاستعمار: د. مصطفى الخالدي، ود. عمر فرُّوخ، منشورات المكتبة العصريَّة، صيدا، ١٩٨٦م.
- تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليِّين: أحمد زين الدِّين المليباري، مؤسَّسة الوفاء، بيروت ١٩٨٥م.

- التَّسامح في الإِسلام: د. شوقي أَبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٥، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- تغطية الإِسلام: د. إدوارد سعيد، مؤسَّسة الأَبحاث العربيَّة، ط١، ١٩٨٣م.
- التَّوسع الأُوربي في العالم (أَشكاله وطرقه)، [١٨٦٩ . ١٩١٤م]، بيير رونوفن، تعريب نور الدِّين حاطوم، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- حاضر العالم الإِسلامي: لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧٣م.
- حاضر العالم الإِسلامي وقضاياه المعاصرة، د. جميل عبد الله محمد المصري، دار أُم القرى، عمَّان، الأُردن، ط٢٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
- الحوار دائماً وحوار مع مستشرق: د. شوقي أَبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الدَّعوة إلى الإِسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإِسلامية: السِّير توماس ووكر آرنولد، ترجمة د. حسن إِبراهيم حسن، ود. عبد المجيد عابدين، وإِسماعيل البحراوي، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، ط٣، ١٩٧٠م.
- دفاع عن الإِسلام: لورافيشيا فاغليري، تعريب منير بعلبكي، دار العلم للملايين ١٩٦٠م.
- دور العرب في تكوين الفكر الأُوربي: د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويتيَّة ودار القلم، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
- الدَّعوة الإِسلاميَّة في غرب إِفريقية وقيام دولة الفولاني، د. حسن عيسى عبد الظَّاهر، الزَّهراء للإِعلام العربي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، الدكتورة عصمت عبد اللَّطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- رسالة ابن فضلان، تحقيق د. سامي الدَّهان، وزارة الثقافة السورية (مديرية إحياء التُّراث العربي)، ط٢، ١٩٧٧م.
- السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بين الإنصاف والجحود: محمد مصطفى الهلالي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.
- شرح كتاب السِّير الكبير، محمد بن الحسن الشَّيباني، إملاء محمد بن أحمد السَّرخسي، تحقيق د. صلاح الدِّين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربيَّة، مطبعة شركة الإعلانات الشَّرقيَّة، ١٩٧١م.
- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٨، ١٩٩٣م.
- العهدة العمريَّة (البعد الإنساني في الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة): د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- غارة تبشيريَّة جديدة على إندونيسية: أبو هلال الإندونيسي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- فتح أمريكة (مسألة الآخر): غرفيتان تودوروف، ترجمة بشير السِّباعي، دار سيناء، القاهرة.
- في طلب التَّوابل: سونيا ي. هاو، ترجمة محمد عزيز رفعت، مشروع ألف كتاب (٩٨)، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٧٥م.
- قصة الحضارة: وُل ديورانت، لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر، طبعة الإدارة الثقافيَّة في جامعة الدُّول العربيَّة.
- الغارة على العالم الإسلامي: أ. لوشاتليه، طبعة المطبعة السَّلفيَّة ومكتبتها، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

- الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري، إدارة الطباعة المنيريَّة، القاهرة، ط١، ١٣٤٨هـ.
- كتاب الأمثال: أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، طبعة دار المأمون للتُّراث، دمشق، طبعة عام ١٩٨٠م.
- اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر، سجل وقائع التَّاريخ العربي الإسلامي، طبع القاهرة، ١٩٩٣م (النُّسخة العربيَّة).
- المثل الأعلى في الأنبياء: خواجة أفندي كمال الدِّين، ترجمة أمين محمود الشَّريف، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.
- مجموعة الوثائق السِّياسيَّة للعهد النَّبوي والخلافة الرَّاشدة: محمد حميد الله، دار النَّفائس، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- محاضرات في النَّصرانيَّة: محمد أبو زهرة، دار الكتاب العربي، مصر، ط٣، ١٩٦١م.
- محاكم التَّفتيش: د. سليمان مظهر، القاهرة، ١٩٤٧م.
- المظلومون في التاريخ (أوراق من التَّاريخ ٢): د. شاكر مصطفى، منشورات شركة النُّور، الكويت (د.ت).
- مع الله (دراسات في الدَّعوة والدّعاة): محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط: ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- الهلال والصَّليب: خليل خالد أفندي، مطبعة الهداية بالقاهرة، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.
- ينابيع المسيحيَّة: خواجة أفندي كمال الدين، تعريب إسماعيل حلمي البارودي، منشورات لجنة المحقِّقين، لندن، ١٩٩١م.

كشاف الصُّور

(مرتّباً على حروف المعجم)






هـ


و


ي



كشافٌ عام

أماكن، أعلام، أقوام..

(يقتصر على النَّصّ)

ب

ت


ث


ج















ش





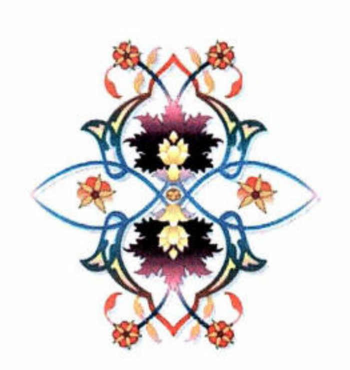
غ

ف

ل

م





المحتوى

